

الألف

كتاب

الثاني

معالم تاريخ الإنسانية

ه.ج. ولز



المجلد الرابع

ترجمة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

عبد العزيز توفيق جاويد

هـ. ج. ولز

H. G. WELLS.

معالم تاريخ الإنسانية

ترجمة

عبد العزيز توفيق جاويد

المجلد الرابع

في التاريخ الحديث

(١٦٠٠ - ١٩٦٥)

هذه ترجمة لكتاب

The Outline of History

Being A Plain History of Life and Mankind By

H. G. Wells.

الفهرس

كلمة المترجم.....	٦
كلمة المترجم للطبعة الثانية.....	١٠

الكتاب الثامن

الفصل الرابع والثلاثون أمراء وبرلمانات ودول ١٣

١- الأمراء والسياسة الخارجية.....	١٤
٢- الجمهورية الهولندية.....	١٦
٣- الجمهورية الإنجليزية.....	٢٠
٤- انقسام ألمانيا واضطرابها.....	٢٩
٥- أبهة الملكية العظمى في أوروبا.....	٣٢
٦- الموسيقى في القرنين السابع عشر والثامن عشر.....	٣٩
٧- التصوير في القرن السابع عشر والثامن عشر.....	٤١
٨- نمو فكرة الدول العظمى.....	٤٣
٩- جمهورية بولنڈة المتوجة ومصيرها.....	٤٨
١٠- أول تخاطف على الإمبراطوريات وراء البحار.....	٥٠
١١- بريطانيا تسود الهند.....	٥٣
١٢- تقدم روسيا إلى المحيط الهادي.....	٥٦
١٣- رأي جيبون في العالم في ١٧٨٠.....	٥٨
١٤- الهدنة الدينية تشارف نهايتها.....	٦٤

الفصل الخامس والثلاثون الجمهوريات الديمقراطية الجديدة بأمريكا وفرنسا ٧٠

١- متاعب نظام الدولة العظمى.....	٧١
٢- المستعمرات الثلاث عشرة قبل عصيانها.....	٧٣
٣- الحرب الأهلية تفرض على المستعمرات فرضاً.....	٧٧
٤- حرب الاستقلال.....	٨٢
٥- دستور الولايات المتحدة.....	٨٤
٦- المظاهر البدائية لدستور الولايات المتحدة.....	٨٩
٧- الفكرة الثورية في فرنسا.....	٩٤
٨- ثورة سنة ١٧٨٩.....	٩٧
٩- الجمهورية الفرنسية المتوجة ٨٩ - ٩١.....	٩٩
١٠- ثورة اليعاقة.....	١٠٦
١١- جمهورية اليعاقة ١٧٩٢ - ١٧٩٤.....	١١٣
١٢- حكومة الإدارة.....	١١٨
١٣- توقف التعمير وفجر الاشتراكية العصرية.....	١٢١

الفصل السادس والثلاثون سيرة نابليون بونابرت ١٢٨

- ١- أسره بونابرت في كورسيكا ١٢٩
- ٢- بونابرت قائدًا جمهوريًا ١٣٠
- ٣- نابليون قنصلًا أول ١٧٩٩ - ١٨٠٤ ١٣٤
- ٤- نابليون الأول إمبراطورًا (١٨٠٤ - ١٨١٤) ١٣٩
- ٥- المائة يوم ١٤٥
- ٦- خريطة أوروبا في ١٨١٥ ١٤٨
- ٧- طراز الإمبراطورية ١٥٢

الفصل السابع والثلاثون حقائق القرن التاسع عشر وخيالاته ١٥٣

- ١- الانقلاب الآلي ١٥٤
- ٢- العلاقة بين الانقلابيين الآلي والصناعي ١٦٢
- ٣- اختصار الأفكار في ١٨٤٨ ١٦٨
- ٤- تطور فكرة الاشتراكية ١٧٠
- ٥- عيوب الاشتراكية بوصفها خطة للجماعة الإنسانية ١٧٧
- ٦- كيف أثر مذهب دارون في الأفكار الدينية والسياسية^٥ ١٨٢
- ٧- فكرة القومية ١٨٩
- ٨- المعرض الكبير ١٨٥١ ١٩٣
- ٩- سيرة حياة نابليون الثالث ١٩٥
- ١٠- لتكوين والحرب الأهلية في أمريكا ٢٠١
- ١١- الحرب الروسية التركية ومعاهدة برلين ٢٠٩
- ١٢- التدافع الثاني على الإمبراطوريات وراء البحار السابقة الهندية في آسيا ٢١٧
- ١٤- تاريخ اليابان ٢٢٠
- ١٥- ختام فترة التوسع وراء البحار ٢٢٤
- ١٦- الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤ ٢٢٥
- ١٧- التصوير والنحت والعمارة ٢٢٧
- ١٨- الموسيقى في القرن التاسع عشر ٢٣٢
- ١٩- نهوض القصة إلى مرتبة الصدارة في الأدب ٢٣٤

الفصل الثامن والثلاثون كارثة الاستعمار العصري^٥ ٢٤٢

- ١- السلام المسلح قبل الحرب العظمى ٢٤٣
- ٢- ألمانيا القيصرية ٢٤٥
- ٣- الروح الاستعمارية في بريطانيا وإرلندة ٢٥٢
- ٤- النزعات الاستعمارية في فرنسا وإيطاليا والبلقان ٢٦٣
- ٥- روسيا تصبح دولة ملكية عظمى ٢٦٥
- ٦- الولايات المتحدة والفكرة الاستعمارية ٢٦٧

٢٧١	٧- الأسباب المباشرة للحرب العظمى
٢٧٦	٨- خلاصة للحرب العظمى حتى ١٩١٧
٢٨٤	٩- الحرب العظمى من انهيار روسيا حتى الهدنة
٢٨٩	الفصل التاسع والثلاثون عشرون سنة من التردد
٢٩٠	١- دور إجهاد خلقي
٢٩٦	٢- الرئيس ولسن في فرساي
٣١٠	٣- مستقبل البشرية
٣١٦	جدول تاريخي
٣٢١	الحقبة المسيحية

كلمة المترجم

اليوم وقد استوت "المعالم" كتابًا عربيًا، يلتفت إلينا ولز نحن معشر العرب من بين أطباق ال سماوات العلى التي تسكنها روحه بين العباقره والنابعين، ويهيب بنا: "هاؤم اقرءوا كتابيه".

واليوم يتردد صوته في أجوائنا التي خفت فيها كل صوت نبيل منذ قرون الإسلام الأولى، يتردد جهيرًا مدويًا كأنه النفخ في الصور "إني لسعيد إذ أدبت نحو الإنسانية واجبي، وبذلت لها دعوتي، ورضيت لها مذهبي وفكرتي".

واليوم يحق لولز أن تبوئه البشرية مكانًا عليًا، وأن تضمه بين أبنائها المخلصين وأفذاها الخالدين. فقد قضى نصف عمره في الحذب عليها والمنافحة عن مصالحها والدعوة إلى صلاح أمرها وتمديد يضيئ الذ صبح لها.

واليوم يستطيع ولز أن يسامي الهداة الملهمين بأنه ظل يحمل مشعل رسالته مضيئًا ذاكيًا وهائجًا نصف قرن كامل من الزمان. وهي فترة لم تتح في العصر الحديث لصاحب دعوة ولم تنتهياً لمرشد ذي رسالة.

واليوم يستطيع القارئ أن يستعرض مع ولز مشاهد الحياة منذ هوادي بواكيرها ومستهل نباشد يرها، إذ هي هزة نشأت بإذن العلى القاهر في ذلك الماء الذي جعل منه كل شيء حي، هزة لا يكاد يقدوم لها أثر ولكنها الأثر كل الأثر، هزة ما زالت الأيام ترعاها والليالي تهددها حتى تمتلئ على طول الحق بـ شرًا سويًا. ذلكم هو الكائن الذي حارت البرية فيه، والذي هو حيوان مستحدث من جماد كما يقول شيخ المعرة، هذا الكائن الضعيف بقوته القوي بحكمته الثائر بغريزته المتمرد الجبار بطبيعته القابل للصلاح بفطرته، هو منذ خليفته مصدر للشغب ومثار للفتن. بسببه فسق الشيطان عن أمر ربه فغوى. وحل بالأرض فأفسد فيها وسفك فيها الدماء وكانت من قبله مطهرة من كل رجس، ولم يزل هذا دأبه حتى يومنا هذا، تقفده هوائجه ويزين له حب شهواته، والله في عليائه يرسل له رسله وأنبياءه فما كف عن غيه ولا أقنع.

واليوم من لنا بمن يشهد روحه النبيلة أننا أخذنا بدعوته، وأيقنا أن التاريخ وحدة واحدة، وأن ركاب الحضارة نهر واحد متدارك اللجأت متلاحق الفيضات، وأنه إن هذا يومًا أو ألم به شيء من الغيظ، فلا بد أن يتدفق في تاليه ويعود سيرته من جريان وتلاطم واصطخاب، وأن البشرية على مر العصور كتلة واحدة متحركة دائمًا إلى الأمام في حركة واحدة تجمعها جميعًا وتضم شملها في عالمانا العصري الذي أصبح بعضه إلى بعض أقرب من حبل الوريد.

والعصر الذي يستهل به كتابنا هذا كان، كما يقول بعض أفذاذ الزمان، أمثل الأزمان وأسوأها، وأحكمها وأحمقها، وأشدّها نورًا وأشدّها حلوكه. كان عصر الإيمان وعصر الكفر والإلحاد؛ وكان ينطوي على ريب ع الأمل والرجاء وخريف اليأس والقنوط؛ وكان عصر ملكية عظمى باغية وكثرة عظمى مهيبضة؛ عصر رقي بلغ الذروة وجهل أنزل الناس إلى الحضيض؛ وكان دهر عز شامخ واستبداد داس كرامة الإنسان بالنعال؛ يوم

كان صاحب الدين يلاحق أخاه ليدخله في دينه وإلا فله الموت والعذاب؛ ويوم كان الغنيّ العزيز يعفى م من الضرائب والتبعات ويبهظ بها الفقير الجائع تمد بصرك فتجد في مكان كل شيء، وتسرح الفكر فتجد إلى جواره لا شيء.

وجاءت الثورة الفرنسية لأن ذنب الأرستقراطية كان ينهش كلب العامة، فما كاد الكلب ينتصر ويقطع رأس الذئب وذنبه، حتى انقلب هو كذلك ذئباً أشد ما يكون عواء وإزعاجاً ولعلعة بلسانه وولوغاً به في دماء الأبرياء.

وأين مبادئ الثورة الفرنسية؟ أين الإخاء والحرية والمساواة؟ لقد ذهبت في أطباق الهواء هباء وراحت طرائق قديماً.

وهذه مغاليق قوى الطبيعة تنفتح منذ أوليات القرن التاسع عشر، إذ أخذ عقل ذلك الجبار يتسلل إليهم ما رويدياً رويدياً. فعرف كيف يستذل البخار، ولم يلبث أن جعله مطية ذلولاً وعسيفاً ذليلاً. وانتقل من ذلك إلى عناصر الطبيعة عنصراً بعد عنصر يدرسها ويتحكم فيها ويستبد بها، حتى أصد بح يفعّل بها ما يشاء ويستخدمها أنى شاء.

وأبطره العلم حتى زعم أن ليس فوقه عليم، واستهوته المادة حتى أنسى الروح وما لها من قيام معلوم، ولج به الطغيان فيغى في الأرض يستعبد أهلها ويتخذ بعضهم شيعاً. وسلط على أخيه الإنسان مناجل الفناء، وأخذ يستغله استغلال السوائم يمتلك منه وطنه ويستأثر بخيراته دونه بعد أن يفدحه عملاً، ويحرم عليه نعمة التمتع بما وهبه الله لكافة مخلوقاته من حرية. لأن داعي الاستعمار قد أصمه عن كل ضمير وأعماه.

واحتاج العلم إلى مواد الطبيعة يصنعها ويبدعها، فإذا استوت سلعة مصنوعة استوجبت سوقاً يتلقفها. وبشمت أوربا بما أنتجته لها دواليب المصانع فخرجت تهرول تلتهمس مشترياً. وتحول إلى شراء والبائع في أقطار الشرق المنكودة من السلع إلى الشعوب، فحيثما حل الأوربي فثم الاستعمار البغيض. وتفتت دول أوربا بعضها إلى بعض، فإذا بعضها قد سبق وأرسى أسسه ووطد في أقطار العالم أقدامه، وإذا بعضها الآخر قد تخلف. وثار في النفوس ما ركب فيها من جشع. فالسابق يريد أن يستأثر، واللاحق يبتغي لقمة يسد بها جوعته. فأما من عدا الأوربيين فتعسا لهم وثبوراً.

فهذا الأسود المسكين وذاك الأصفر أو النحاسي المنكود؛ ما بالهم ينظر إليهم الأبيض كأنهم من حثالة السوائم، أو من خشاش الأرض؟ وفيم الضن بالعلم عليهم والاستئثار به دونهم حتى لا يقووا به فيذازعوه سيادته التي زعم أن الله أثره بها وحده؟

وهذه بريطانيا لماذا تنب على مصر فتحرمها نعمة الحرية بذريعة واهية؛ والله يعلم والناس يعلمون أن الحقيقة غير الذريعة، وأن الهدف إن هو إلا فتح السوق، وقطع الطريق، والاستئثار بما في البلاد من خير وثمار.

وكيف يكون النفط في أرض إيران ومالكته الحكومة البريطانية مستخفية من وراء تلك الشركات، وما هي شركات ولكنها خدع وذر للرماد في العيون.

والإنسان لا جرم يطغى أن رآه تقوى فيعود بهذه القوة على إخوانه من بني الإنسان حرباً يهزمه فيها ما ويفتك به. ولا يطيق المغلوب على الهزيمة صبراً، فهو يترصد الغالب ويتربص به الدوائر، ويعد له معادات الفتك والفناء، ويستخدم له ما استطاع من وسائل العلم والعلماء، ثم ينفجر بها حرباً ضروساً عاتية، يريد أن يجعلها للأولى الجولة الثانية، ولم يدرك أنه هدم الكون على أعدائه ونفسه وسعى بيديه إلى حفر رمسه، فإذا انقضت الجولة الثانية كرسست جهود العالم للثالثة وأعد لها من المبيدات والمهلكات ما لا يتصوره عقل، وما كان يعد قبل ذلك من بعيد الخيالات. وانقسم العالم كدأبه فإذا هو محور ديمقراطية، ثم أخذ الطرفان بعضهما بتلابيب بعض، هذا ينسف وذاك يدك ويقصف، حتى استلقت البشرية أجمعها جريحة مهبطية ضعيفة دامية، قد نزفت من الدماء ما لا قبل للأيام برده، وأزهقت من الأرواح شباباً ما كان أجدره بأن يحيا لبسعد بالحياة، وما كان أشد حاجة العالم إلى سواعده الفتية في البناء والتعمير لا في الفتك والتخريب.

والمالية والملكية والتفوق، ما خطبهن وما بال آثارهن عميقة في حياة الفرد والجماعة؟ وما بالهن ينتجن المشكلات الاجتماعية والمذاهب الاقتصادية المتناحرة والمعسكرات الشيوعية والرأسمالية المتقاتلة؟ وما بالهن يحيرن الإنسان ويبلبلن فكره ويذهبن به كل مذهب؟ وهل من سبيل إلى علاج لدائهن الوبيل؟

ألا إن البشرية أصبحت مخيرة بين أمرين: فإما أن تأتلف فتعيش أو تختلف فتهلك، على البشريّة أن تأتلف مكونة حكومة اتحادية للعالم أجمع ليس فيها قوي ولا ضعيف ولا استعمار ولا مستعمرات، بل تكون كلها الولايات العالمية المتحدة، كل دولة لها حكومتها وإدارتها الداخلية، وكل دولة مهن خاضعة لتلك الحكومة المركزية التي وظيفتها التصدير والتوريد، وضبط النظام في البر والبحر والجو، وإرساء أسس الديمقراطية الصحيحة، والاطمئنان على احترام روح الدساتير وإجراء الانتخابات البرلمانية النزيهة وإنجاز المجالس النيابية الممثلة للشعوب أصدق تمثيل، وتعليم أفراد العالم قاطبة إلى مستوى موحد عام من العلم.

ألا وإن على البشرية أن تتناسى أحقادها القديمة وتعصباتها الدينية والعنصرية، وأن يشعر الجميع أنهم أبناء قرية واحدة كبرى هي هذه الدنيا التي عليها نعيش، فما اختلاف الألوان ولا الأديان يعيب في طبيعتها ما جميعاً، ولكن العيب في الناس وفيما يذهب إليه الناس من مذاهب تطوي على الغل والحقد أو التجبر والتحكم، فالتناس جميعاً إخوان، والدين بالفطرة خير، فكيف ينجم عن الخير الشر؟

إن ولز يقف من كل ذلك موقف المحب المحذر لا موقف المتطير المنذر، فإن حافزه حب لا تشاؤم، ولذا فهو يهدي الناس بوعي وقوة وحماية وإخلاص هي السر فيما أوتي من بعد الصيت ونباهة الذكر في الناس.

إن ولز هو بشير الإصلاح إلى هذه البشرية المادية. يريد أن يأخذ بيدها إلى قيم الروحانية وأن يدعوها إلى التخلي عن ذميم الأخلاق وإلى الاستمساك بكريم المبادئ الخلقية. فالمادية إذ طغت ولدت حرباً، والروحانية إذا سادت خلقت على الأرض محبة وسلاماً، وحولتها من دار لاشقاء إلى دار نعيم وودام، وأعدت إلى الإنسانية فردوسها المفقود، وسعادتها الضائعة، وسلامها المنشود.

ومن عجب أن ولز لا يترك علمًا ولا فنًا ولا تقدمًا ولا أدبًا إلا أرخ له وكتب عنه، ولا حادثة ذات أثر في تاريخ البشرية ولا ملكًا أو عظيمًا خلد اسمه في ذاكرة البشر إلا نوه به ناسجًا ذلك كله به. هذه المبادئ الإنسانية الرفيعة ومنتجًا منها وشيئًا رائع النقش أخذ الإبداع.

فأنت لا تقف في إعجابك به عند حد، ولا تلبث حتى تقتنع بوجهة نظره وإخلاصه، ثم أنت حين تقراء كتابه وتتعمق فيه النظر وتتدبر ما فيه من آيات، تشعر بأن من المحزن حقًا أن عظماء الدول وأصحاب الرأي فيها لم يأخذوا إلا مؤخرًا جدًا بهذه المبادئ النبيلة التي دعت إليها الأديان السماوية قديمًا والتي يبثها ولز في كل سطر من سطور كتابه. ولكن حسبك عزاء أن ميثاق الأطلسي الذي أصدره روزفيلت وميثاق سان فرانسيسكو وحقوق الإنسان تكاد تكون الثمرة المباشرة لتعاليم ولز في هذا الكتاب وغيره.

ولا يذهبن عن فطنة القارئ أن ولز كاتب عميق عويص، يعبر عن فكر عميق عويص، لذلك نرجو أن يتدبر كل فقرة من فقرات ولز، وأن يزن بفكره كل كلمة يقرأها فيه، لأنه متقف يكتب لكل متقف مثله. وأنت أيها القارئ - مهما تكن مهنتك أو مزاجك في الحياة - وابد في هذا الكتاب ما يروقك بل ما يروعك، ووجد فيه حيثما تصفحت فائدة فكرية تعود عليك ووجد أنك كلما أمعنت فيه نظرًا زدت منه أثرًا.

فمن زعم أنه لن يجد التاريخ نقياً صافياً، منزهاً من كل دخل، مبرئاً من كل هوى، مصفى من كل تحيز فليمدد بسبب إلى سماء "المعالم"؛ ومن كان يريد خلاصة وافية لثقافة الدهور يضمها إلى ثقافته ويزيدها بها صقلاً فلينهل من مناهل ولز العذبة؛ ومن كان يريد أن يتعلم كيف يكون مواطناً حراً ذا رأي في إدارة شؤون بلاده فليد من ولز، ومن كان من رجال السياسة يريد أن يتعلم نزاهة الحكم، وصراحة العمل، واحترام رأي الأغلبية، وتقديس الدساتير، والتخلي عن الميكافيلية البغيضة والدس والتآمر - فليأخذ من ولز رائده وهاديه.

وما أبداع أن تجلس إليه جلسة التلميذ الخاضع من أستاذة العظيم، لكي تخرج بعد ذلك متقفاً ناصح الصقل، ومواطناً بالعالم رحب الأفق فسيح النظرة، عديم التعصب، عارفاً بحقوقك وكرامتك مؤدياً لما تواجهك ومؤمناً بالديموقراطية.

وبعد فإذا لقي القارئ بعض العسر في استيعاب ولز ومتابعة أفكاره فليصبر وليصابر فإن ما سيبدله في ذلك من جهد واصطبار ثمن قليل لما سيحنيه من التزكي بثمرات ذلك العقل الملهم الفياض.

عبد العزيز توفيق جاويد

مصر الجديدة في:

٩ أبريل ١٩٥٢ . ١٤ رجب ١٣٧١

كلمة المترجم للطبعة الثانية

عندما صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب لقيت استجابة جميلة من جمهور القراء من ع شاق أدب ولز وثقافته ورسالته الإنسانية، وكان رواج الكتاب في الأقطار الشقيقة أعظم منه في مصر بل دنا العزيز، وهو أمر عجب له كثيراً وأسفت له أكثر، ويوم صدرت الطبعة الأولى من الكتاب كان فيه من المفاهيم والتعبيرات التقدمية ما أعتقد أنه كان ولا جرم سابقاً لأوانه ففيه مثلاً: التطور والتطوير، والتنمية والتخطيط، والتأميم والحكم المحلي، ووحدة البشرية والدولة العالمية المتحدة، إلى غير ذلك مما كان بعض الناس في العالم أجمع يرفضونه بوصفه من شطحات الخيال أو على الأقل يناقضونه أو لا يسيغونه في أبسط الظروف.

ولكن الأيام حققت معظم نبوءات ولز بعد أن ظل زميله ومعاصره برنارد شو نفسه يسخر منه ومنه ما أكثر من نصف قرن. وما هي ذي الإنسانية تشهد اليوم من الحقائق ما كان يعد وهماً بعيداً في ١٩٣٠. فقد د انحسر الاستعمار عن إفريقيا بعد أن ركز نفسه فيها واطمأن عند طرده من آسيا، أنه واجد فيها الأرض الخصبة البكر التي يرتع فيها ويهطع. وأخذت جميع الشعوب تؤمن بنفسها وتؤمن من ثم بحقوقها؛ فتنفذ الديمقراطية أساساً والاشتراكية منهجاً والمساواة بين الطبقات دعامة وتوزيع العلم على الجميع والاعتماد عليه في رفع مستوى المعيشة ركازاً والنهوض باقتصاد الأمة مبدأً وعقيدة. وأخذت المصالح تجمع الأمم في اتجاهات إن كانت ضيقة الأفق الآن وكانت الأغراض منها غير كريمة في بعض الأحيان، فقد أخذ هذه العيان يزايلنها إلى حد كبير. فهناك السوق الأوروبية (وهي مثل سائر) وتهدف إلى ما وراءها من الوحدة الأوروبية المنشودة. وهناك وحدة أفريقيا التي بدت نواتها على يد المؤتمر الأفريقي. وهي لن تلبث حتى تجمع بين دولها في الحكومات بعد أن قربت بين أممها الأمانى والآلام وجمعت بينه ما في الأه داف والخطط السياسية. وهناك وحدة العرب التي التأم على يد الرئيس جمال عبد الناصر. وهناك الدعوة إلى منع الحرب وإلى الحياد الإيجابي وعدم الانحياز التي تنزعها جمهوريتنا الفتية وتسابق في عقد مؤتمراتها إلى غير ذلك مما يجده القارئ موضعاً في هذا الكتاب كدعوة ومتسلفاً كنبوءة وممثلاً في جو الحياة كحقيقة.

وقد نقحت هذه الطبعة تنقيحاً شاملاً فضلاً عن أنها ضبطت على أحدث طبعات الكتاب في الإنجليزية (١٩٥٦). وهي الطبعة التي قال في مقدمتها المستر رايموند بوستجيت الذي تولى إصدارها إنه جمع فيها كل المواد التي أعدها المؤلف لضمها إلى طبعة حديثة، كان المؤلف نفسه يزمع إصدارها جامعة لتعقيباته على أحداث أربعينات القرن. وكان تاريخ صدور الطبعة التي نقلتها إلى العربية (١٩٣٧) فكانها لم تكن تحتوي على أحداث الحرب العظمى الثانية، الأمر الذي ألجأني إلى أن أنتهج نفس السبيل التي سلكها المستر رايموند بوستجيت حيث نقلت تاريخ تلك الحرب عن كتاب "موجز تاريخ العالم" الذي أصدر المؤلف نفسه طبعة منه قبيل وفاته، كما أكملت ما في تلك الطبعة من نقص بما نقلته عن المؤلف نفسه وبذلك استكمل تاريخ الحرب العالمية الثانية، ومن ثم فإن الوضع الجديد لآخر طبعات الكتاب الإنجليزية اقتضى تعديلاً جميع الأجزاء الأخيرة من الكتاب مرة ثانية. فتعدل الفصل ٣٩ وأضيف الفصل الأربعون وألغي ذيل الكتاب القديم.

وكدأبي في الطبعة الثانية من أجزاء هذا الكتاب ذيلته بكشاف أبج دي وأضفت إليه من الصور والخرائط ما اقتضته ظروف الحرب الثانية.

وإني لأشكر للسادة أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر جميل عنايتهم بهذا الكتاب الذي يمثل الثقافة الرفيعة والفكر التقدمي الكريم ولا يسعني إلا أن أبذل الشكر جزيلاً عاطراً إلى الأستاذ الكبير محمد فريد أبو حديد على عنايته الكريمة بفحص هذه الطبعة وإسداء التوجيهات المرشدة. وإذ أختتم كلمتي هذه أؤكد للقارئ أنني أفدت من نقل الكتاب فائدة ثقافية وفكرية ومذهبية اشتراكية ديمقراطية، أرجو أن تعود على كل من يطلع عليه من أبناء الضاد.

كما أنني أشهد القارئ أنني أفارق ولز فراق الأسف راجياً أن يمد الله في الأجل حتى أرى رسالته قد تحققت ودعوته قد آمن بها الناس جميعاً، وحتى أستطيع أن أظهر الطبعة الثالثة من الكتاب في مجلد واحد يستعرض به القارئ موكب الحضارة الإنسانية متكاملة بين دفتي سفر محدود. والله الموفق للسداد..

مصر الجديدة في ١٤/ يناير ١٩٦٥

ع. ت. ج

الكتاب الثامن

عصر الدول العظمى

الفصل الرابع والثلاثون

أمراء وبرلمانات ودول

- ١- الأمراء والسياسة الخارجية.
- ٢- الجمهورية الهولندية.
- ٣- الجمهورية الإنجليزية.
- ٤- انقسام ألمانيا واضطرابها.
- ٥- أبهة الملكية العظمى في أوربا
- ٦- الموسيقى في القرنين السابع عشر والثامن عشر.
- ٧- التصوير في القرنين السابع عشر والثامن عشر.
- ٨- نمو فكرة الدول العظمى.
- ٩- جمهورية بولندة المتوجة ومصيرها.
- ١٠ - أول تخاطف على الإمبراطوريات وراء البحار.
- ١١ - بريطانيا تسود الهند.
- ١٢ - تقدم روسيا إلى المحيط الهادي.
- ١٣ - رأي جيبون في العالم في ١٧٨٠.
- ١٤ - الهدنة الاجتماعية تشارف نهايتها.

١ - الأمراء والسياسة الخارجية

تتبعنا في الفصل السابق بزوغ فجر مدنية جديدة، هي المدنية ذات الطابع الحديث التي أصدحت في العصر الحالي تعم العالم أجمع. وهي لا تزال إلى الآن شيئاً ضخمًا لم تستو له قسّمات، ولم تتخط في يومنا هذا بواكير أدوار النمو والتطور. وشهدنا فكري العصور الوسطى عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة وعن الكنيسة الكاثوليكية - بوصفهما صورتين للقانون والنظام العام - تذيوان - عند مستهل ذلك الفجر. وهما إنما تزولان من الوجود بحكم نوع من الضرورة قضت بذلك حتى يتهيأ للناس معاودة صوغ الفكرات الداعية إلى قيام قانون واحد ونظام واحد صوغاً جديداً يشمل العالم برمته. وبينما كان التقدم يلم بكل ميدان من ميادين المصالح الإنسانية الأخرى، جاء زمان أدى فيه زوال هاتين الفكرتين السياسيتين العامين وهما الكنيسة والإمبراطورية، إلى تدلي الأوضاع السياسية إلى مجرد الملكية الاستبدادية المطلقة وإلى القومية الملكية ذات الطراز المقدوني.

وجاءت فترة توقف فيها بالفعل تماسك الروابط الإنسانية، وهي طور من تلك الأطوار التي كان يسميها كتاب الحوليات^(١) من الصينيين "عصور الاضطراب". ولبثت فترة التوقف هذه أمداً يعادل المدة الممتدة بين سقوط الدولة الرومانية الغربية وبين تنويع شرلمان في روما. وما زلنا حتى اليوم نعيش في ظلالها ولعلها أشفت على نهايتها. وأقول "لعلها" لأننا لا نستطيع حتى الآن أن نجزم بذلك. وكانت الأفكار المسيطرة القديمة قد تحطمت، وظهر خليط من المشروعات والمقترحات الجديدة غير المجربة أخذ يببل عقول الناس وأفعالهم، لذا اضطّر العالم في الوقت نفسه أن يرتد على عقبه فيطلب الزعامة على أساس التقاليد القديمة: تقاليد الأمير الفرد. ذلك أن الناس لم يكن أمامهم من محجة بينة المعالم يستطيعون أن يضربوا فيها بقدم، وكان الأمير بين أيديهم.

شهدت خاتمة القرن السادس عشر أرجاء العالم كافة، وقد سادتها الملكية التي تنزع إلى الحكم المطلق. فكانت ألمانيا وإيطاليا مقسمتين إلى رقاع صغيرة من الإمارات الاستبدادية (الأوتوقراطية). وكان الحكم في إسبانيا استبدادياً بالفعل. ولم يصل العرش يوماً في إنجلترا إلى مثل قوته آنذاك، حتى إذا تقدم القرن السابع عشر كانت الملكية الفرنسية قد أصبحت على الأيام أعظم دولة في أوروبا وأشدّها تماسكاً. وما نحن بقادرين على أن نسجل هنا أطوار رفعتها وما مر بها من تقلبات.

وكانت تحتشد في كل بلاط زمر من الوزراء يلعبون دوراً ميكافلياً ضد منافسيهم في الدول الأخرى. والسياسة الخارجية هي الوظيفة الطبيعية للبلاط والملك. ويكاد وزراء الخارجية يكونون أهم الشخصيات البارزة الزعيمة في تاريخ القرنين السابع عشر والثامن عشر كله. وهم الذين دأبوا على إلقاء أوروبا في أتون حمى من الحروب. وكانت نفقات الحروب في ازدياد باهظ، فلم تعد الجيوش بعد مكونة من مجندين غير مدربين ولم تعد جموعاً من فرسان الإقطاع يجلبون معهم خيلهم وسلاحهم وأتباعهم، بل أخذت تشتت حاجلة

(١) كتاب الحوليات (Annals) هم الذين يدونون التسجيلات السنوية للأحداث. (المترجم).

هذه الجيوش إلى المدفعية؛ وأصبحت تتكون من جنود يتناولون أجورًا يلحون في طلبها؛ كانوا جنودًا محترفين متأنين حذاقًا، يقومون بالحصارات الطويلة، ويحتمون إقامة التحصينات المحكمة. فزادت نفقات الحرب في كل مكان واستدعت الزيادة المستمرة في فرض الضرائب.

وهنا حدث أن اشتبكت هذه الملكيات، ملكيات القرنين السادس عشر والسابع عشر - في نزاع بينهما وبين قوى للحرية جديدة غير مكتملة النضج في المجتمع. إذ تلقت الأمراء حولهم فوجدوا أنفسهم لا يتحكمون في حياة رعاياهم ولا أموالهم. بل وجدوا مقاومة مزعجة للضرائب التي كانت ضرورية لا مندوحة عنها إذا شاءوا لاعتداءاتهم ومحالفاتهم السياسية أن تتواصل. وأصبحت الشؤون المالية شبحًا كرهها في كل قاعة يجتمع فيها مجلس. وكان العاهل من الوجهة النظرية هو المالك لبلاده. فقد أعلن جيمس الأول ملك إنجلترا (١٦٠٣) أنه "لما كان من الكفر والتجديف أن يعترض الناس على قدرة الله، فإن من الوقاحة والاحتقار الكبير أن يعترض أحد الرعايا على ما يستطيع الملك فعله، أو أن يقول إن ملكًا لا يستطيع أن يفعل هذه أو تلك".

ولكنه وجد في الواقع - كما قدر لولده شارل الأول (١٦٢٥) أن يجد بصورة أقوى أثرًا مما وجد أبوه - أن في ملكه عددًا كبيرًا من أصحاب الأرض والتجار، وهم أشخاص لهم وزنهم ولهم نكاؤهم، قد رسوا حذرًا محدودًا لمطالب الملك ووزرائه ومقتضياتهم. كانوا على استعداد للرضا بحكمه إذا مكنوا هم أنفسهم أن يكونوا ملوكًا وأقيا لأراضيهم وأعمالهم وتجارتهم وما إلى هذا بسبيل. ولكنهم لا يقبلون عدا ذلك شيئًا.

وكان هناك تطور مماثل لهذا في كل أرجاء أوروبا. فمن دون الملوك والأمراء كان هؤلاء الأقيا والصغار، وأعني بهم أصحاب الأملاك والنبلاء والمواطنين (الممانيين) الأغنياء ومن إليهم، الذين كانوا يظهرون آنذاك لمولاهم الأمير نفس المقاومة التي أبداها ملوك ألمانيا وأمراؤها للإمبراطور. وكانوا يرمون إلى تحديد الضرائب بقدر ما كانت تضغط على أشخاصهم، وأن يكونوا أحرارًا في ديارهم وضياعهم. وكان من أثر انتشار الكتب والقراءة وازدياد الاتصال بين الناس، أن تمكن هؤلاء الأقيا والصغار، أقيا الأمم ملك والتجارة من إنشاء مجتمع فكري متطور ودعم أركان المقاومة فيه بصورة لم يكن لها نظير في أية مرحلة من المراحل التي مرت بتاريخ الإنسانية كله. كانوا نزاعين في كل مكان أن يقاوموا الأمير، ولكنهم لم يجدوا في كل بقعة نفس اليسر في المقاومة المنظمة. فإن الظروف الاقتصادية والتقاليد السياسية في الأراضي المنخفضة وإنجلترا جعلت هذين القطرين أول من جعل الخصومة بين العاهل والملك موضع البحث للوصول إلى حل ناجح لها.

وفي بادئ الأمر كان "جمهور" القرن السابع عشر هذا، جمهور أصحاب الأمم ملك، قليل الاحتفال بالسياسة الخارجية. ذلك أنهم لم يستشعروا أول الأمر كيف أنها تؤثر فيهم. فلم يريدوا أن يشغلوا أنفسهم بها فقد سلموا بأنها شؤون الأمراء والملوك. ومن ثم لم يحاولوا قط التحكم في معقدات السياسة الخارجية، ولكن حدث أنهم اشتبكوا مع النتائج المباشرة لهذه المعقدات، فقد اعترضوا على الضرائب الفادحة، وعلى التدخل في شؤون التجارة، وعلى الحبس التعسفي، وعلى تحكم الملك في الضمان. وعلى أساس هذه المسائل نزلوا حومة الكفاح ضد التاج.

٢- الجمهورية الهولندية

كان انفصال الأراضي المنخفضة عن الملكية المطلقة بداية سلسلة من تلك المنازعات التي استعرت طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر. بيد أنها كانت تختلف في تفاصيلها اختلافاً بالغاً تبعاً للخصائص المحلية والعنصرية، ولكنها كانت كلها من حيث الجوهر تمرّداً على السلطان الشخصي للأمير وعطى توجيهه السياسي والديني.

كانت منطقة الراين الأدنى بأكملها مقسمة في القرن الثاني عشر بين عدد من صغار الحكام، وكان السكان من أرومة ألمانية دنيا (Low German) ^(١) من دونها أساس كلتيّ قديم، وتذ بالطهم عناصر دانيمركية متأخرة عهداً شديدة الشبه بما في بلاد الإنجليز من خليط. وكان الإفريز الجنوبي الشرقي لهذا الإقليم ينطق بلهجات فرنسية؛ على حين تنطق كتلة السكان بلغات فريزية وهولندية ولغات ألمانية دنيا أخرى. ولقد ظهرت الأراضي المنخفضة ظهوراً كبيراً في الحروب الصليبية. فإِنْ جودفري البويوني (of Bouillon) الذي استولى على بيت المقدس (في الحملة الصليبية الأولى) كان بلجيكيّاً، كما أن مؤسس مملكة يسمى بالأسرة اللاتينية في القسطنطينية (الحملة الصليبية الرابعة) هو بالدوين أمير فلاندر. (وإن أطلق عليهم اسم الأباطرة اللاتينيين، لأنهم كانوا يظهرون الكنيسة اللاتينية).

ونمت مدن ضخمة في الأراضي المنخفضة إبان القرنين الرابع عشر والخامس عشر؛ منها ما غدت وبروج وإيبير وأترخت وليدن وهارلم وما إليها. وتطورت في هذه المدن "حكومات مجالس بلدية" شبه مستقلة وطبقة من رجال المدن المتعلمين ولن تشغل القارئ بما سنع بين الأسرات المالكة من صدف ربطت شئون الأراضي المنخفضة ببورغنديا (فرنسا الشرقية)، وانتهت إلى انتقال السلطان الأعلى عليها إلى مي راث الإمبراطور شارل الخامس.

وفي عهد شارل انتشرت إلى الأراضي المنخفضة المبادئ البروتستانتية التي كانت عند ذلك تعمد ألمانيا. واضطهد شارل الناس في شيء من الشدة، ولكنه ما لبث في (١٥٥٦)، كما أسلفنا أن ترك الأمر إلى ولده فيليب (فيليب الثاني). وسرعان ما أصبحت سياسة فيليب الخارجية الناشطة - وقد كان مشتبكاً بدارب مع فرنسا - مصدر شر آخر بينه وبين نبلاء الأراضي المنخفضة وأهل مدنها، لأنه اضطر أن يلجأ إليهم طالباً المعونة. فنصب النبلاء العظام أنفسهم على رأس مقاومة شعبية عامة، يقودهم وليام الصامت، أمير أورنج، وكونتا إجمونت وهورن، وصار يستحيل فيها التفريق بين الاعتراض على فرض الضرائب والاعتراض على الاضطهاد الديني. وفي أول الأمر لم يكن النبلاء العظام من البروتستانت، ولكنهم اعتنقوا ذلك المذهب عندما اشتدت حدة النزاع مرارة. أما الشعب فكان من قبل بروتستانتيّاً متعصباً.

(١) راجع ص ١٤٠ ج ١ من المعالم ٢. والأرومة الألمانية الدنيا هي التي كانت تسكن سهل ألمانيا الشمالي المنخفض ولغة تهم تسمى باللهجة الألمانية الدنيا. (المترجم).

وعقد فيليب العزم على أن يحكم الأراضي المنخفضة وضماير أهلها جميعاً. فأرسل إليهم نخبة مختارة من الجنود الإسبان واستعمل على البلاد نبيلاً اسمه ألفا، وهو أحد أولئك الرجال "الصارمين" الذين لا تعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلاً والذين يحطمون الحكومات والملكيات. فطبق يحكم البلاد ربحاً من الزمان بقبضة من حديد، ولكن اليد الحديدية تبث فيما تمسه من جسم روحاً من حديد، ففي (١٥٦٧) جهزت كل الأراضي المنخفضة بالعصيان. وأخذ ألفا يعمل القتل والانتهاك والمذابح على غير طائل. وأعدم الكونت إن إجموندت وهورن. فأصبح وليم الصامت زعيم الهولنديين الأكبر، ومليكمهم في الواقع.

واستمر الكفاح في سبيل الحرية زماناً طويلاً يتخلله كثير من التعقيد، ومن الجدير بالذكر أن العصاة ظلوا متعلقين في كل أوار الكفاح بالقول بأن فيليب الثاني إنما هو ملكهم - على شريطة أن يرضى أن يكون ملكاً معقولاً محدود السلطان. ولكن فكرة الملكية المقيدة كانت فكرة كريهة المذاق لدى أصحاب التيجان في أوروبا وقتذاك، وأخيراً دفع فيليب بالمقاطعات المتحدة التي تطلق عليها اليوم اسم هولندا، إلى النزوح والحكم الجمهوري. وليلحظ القارئ أن ذلك النزوح ظهر في هولندا وليس الأراضي المنخفضة جمعاء. ذلك أن القسم الجنوبي من الأراضي المنخفضة وهو بلاد البلجيك كما يسمى ذلك القطر الآن، ظل حتى نهاية الكفاح ولاية إسبانية وكاثوليكية العقيدة أيضاً.

ويمكن أن يتخذ حصار ألكمار (١٥٧٣) كما يصفه موتلي^(١)، مثلاً على ذلك النضال الطويل الفظيع بين الشعب الهولندي الصغير وبين موارد الاستعمار الكاثوليكي التي كانت لا تزال كبيرة ضخمة. كتب ألفا إلى فيليب يقول:

'إذا استوليت على ألكمار فلن أدع فيها على قيد الحياة فرداً. وسوف أضع النصل في كل رقبة..'. والآن وقد مثلت أمام أعينهم مدينة هارلم المجردة من أسلحتها والخواوية على عروشها، وكأنني بها شبحاً يتتبا لهم بمصيرهم، فإن رجال ألكمار الذين يعدون على الأصابع والذين أغلقوا عليهم أبوابها ما تهتوا للأسوأ والظروف. وكان صديقهم البحر هو مناط أملهم الأكبر. ذلك بأن الفتحات الهائلة التي يمكن بواسطتها غمر المقاطعة الشمالية بغاية السرعة، لم تكن إلا على مبعده أميال قليلة. فلو أنهم فتحوا هذه البوابات وهدموا بعض جسور الماء لجعلوا المحيط بحارب في صفهم. ومع ذلك فقد كانت موافقة الأهليين لازمة للحصول على تلك النتيجة، إذ إن تلف كل المحاصيل التي في الحقول يكون عند ذاك محققاً. وكانت المدينة محوطة بالمحاصرين إحاطة وثيقة جعلت من العسير عليهم أن يجدوا رسولاً يقوم بتلك المهمة المخطرة. وأخيراً تقدم للقيام بهذه المغامرة نجار يدعي بيتر فان دروماي.

"وسرعان ما تخرجت الأمور في داخل المدينة المحصورة. فقد كانت تحدث في كل يوم خارج الأسوار مناوشات غير حاسمة. ثم حدث آخر الأمر في اليوم الثامن عشر من سبتمبر أن أصدر الدون فردريك في الساعة الثالثة بعد الظهر أمراً بالهجوم، بعد ضرب المدينة بالمدافع ضرباً متواصل دام اثنتي عشرة ساعة تقريباً. وبالرغم مما مر به من خيرة دامت سبعة شهور في هارلم فإنه ظل يعتقد أن من المحقق أن يأخذ

(١) في كتابه "Rise of the Dutch Republic"

المدينة اكتساحاً، وحدث الهجوم في نفس الوقت على كل من البوابة الفريزية والبرج الأحمر في الجهة المقابلة. وكان على رأس الهجوم فرقتان من نخبة الجند وصلتا وشيكاً من لومبارديا، وهما تزلزلان الجدران بصيحات أفرادهما معبرين عن ثقتهم بنصر هين قريب. وكانت تظاهرنهم قوة جازفة من الجنود المنظمة. بيد أنه لم يحدث قط في تاريخ هارلم القريب، أن قوبلت هجمة بصدر أثبت جناحاً وأشجع أفئدة. فإن كل رجل به نسمة من حياة كان متخذاً مكانه على الأسوار. وكانت الجماعات المهاجمة تقابل بالمدافع والقربانات والغدارات. وكان الماء الحار والقار والزيت المغلي والرصاص المصهور والجبر الحى تصب عليهم في كل لحظة صباً. وكانت مئات من الأطواق المقيّرة والمحماة تلقى بمهارة حول أعناق الجنود، الذين حاولوا عبثاً ما أن يخلصوا أنفسهم من تلك الأطواق النارية، في حين أنه لم يكن أحد من المهاجمين يكاد يضع قدمه على الشجرة حتى يلتقاه سكان المدينة بالسيوف والخناجر وينكسوه على أم رأسه في الخندق.

وتجدد الهجوم ثلاث مرات بحدة وقوة لا تليّن وصد كذلك ثلاث مرات بمضاءة وجلد لا هوادة معهما. واستمرت العاصفة هوجاء أربع ساعات. ولم يغادر واحد من المدافعين مكانه طيلة تلك المدة، إلا أن يسقط عنه صريعاً أو جريحاً. ونفخ في البوق نفخة الارتداد، وانسحب الإسبان عن الأسوار من دحرجين تم ام الاندحار، مخلفين وراءهم في الخنادق ما لا يقل عن ألف قتيل، أما أهل المدينة فلم يقتل منهم إلا ثلاثة عشر من السكان وأربعة وعشرون من الحامية... وقد روى حامل العلم سوليز الذي صعد على ثغرة السور مدة لحظة قصيرة ونجا بحياته بمعجزة حين قذف به من الأسوار، أنه لم ير عندما أشرف على المدينة خوذة ولا سرجاً: بل شهد نفرًا من الناس البسطاء المظهر يرتدون عموماً ثياب صيادي السمك. ومع ذلك فإن هؤلاء الصائدين البسطاء قد دحروا محنكة جنود ألفا.

وفي نفس الوقت كان الحاكم سونوي قد فتح كثيرًا من جسور الماء، فأخذت الأرض في المنطقة المجاورة للمعسكر تصبح بركاء، وإن كان الفيضان الداهم لم يحدث حتى آنذاك. ودب ديبب القلق في الجند وامتلاّت نفوسهم بالشكس والتمرد. ولم تذهب مهمة النجار عبثاً...".

فإنه عاد إلى المدينة يحمل بعض الرسائل. ولكنه فقد تلك الرسائل إما على وجه الصدفة أو التددبير - وهو في طريقه إلى المدينة - ف وقعت في يد ألفا. وكانت تحوي وعداً صريحاً من دوق أورانج بغمر البلاد بالماء غمرًا يجعل الجيش الإسباني بأكمله من المغرقين. وكان هذا الأمر يغرق في نفس الوقت معظم محصول الهولنديين وماشيتهم. ولكن ألفا عندما أطلع على تلك الوثائق لم ينتظر حتى تفتح عليه بوابات أخرى. وسرعان ما أخذ رجال الكمار البواصل يتصايحون ويهتفون - حين شهدوا الإسبان يأخذون أهبة الرحيل والتفرق.

واتخذت حكومة هولندا المحررة شكل جمهورية من الاشراف تحت رئاسة بيت أورانج. وكان "مجلس الطبقات States General أقل تمثيلاً لهيئة المواطنين بأكملها من البرلمان الإنجليزي، الذي سنقص عليك فيما يلي قصة كفاحه مع التاج.

ومع أن أسوأ أدوار الكفاح انقضت بعد آلكمار، فإن هولندية لم تصبح مستقلة بالفعل حتى (١٦٠٩)، ولم يعترف باستقلالها اعترافاً تاماً كاملاً إلا في معاهدة وستفاليا في (١٦٤٨).

٣- الجمهورية الإنجليزية

يبدأ النزاع الصريح الذي قام به مالك العقار مناهضاً عدوان "الأمير" في إنجلترا منذ عهد قديم يرجع إلى القرن الثاني عشر. ودور الكفاح الذي علينا أن ندرسه الآن إنما هو الذي ابتدأ بمحاولات هنري السابع والثامن وخلفائهما، إدوارد السادس، وماري وإليزابيث جعل حكومة إنجلترا "ملكية شخصية" ^(١) من الطراز الشائع بالقارة الأوروبية. واشتد الكفاح حدة عندما حدث تبعاً لمصادفات المصاهرة في الأسرة المالكة، أن أصبح جيمس ملك اسكتلندة، هو جيمس الأول ملك إنجلترا واسكتلندة على السواء (١٦٠٣)، وأخذ يتكلم على المنوال الذي اقتبسناه عنه آنفاً عن "حقه الإلهي" في أن يفعل ما يشتهي.

ولكن لم يحدث قط أن كان طريق الملكية الإنجليزية سهلاً معبداً. ففي كل العاهليات التي أقامها غزاة الإمبراطورية الشاملون والألمان كان هناك تقاليد لجمعية شعبية تجمع ممثلي الشعب ذوي النفوذ من الرجال لحفظ حرياتهم العامة، ولم تكن تلك الجمعية أنشط في أي منها حياة في إنجلترا. فكانت لفردسا تقاليدھا الخاصة بجمعية "الطبقات الثلاث Estates" وكان لإسبانيا كورتيزھا. بيد أن الجمعية الإنجليزية كانت تتسم بسمة خاصة من ناحيتين: أولهما أنها كانت تستند إلى تصريح يتخذ صفة الوثيقة ويحتوي على حقوق معينة أولية وعامة؛ وثانيتهما أنها كانت تضم "قوارس مقاطعات" منتخبين كما تضم نواباً عن المدن منتخبين أيضاً. وكانت الجمعيتان الفرنسية والإسبانية تتألفان من العنصر الأخير دون الأول.

وهاتان الخصيصتان جعلتا للبرلمان الإنجليزي قوة خاصة في كفاحه مع العرش. والوثيقة المعنية إنما هي 'الماجنا كارتا' أي العهد الأعظم، وهو تصريح أخذ غصباً من الملك جون (١١٩٩ - ١٢١٦)، وهو أخو الملك ريتشارد قلب الأسد (١١٨٩ - ١١٩٩) وخليفته، وذلك بعد العصيان الذي قام به البارونات في (١٢١٥). وهو يكرر عدداً من الحقوق الجوهرية التي جعلت من إنجلترا دولة قانون لا دولة ملك. وهو قد أبى على الملك التسلط على الممتلكات والحرية الشخصية لكل نوع من أنواع المواطنين - اللهم إلا أن يكون ذلك برضاء نظراء ذلك المواطن.

فأما وجود ممثلي المقاطعة المنتخبين في البرلمان الإنجليزي - وهي الخصيصة الثانية في حاله بريطانيا - فقد نجم عن بدايات بسيطة جداً، وحميدة لا مضرة منها. إذ يبدو أن الفرسان كانوا يستدعون من المقاطعات أو أقسام الريف إلى المجلس الوطني ليشهدوا بمقدرة نوابهم على دفع الضرائب. وكان يرفعهم إلى ذلك المكان من هم أدنى منهم مرتبة من الأعيان وأصحاب الأملاك وشيوخ القرى في نوابهم في زمان يرجع إلى (١٢٥٤)، فينوب عن كل مقاطعة فارسان. فألهمت هذه الفكرة سيمون دي مونت فورت، وكان في ثورة ضد هنري الثالث، خليفة جون، أن يدعو إلى المجلس الوطني فارسين عن كل مقاطعة، وممادين لكل

(١) الملكية الشخصية أو الفردية هي الاستبدادية المطلقة التي يجتمع فيها الحكم في شخص الملك. (المترجم)

مدينة أو بندر انتخابي^(١). وواصل هذا العمل إدوارد الأول خليفة هنري الثالث، إذ إنه كان يلوح في نظره وسيلة ملائمة تمكنه من الاتصال المالي بالمدن النامية.

وأبدى الفرسان ورجال المدن في بادئ الأمر قدرًا جسيمًا من عدم الرغبة في حضور البرلمان، ولكنهم أدركوا شيئًا فشيئًا القوة التي يملكونها في اتخاذ رفع الظلم عن الناس شرطًا لمنح الاعتمادات المالية.

وكان هؤلاء ممثلو ملاك العقارات العامة في المدن والريف يسمون باسم "العموم Commons". وكانوا يعقدون جلساتهم ويتناقشون في الأمور من زمن قديم جدًا أو قل منذ البداية، بمعزل تام عن كبار اللورد والأساقفة. وهكذا نمت في إنجلترا جمعية نيابية تمثيلية، هي مجلس العموم، إلى جانب جمعية أخرى من الأساقفة والنبلاء هي مجلس اللورد. ولم يكن هناك فارق جوهري عميق يفرق بين هئتي الجمعيتين. إذ إن كثيرًا من فرسان المقاطعة رجال لهم قيمتهم ووزنهم، وربما بلغوا من الثراء والنفوذ مبلغ النبلاء وبيدهم كذلك أبناء النبلاء وأشقائهم، على أن مجلس العموم كان في جملة أمره هو الجمعية الأدنى إلى الشعبية.

وأظهر هذان المجلسان منذ البداية، وبخاصة مجلس العموم، ميلًا إلى ادعاء الحق الكامل في فرض الضرائب على البلاد. وأخذًا بالتدرج يوسعان دائرة اختصاصهما من النظر في المظالم إلى نقد شؤون المملكة كلها.

ولسنا بمترسمين التقلبات التي ألمت بقوة البرلمان الإنجليزي وهيبته إبان حكم ملوك آل تيودور، (أعني هنري السابع والثامن وإدوارد السادس وماري وإليزابيث)، على أنه يتضح للقارئ مما قلناه، أنه عندما أعلن جيمس استيوارت آخر الأمر ادعاءه الصريح للحكم المطلق الأوتوقراطي، وجد التجار والنبلاء والجنثمانيّة المستقلون الإنجليز، بين أيديهم وسيلة تقليدية شريفة مختبرة لمقاومته لم يكن عند أي شعب في أوروبا نظير لها.

وهناك خصيصة أخرى للنضال السياسي الإنجليزي، هي انفصاله النسبي عن الكفاح العظم بين الكاثوليك والبروتستانت، وهو الكفاح الذي كانت نيرانه مشبوبة في كل أرجاء أوروبا. حقًا إنه اختلطت بالكفاح الإنجليزي منازعات دينية واضحة المعالم جدًا، ولكنه كان في جوهره نضالًا سياسيًا بين الملك والبرلمان مجسمًا في طبقة المواطنين أصحاب الأملاك الخاصة. على أن الشعب والتاج كانا من الناحية الرسمية من الأخذين بالإصلاح الديني كما كانا من البروتستانت. نعم إن كثيرًا من الناس في الجانب الأول (أعني الشعب) كانوا بروتستانت، من طراز يحترم الكتاب المقدس ولا يقيم وزنًا للنظام الكهنوتي، وهو الطراز الذي يمثل الإصلاح الديني كما تراه الشعوب، وإن الملك كان الرئيس الاسمي لكنيسة من نوع خاص تعترف باله شاء الرباني وتقوم على نظام الكهنوت، وهي كنيسة إنجليزية رسمية، التي تمثل الإصلاح الديني كما يراه الأمراء^(٢) ولكن هذه الخصومة لم تحجب بأية حال أسس الكفاح الجوهرية.

(١) البندر الانتخابي: لفظة أطلقناها للدلالة على Borough ومعناها المدينة التي ترسل عنها نوابًا في البرلمان. (المترجم).

(٢) انظر ص ٩٧٩ ج ٣ من المعالم الطبعة الثانية.

وكان الكفاح بين الملك والبرلمان قد وصل بالفعل إلى دور حاد قبل وفاة جيمس الأول في (١٦٢٥)، ولكنه لم يبلغ ذروته، ويصل إلى الحرب الأهلية إلا في حكم ولده شارل الأول. وفعل شارل بالضبط كل ما يتوقع من ملك في ذلك الموقف، بالنظر إلى قلة الرقابة البرلمانية على السياسة الخارجية. فإنه زج بالملكة في حرب مع كل من إسبانيا وفرنسا، ثم جاء يطلب من بلاده المدد آملاً أن يتغلب الشعور الوطني على ما توفّر في النفوس من كراهية طبيعية لإعطائه المال. فلما أن رفض البرلمان إمداده بالمال، طلب من كثير من رعاياه بعض القروض، وحاول أن يفرض على الناس ألواناً مماثلة من هذه الفرائض غير القانونية.

فأدى هذا بالبرلمان إلى إصدار وثيقة لا تنسى أبداً (١٦٢٨)، هي "ملتمس الحقوق" Petition of Rights ذكره فيها بالعهد الأعظم وأكد القيود القانونية على سلطة الملك الإنجليزي، وأنكر حقه في جباية الفرائض من أي إنسان أو سجنه أو معاقبته، أو أن ينزل جنوده على حساب الناس، دون اتخاذ الإجراءات القانونية الواجبة.

إن ملتمس الحقوق عرض قضية البرلمان الإنجليزي. والميل إلى عرض القضية، كان على الدوام خصيصة من الخصائص الإنجليزية الملحوظة جداً. وعندما كان الرئيس ولـ سون أثدءاء الرب العظيم (١٦١٤ - ١٨) يمهّد لكل خطوة من خطوات سياسته "بمذكرة"، كان يسير في نهج أعظم التقاليد الإنجليزية وقاراً.

وتصرف شارل مع هذا البرلمان تصرف المتعسف المتغطرس - فحله في (١٦٢٩)، وظل أحد شرعاً يحكم بلا برلمان. ويجمع الضرائب جمعاً غير قانوني، ولكنها لم تكن تفي بغرضه. وإذا أدرك أن في الإمكان أن تستعمل الكنيسة أداة لنشر الطاعة، عين لود رئيساً لأساقفة كانتربروري وبدأ يصبغ على رأس كنيسة إنجلترا، وهو رجل من كبار رجال الكنيسة عدواني الطبع، وينطوي على كثير من صفات القسيس وممن يؤمنون "بالحق الإلهي".

وفي (١٦٣٨) حاول شارل أن يبسط طابع الكنييسة الإنجليزية الذي يجمع بين البروتستانتية والكاثوليكية، إلى مملكته الأخرى الاسكتلندية، التي كان تباعدها وانفصالها عن الكاثوليكية أتم وأشمل، والتي كانت تتخذ صورة من المسيحية لا تقوم على نظام كهنوتي ولا تعترف بالعيشاء الرباني، وهي الكنييسة البريزبترانية Presbyterian^(١)، التي تأسست بوصفها الكنييسة القومية. فثار الاسكتلنديون، وتمردت الجنود الإنجليزية التي جمعها شارل لمقاتلتهم.

وكان الإفلاس - وهو في كل الأزمان النتيجة الطبيعية لكل سياسة خارجية طموح - قاب قوسين منه أو أدنى. واضطر شارل حين لم يعد لديه مال ولا جنود جديرة بالثقة، أن يدعو آخر الأمر برلماناً (١٦٤٠). ولكنه حل ذلك البرلمان في السنة نفسها، وهو المعروف بالبرلمان القصير. ثم حاول الاستعانة بمجلس من النبلاء في يورك (١٦٤٠)، ثم استدعى في نوفمبر من نفس السنة آخر برلمان له.

(١) البريزبترانية هي كما ترى الكنيسة الاسكتلندية الرسمية. وهي تقوم على إدارة الشؤون الدينية والكنيسة بواسطة الكهنة والشيوخ سواء أكانوا من رجال الدين أم لم يكونوا. وقد قامت على تعاليم جون كالفن. (المترجم).

واجتمعت هذه الهيئة، وهي البرلمان الطويل، وهي في حالة تهيؤ للنضال. فقبضت على لود، رئيس أساقفة كانتربوري، واتهمته بالخيانة. ونشرت ما يسمى 'بالاعتراض الأكبر'، وكان تقريراً مفصلاً شاملاً لقضية البرلمان ضد شارل. وأصدر البرلمان مشروع قانون (Bill) - اتخذ به التدابير اللازمة لاجتماع البرلمان مرة في كل ثلاث سنين على الأقل، سواء استدعاه الملك أم لم يستدعه. وحاكم أكبر وزراء الملك الذين أعانوه على الحكم مثل ذلك الزمان الطويل بلا برلمان، وبخاصة الإيرل سترافورد.

فدبر الملك إنقاذاً لاسترافورد - مؤامرة للاستيلاء بالجيش فجأة على لندن. ولكن المزمرة اكتشفت، وسارع البرلمان إلى إصدار مشروع القانون القاضي بإدانة سترافورد وسط عاصفة عظمى من الهياج الشعبي. ودب الخوف من جماهير لندن إلى قلب الملك شارل الأول، الذي لعله كان من أسفل من جلسوا على العرش البريطاني وأشدهم خيانة. ولكي يموت سترافورد حسب الأصول القانونية السليمة ما لم يكن بد من أن يوافق الملك على القرار. فوافق الملك وقطعت رأس سترافورد.

وكان الملك في الوقت نفسه يأمر في الخفاء ويبحث عن مواطن غريب، يذشدها بين الإيرلنديين الكاثوليك وبين الخونة من الاسكتلنديين. وأخيراً لجأ إلى مظهر للعنف ضعيف. فذهب إلى دار البرلمان ليعتقل خمسة من أنشط خصومه. فدخل إلى مجلس العموم واعتلى منصة الخطابة. وكان مستعداً لإلقاء خطبة جريئة عن الخيانة، ولكنه عندما رأى أماكن خصومه الخمسة خالية، أرتج عليه واضطرب وتكلم في جمل متقطعة. إذ علم أنهم ارتحلوا عن مدينته الملكية وستمسروا، ولجئوا إلى مدينة لندن التي كان لها مجلس بلدية يحكمها حكماً ذاتياً. وتحدثه لندن. وبعد ذلك بأسبوع قام رجال حرس لندن المديون بتوصيل هؤلاء الأعضاء الخمسة إلى دار البرلمان بوستمنستر في موكب عظيم من مواكب النصر، ولكنهم يجدون الملك جو الصخب والعداء الذي صاحب الحادث، غادر قصر هوايت هول إلى وندسور. وعندئذ استعد كل من الفريقين صراحاً للحرب.

وكان الملك هو الرئيس التقليدي للجيش وقد جرت عادة الجند بطاعة الملك. وكانت لدى البرلمان موارد أعظم. ورفع الملك لواءه في نوتنجهام في مساء يوم مظلم عاصف من أغسطس (١٦٤٢).

وعقب ذلك حرب أهلية طويلة عنيدة، كان الملك فيها مستحوذاً على أكسفورد والبرلمان على لندن. وكان النجاح يتقل من جانب إلى جانب، ولكن الملك لم يستطع قط أن يطبق على لندن، كما لم يستطع البرلمان أن يستولي على أكسفورد. وكان يفيل من عزم كل من الخصمين وجود أتباع من المعتدلين الذين لم يكونوا يحبون الاشتطاط في الأمور.

وبرز من بين قادة البرلمان، رجل اسمه أوليفر كرومويل، كان قد جمع ثلثة من الفرسان وارتفع إلى رتبة جنرال. ويصفه معاصره اللورد وارويك بأنه رجل بسيط يرتدي بدلة من قماش عادي صانعتها خياط ريفي رديء. لم يكن مجرد جندي مقاتل، بل كان منظماً عسكرياً، أدرك ما عليه كثير من القوات البرلمانية من حالة دنية، ونصب نفسه لإصلاحها. وكان لفرسان الملك تلك التقاليد الجميلة، تقاليد الفروسية والولاء. وكان البرلمان شيئاً جديداً عسيراً على الأفهام ليست له تقاليد تقارن بتلك. قال كرومويل 'إن معظم جنودكم

إنما هم خدمة وسفافة كهولاً واهنو القوى، فهل تظنون أن أرواح مثل هؤلاء الأثد خاص الأسافل الأدنىاء، تستطيع يوماً أن تقا تل الجنتلمانية الذين ملأ أعطافهم الشرف والشجاعة والعزم؟.

ولكن هناك شيئاً أقوى وأحسن من الفروسية الجذابة في العالم، وذلك هو الحماسة الدينية. ولذا ن صب كرومويل نفسه ليجمع فرقة من "الربانيين الأتقياء". وكان لا بد لهم من أن يكونوا رجالاً جانين معتدلين في حياتهم. وكان لا بد لهم فوق كل شيء من أن يكونوا رجالاً ذوي عقيدة قوية. فتجاهل جميع التقاليد الاجتماعية وجمع ضباطه من بين كل طبقة. قال: "إنني لأفضل أن أحصل على ضابط بسيط يرتدي بدلة رفيعة حمراء، ويعرف الذي من أجله يحارب ويحب ما يعرف، على ما تسمونه جنتلماناً وليس بشيء عدا ذلك".

واكتشفت إنجلترا بين ظهرانيها قوة جديدة هي الحرس الحديدي. كان السعاة والحوذية وربابنة السفن يتولون فيها قيادة عليا، إلى جوار أبناء البيونات. وأصبحوا النموذج الذي حاول البرلمان أن يبني على منواله من جديد جيشه بأكمله. وكان الحديديون هم العمود الفقري للنموذج الجديد". واجتاح هؤلاء الرجال أممهم فرسان الملك من مارستون مور إلى نيسيبي. وأخيراً وقع الملك أسيراً في قبضة البرلمان.

ورغم ما جرى بذلت محاولات لتسوية الأمور هدفها ترك الملك في عرشه بشكل ما، ولكن شارل كان رجلاً قدرت عليه العواقب المحزنة، فهو لا ينقطع عن تدبير الخطط؛ "رجلاً بلغ من إفكه أنه لا يجوز أن يثق به إنسان". وكان الإنجليز ينساقون نحو موقف جديد في تاريخ العالم، وجب فيه أن يحاكم ملك على خيانتة شعبه وأن يقضي فيه بحكم.

والحق أن جميع الثورات - شأن هذه الثورة الإنجليزية - إنما تدفعها نحو العجلة المتهورة تصرفات الحاكم ومحاولته استعمال القوة والحزم استعمالاً يتجاوز حدود القانون. وتتذف معظم الثورات بحكم نوع من الضرورة نحو خاتمة أشد تطرفاً مما كان يستشف من الخلاف الأصلي. ولم تكن الثورة الإنجليزية استثناء لهذا الأمر. والإنجليز بطبعهم شعب ميال إلى الصلح والتفاهم بل هم قوم مترددون، والد راجح أن الغالبية العظمى منهم كانت لا تزال تريد أن يظل الملك ملكاً وأن يكون الناس أحراراً، وأن يرقد الأسود والذراف بعضهم إلى جوار بعض في سلام وحرية. ولكن الجيش ذا الطراز الجديد لم يكن في مستطاعه أن يتراجع. فلن تكون هناك إذا ما عاد الملك إلى عرشه ذرة من الشفقة نحو هؤلاء السعاة والحوذية الذين وطئوا جنتلمانية الملك بخيولهم. وعندما شرع البرلمان في التفاوض مع المخانل الملكي، تدخل الطراز الجديد. فطرد الكولونيل برايد ثمانين عضواً من أعضاء البرلمان الإنجليزي كانوا يميلون إلى الملك، ثم قدمت البقية الباقية غير القانونية وهي البرلمان الأبتري (Rump Parliament)، الملك إلى المحاكمة.

ولكن الواقع أن الملك كان مقدراً عليه من قبل قضاء لا مرد له. فلما أن رفض مجلس اللوردات قانون المحاكمة، أعلن البرلمان الأبتري عند ذلك "أن الأمة إنما هي في ظل الله مصدر كل السلطات العادلة" وأن العموم في إنجلترا أصحاب السلطة العليا في هذا الشعب"، وإذا افترض المجلس الأبتري أنه هو نفسه العموم - فإنه واصل المحاكمة. وحكم على الملك بأنه "طاغية وخائن وقاتل وعدو لبلاده". وأخذ في صباح أحد أيام

شهر يناير (١٦٤٩) إلى مشنقة، أقيمت خارج نوافذ قاعة ولائمة الخاصة في هوايت هول. وهذا قطع رأسه. فمات وعليه سيما التقوى وضرب من الإشفاق على الذات نبيل - وذلك بعد إعدام استرافورد بثمانية أعوام، وبعد ست سنوات ونصف مضت في حرب أهلية مدمرة، سببها كلها تقريباً بلا استثناء خروجه على القانون.

والحق أن هذا الذي عمله البرلمان كان عملاً فظيلاً مرعباً. فلم يسمع الناس بمثله قط في العالم من قبل. نعم إن الملوك كثيراً ما قتل أحدهم الآخر؛ وإنما كان قتل الأب أو الأخ والاعتقال وسائل اختص بها الأمراء؛ فأما أن يقوم فريق من الشعب، ويحاكم ملكه في جد وتعمد متهماً إياه بعدم الولاء وإثارة الشر والخيانة، ويحكم بإدانته ثم يقتله، فأمر بث الذعر في كل بلاط في أوروبا. ذلك أن البرلمان الأبرتر تجاوز ما يطيقه ضمير زمانه وفكراته. وكأنما خرج من إحدى الغابات سرب من الأطباء فأسر أحد النملور وقتله - وهي جريمة مخالفة للطبيعة. فطرد قيصر روسيا السفير الإنجليزي من بلاطه. واتخذت فرنسا وهولندا تصرفات عدائية صريحة. ووقفت إنجلترا منعزلة أمام العالم، مبللة بؤنبها ضميرها بجرمها.

ومضى روح من الزمان تهيأ فيه للمزايا الشخصية لأوليفر كرومويل ولنظام الجيش الذي أنشأ وقوته، أن تصون لإنجلترا النهج الجمهوري الذي سلكته. وكان الإيرلنديون الكاثوليك قاموا بمذبحة في إنجلترا البروتستانت النازلين في إرلندة، وعند ذاك قمع كرومويل بشدة الإيرلنديين العصاة. وفيما عدا رهباناً ما بأعيانهم قتلوا أثناء الهجوم العنيف على دروجيدا فإن جنوده لم يقتلوا إلا الرجال الذين يحملون السلاح بأيديهم. ولكن فظائع المذبحة كانت لا تزال قوية الأثر في ذهنه، ولذا لم تبد من جانبه أية رحمة في المعركة، ومن ثم لا تقف ذكره يتقد لهيبها في أذهان الإيرلنديين، الذين يطول تذكرهم لما يصيبهم من النوازل.

وبعد إرلندة، جاء دور اسكتلندة، حيث مزق كرومويل جيشاً ملكياً في معركة دنبار (١٦٥٠).

ثم صرف انتباهه إلى هولندة، وهي القطر الذي نهز في حماقة فرصة الانقسامات بين الإنجليز واتخذها ذريعة لإيقاع الأذى بهم كمنافسين له في التجارة. وكان الهولنديون آنذاك سادة البحر، فكان قتال الأسطول الإنجليزي من ثم غير مضمون العاقبة. ولكن حدث بعد سلسلة من الدروب البحرية العنيفة أن أطرد الهولنديون من البحار البريطانية، وحل الإنجليز محلهم بوصفهم الدولة البحرية العظمى. وأصبح حتماً مقرراً على السفائن الهولندية والفرنسية أن تخفض لها راياتها. وذهب أسطول إنجليزي إلى البحر الأبيض، وكان أول قوة بحرية إنجليزية دخلت تلك المياه؛ فأصلحت كثيراً من الحيف الواقع على أرباب السفن الإنجليز من توسكاني ومالطة، وأطلقت قنابلها على وكر القرصان التونسي وحطمت أسطول القرصنة - الذي تعود في أيام شارل وتراخيه أن يصل حتى شواطئ كورنوال وديفون ليقطع الطريق على السفن ويحمل الرقيق إلى إفريقيا.

وتدخلت كذلك ذراع إنجلترا القوية لمساعدة البروتستانت في جنوب فرنسا، وكان دوق سافوي يطاردهم ويفتك بهم. ثم وجدت كل من فرنسا والسويد والدانمارك أن من الحكمة أن يتغلبن على نفورهن الأول من "قتل العاهل" فتحالفن مع إنجلترا. ونشبت الحرب مع إسبانيا، ودمر الأميرال الإنجليزي العظيم

بليك أسطول المعادن^(١) الإسباني في تاناريف في إقدام وجرة لا يكاد يصدقها عقل. فإنه هاجم البطاريات البرية. فكان بذلك أول رجل "جعل السفن تخدش كبرياء قلاع الشواطئ". (ومات في ١٦٥٧، ودفن دير وستمنستر، ولكن نبشت عظامه بعد عودة الملكية بأمر من شارل الثاني، ونقلت إلى كنيسة القديس مارجريت بوستمنستر). تلك هي الصورة التي نقشتها إنجلترا لنفسها أمام عين العالم أثناء أيامها الجمهورية الوجيزة.

وفي اليوم الثالث من سبتمبر (١٦٥٨) توفي كرومويل أثناء عاصفة هوجاء لم يفتها أن تبلغ من نفوس أصحاب الخرافات كل مبلغ. وما كادت يده القوية تجمد عن الحركة، حتى تخاذلت بريطانيا عن تلك المحاولة السابقة لأوانها لتحقيق إنشاء دولة تقوى قوامها الأحرار من الرجال؛ ففي (١٦٦٠) رحب الناس في إنجلترا بعودة شارل الثاني ابن شارل "الشهيد" بكل مظاهر حفاوة الولاء الشخصي المحببة إلى قلب الإنجليز، وتراجعت البلاد عن كفايتها العسكرية والبحرية كأنها النائم إذ يستيقظ ويتمطى ويتنأب بعد حلم عنيف حاد. قُضي على البيوريتان (المتطهرين) وانتهى أمرهم. وعادت إنجلترا المرححة سيرتها الأولى، وفي (١٦٦٧) دخلت سفن الهولنديين - وقد عادت إليهم سيادة البحر ثانية - في نهري التاميز حتى وصلت جرافزند Gravesend وأحرقت أسطولاً إنجليزياً في الميذواي^(٢).

يقول بيبس في يومياته: "وفي الليلة التي أحرق فيها الهولنديون سفننا، تعشى الملك فعلاً مع مولاتي الليدي كاستيل مين، وهناك جن جنونهم وهم يطاردون فراشة مسكينة".

وتتوالى شارل منذ ساعة عودته (١٦٦٠)، زمام شئون الدولة الخارجية بين يديه، و (١٦٧٠) عقد محالفة سرية مع لويس الرابع عشر الفرنسي، تعهد فيها أن يجعل السياسة الإنجليزية الخارجية تابعة تماماً لسياسة فرنسا مقابل جعل سنوي مقداره مئة ألف جنيه. وكانت دنكرك التي سبق أن استولى عليها كرومويل قد بيعت قبل ذلك إلى فرنسا. وكان الملك رياضياً عظيماً، وله الولع الإنجليزي بالصحيح بمشاهدة سباق الخيل، ولعل أبلغ آثاره في الدلالة على خصائصه حلبة السباق في نيوماركت.

وقد استطاع شارل بفضل فكاهته السهلة، الاحتفاظ مدى سني حياته بالعرش البريطاني، ولكنه وصل إلى ذلك بالتزام الحيلة وخطة التفاهم والمسالمة، حتى إذا خلفه في (١٦٨٥) أخوه جيمس الثاني، الذي كان كاثوليكياً مخلصاً، وكان أغبى من أن يدرك التحديد الخفي الذي يحد من سلطة الملكية في إنجلترا، عاد النزاع القديم بين البرلمان والملك إلى حدته الأولى.

ونصب جيمس نفسه لإرغام مملكته على العودة إلى الاتحاد الديني مع روما. وإذا به في ١٦٨٨ يتخذ طريق الهرب إلى فرنسا. على أن اللوردة الكبار والتجار والجنتمانية كانوا في هذه المرة أحرص من أن يسمحوا بأن يقذف بهم هذا التمرد على أيدي كولونيل برايد آخر أو كرومويل آخر. وكانوا استدعوا أنفاً ملكاً آخر هو وليم أمير أورانج ليحل محل الملك. وتم التغيير سريعاً. ولم تحدث أية حرب أهلية - اللهم إلا في إرلندة - ولم تتطرق في البلاد أية قوة ثورية أكبر من هذه.

(١) المستعمل في نقل المعادن النفيسة المغتصبة من أمريكا. (المترجم)

(٢) الميذواي: نهر صغير بإنجلترا يصب في نهر التاميز. (المترجم)

وليس هنا مجال البحث في دعوى وليم بالعرش، أو بالحري في ادعاء زوجته ماري به، فإن هـ ذا موضوع فني بحث - كما يقولون - ولا كيف حكم وليم الثالث وماري، ولا كيف حدث بعد ذلك أن الملك الأرمل وليم حكم وحده ربحاً من الزمان، ثم انتقل العرش إلى آن (١٧٠٢ - ١٧١٤) أخت ماري. ويلوح أن آن كانت تنظر بعين العطف إلى عودة الملك إلى أسرة استيوارت، ولكن اللورد والعموم الذين كانوا عند ذلك المسيطرين على الشؤون الإنجليزية، فضلوا أن يليهم ملك أقل كفاية. إذ كان في الإمكان أن يقام نوع من الادعاء على العرش لمنتخب هانوفر، الذي أصبح ملكاً على إنجلترا باسم جورج الأول (١٧١٤ - ١٧٢٧). كان ألمانياً حقاً لا يعرف اللغة الإنجليزية، واجتلب معه إلى البلاط الإنجليزي حشداً من الذساء الألمانية والحشم الألمان؛ وبمقدمه حلت بالحياة العقلية في البلاد فترة خمود وركود وزال عنها الصقل، ولكن انعزال البلاط عن الحياة الإنجليزية كان أعظم ما يزيه لدى كبار ملاك الأراضي وأصحاب المصالح التجارية، بل كان الميزة التي من أجلها خاصة استقدموه.

ودخلت إنجلترا مرحلة يسميها اللورد بيكونز فيلد باسم مرحلة "أوليجرية البندقية"^(١)؛ وكانت ناصية السلطة العليا مستقرة بين يدي البرلمان الذي كان يسيطر عليه آنذاك مجلس اللوردية، وذلك لأن فن الرشوة ودراسة طرائق طبخ الانتخابات، اللذين رفعهما إلى درجة عالية السير روبرت والبول، سلبت مجلس العموم حريته وقوته الأصليتين. فإنه استخدم طرقاً خبيثة ماهرة قصرت الأصوات البرلمانية من الناهيين. فقد ترسل مدن قديمة تحوي نفراً قليلاً من السكان أو هي لا تحوي أحداً قط عضواً أو عضوين (فكان لمدينة ساروم القديمة ناخب واحد لا يقيم فيها، وليس بها أحد من السكان وينوب عنها مع ذلك نائبان)، على حين لم يكن أحد يمثل على الإطلاق بعض المراكز الجديدة الأهلة بالسكان. وأفضى الإصدار على وجوب امتلاك الأعضاء مؤهلاً عقارياً ضخماً، أن زادت ضيقاً على ضيق، الفرص المتاحة للعموم الذين يتكلمون بلسان العامة معبرين عن حاجات السوق.

وعقب جورج الأول جورج الثاني (١٧٢٧ - ١٧٦٠) الشديد الشبه، وبموته أتيحت لإنجلترا من جديد ملك مولود في إنجلترا، ويستطيع أن يتكلم الإنجليزية بدرجة من الجودة متوسطة وهو حفيده جورج الثالث. وسندحتك في فصل تال عن محاولة هذا الملك استرداد بعض السلطات الملكية الكبرى.

ذلك موجز لقصة الكفاح الذي حدث بإنجلترا إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر بين العوام لثلاثة الكبرى في مشكلة الدولة العصرية؛ أي بين التاج وأصحاب الأملاك الخاصة وتلك القوة المبهمة، التي لا تزال عبياء جاهلة، وهي قوة الناس العوام الخالص. وهذا العامل الأخير لا يبدو حتى الآن إلا في اللحظات التي تهتز فيها البلاد اهتزازاً أشد ما يكون عمقاً، ثم لا يلبث أن يعود إلى الأعماق. ولكن نهاية القصة تعد حتى ذلك الوقت نصراً تاماً جداً لصاحب الأملاك الخاصة البريطاني على أحلام الحكم المطلق الميكانيكي الخططه. وأصبحت إنجلترا وعلى رأسها الأسرة الهانوفرية "جمهورية متوجة"، على حد تسمية جريدة التايمز لها في الآونة الأخيرة. فإنها صاغت طريقة جديدة للحكم، هي الحكم البرلماني، الذي يذكرنا من نواحي كثيرة

(١) الأوليجرية: هي حكومة هيئة صغيرة من الرجال تمسك زمام السلطة العليا بإحدى الدول. (المترجم).

بمجلس السناتو والجمعية الشعبية لدى الرومان، ولكنه حكم أرسخ قنماً وأشد كفاية لاستخدامه طريقة التمثيل النيابي مهما يكن ذلك الاستخدام محدوداً. وكان أن قُدر لجمعيتها في وستمنستر أن تصبح أم البرلمانات في كافة أقطار العالم.

وقد أمسك البرلمان الإنجليزي وما يزال ممسكاً حيال التاج بقسط وفير من العلاقة بين الناظر القاصر وبين الملوك الميروفنجيين. وهم يرون في الملك شخصاً للرسميات غير مسئول، ورمزاً حياً للنظام الملكي والإمبراطوري.

ولكن يظل الشيء الكثير من القوة كامناً في تقاليد التاج وهيبته، وإن في اعتلاء الملوك الهانوفريين المسمين بجورج، ووليم الرابع (١٨٣٠)، وفيكتوريا (١٨٣٧)، وإدوارد السابع (١٩٠١) وجورج الخامس (١٩١٠) وإدوارد الثامن (١٩٣٦)، لأستوبيا يخالف تماماً ملوك الميروفنجيين الضعفاء. فقد مارس هؤلاء الملوك جميعاً على درجات متفاوتة في شئون الكنيسة، والهيئات العسكرية والبحرية، والسياسة الخارجية، نفوذاً لم يقلل من شأنه كونه غير ذي حدود تحده.

٤ - انقسام ألمانيا واضطرابها

لم يجلب انهيار الفكرة القائلة بمسيحية موحدة، في أي قطر من أقطار أوروبا، عواقب أوحش مما جره على ألمانيا، وطبيعي أن يتبادر إلى ظن الإنسان أن الإمبراطور، وقد كان ألماني الأرومة، في كل حالة الأسرات الأولى وحالة آل هابسبرج، كان لابد أن يتطور به الأمر حتى يصبح المليك القومي في دولة تتكلم الألمانية. على أنه كان مما جلبته المصادفة من نكد الطالع على ألمانيا، أن لم يظل أباطرتها قط ألمانين. فإن فردريك الثاني آخر سلالة آل هوهنشتاوفن، كان كما رأينا، صقليًا نصف مستشرق. وأصد بح آل هابسبرج بالمصاهرة والميل، ممثلين في شخص شارل الخامس، بورغنديي الروح بادئ ذي بدء، ثم إسبانيها. وبعد موت شارل الخامس أخذ أخوه فردرياند النمسا والإمبراطورية، وأخذ ابنه فيليب الثاني إسبانيا والأراضي المنخفضة وجنوبي إيطاليا. ولكن السلالة النمسية، كانت كاثوليكية عنيدة في كليلتها، ممسكة بزمام معظم ميراثها على الحدود الشرقية متورطة لذلك أعمق التورط في الشؤون الهنوغارية ودافعة الجزية للأتراك شأن فرديناند وخليفته، لذا لم تحتفظ لنفسها بأي سلطان على شئون الألمان الشماليين بما فيهم من نزعة إلى البروتستانتية، وأواصر بلطيقية واتجاه نحو الغرب، وجهلهم بالخطر التركي أو عدم اهتمامهم به.

وما كان أصحاب السلطان من الأمراء والدوقة والمنتخبين والأساقفة الأمراء وأشباههم، الذين كانت أملاكهم تقطع أوصال ألمانيا في القرون الوسطى إلى مرقعة تكد البصر بأجزائها الممزقة، - بمعادلين في الحقيقة لملوك إنجلترا وفرنسا بل كانوا على التقريب في مستوى كبار أصد حاب الأراضي من الدول والنبلاء بفرنسا وإنجلترا. ولم يكن فيهم واحد حتى (١٧٠١) يحمل لقب "ملك"، وكان الكثير من ممتلكاتهم أضال في الحجم والقيمة من الأملاك الكبيرة التي يملكها بعض النبلاء البريطانيين. وكان مجلس الاديات الألماني شبيهًا بمجلس الطبقات (States Genseral) أو مثيلًا لبرلمان ليس فيه نواب منتخبون. حتى إن الحرب الأهلية العظيمة التي شبت للفر في ألمانيا، وهي حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ - ٤٨)، كانت في جوهرها أوثق قرى وشبهًا بالحرب الأهلية في إنجلترا (١٦٤٣ - ٤٩)، وبحرب الفرون (١٦٤٨ - ٥٥)، وهي عصبة النبلاء الإقطاعيين ضد الملوك في فرنسا، - مما يبدو على ظاهرها لأول وهلة.

وفي كل هاته الحالات كان التاج إما كاثوليكيًا أو نزاعًا إلى الكليلكة، ووجد الأمراء المعاندون أن ميلهم الفردي، ينزع بهم نحو نزعة بروتستانتية. ولكن على حين حدث في إنجلترا وهولندا أن النبلاء البروتستانت والتجار الأغنياء فازوا في النهاية فوزًا مبيّنًا، وكان نجاح التاج في فرنسا أكمل وأوفى، فإن الإمبراطور في ألمانيا لم يبلغ من القوة والسيادة مبلغًا كافيًا، ولا كان لدى الأمراء البروتستانت من الوحدة والتنظيم فيما بينهم، ما يكفل لأحد الطرفين نصرًا نهائيًا. وانتهت الحال هناك بتمزق أوصال ألمانيا.

ومما زاد الكفاح الألماني تعقيدًا اشتباك شعوب غير ألمانية منوعة فيه، وهي: البوهيميون والسويديون (الذين كانت لهم ملكية بروتستانتية جديدة نشأت تحت جوستافوس فازا كنتيجة مباشرة للإصلاح الديني). وأخيرًا تدخلت الملكية الفرنسية، وقد انتصرت نهائيًا على نبلائها، فعصدت البروتستانت وإن كانت كاثوليكية، رامية بذلك إلى غاية واضحة هي الحلول محل آل هابسبرج في رئاسة الإمبراطورية.

وقد ترتب على طول أمد الحرب، وعدم جريانها على امتداد جبهة محددة، لتأثيرها في كل أرجاء إمبراطورية قوامها الرقاع: فمن بروستانت هنا وكاثوليك هنالك - أن تحولت إلى حرب من أقسى الدروب وأشدها تدميرًا، حرب لم تشهد أوروبا لها مثيلاً منذ أيام الغارات الهمجية. وليس يقوم شرها الخاص في القتال، بل فيما يلزم القتال من ويلات. فإنها حدثت في زمن تطور فيه التكتيك العسكري إلى حد جعل المجندين العاديين غير ذوي غناء حيال المشاة المحترفين المدربين. فإن إطلاق الجماعات النار دفعة واحدة من القربانيات إلى مبعدة بضع عشرات من اليرادات قضى على الفارس الفرد ذي الدروع السابات، بيد أن هجمات جموع الفرسان المنظمة كانت لا تزال تستطيع أن تشتت شمل أي مشاة، لم تصل في تدريبيها إلى درجة كافية من الصلابة الآلية. فإن المشاة بقربانياتهم التي لا بد من حشو أنابيبها بين لحظة وأخرى لم تكن لتستطيع أن تقم من النار سباحًا متواصلًا في تشتيت فرسان ذوي عزم وصرامة قبل وصول هجمتهم إلى هدفها وإنزالهم ضربتهم. ومن ثم كان لزامًا عليهم أن يقابلوا الصدمة وقوفًا أو راكعين خلف جدار براق من الخوازيق أو السونكيات. وكان لا بد لهم في هذا من تنظيم عظيم وخبرة كبيرة؛ وكانت المدافع الحديدية لا تزال صغيرة الحجم كما لم تكن وفيرة العدد جدًا، ولم تكن تقوم حتى آنذاك بدور حاسم في الحرب. نعم إنه ما كانت تستطيع أن 'تشق خطوطًا' في صفوف المشاة، ولكنها لم تكن لتستطيع في سهولة أن تحطمها وتبدها، إن هي كانت قوية العزم جيدة التدريب.

وكانت الحرب في مثل تلك الظروف موكولة تمامًا إلى جنود مدربين محترفين، وكانت مسألة إعطائهم أمرًا يعادل في أهميته لدى قواد ذلك الزمان أهمية مسألة الميرة والذخيرة. وبينما الكفاح الطويل يجر قدميه جراحًا من طور إلى طور، وتتفاقم معه محنة البلاد المالية؛ كان قواد كل من الجانبين مضطرين أن يرجعوا بالانتهاج على المدن والقرى، رغبة في أخذ المؤن والتعويض عن متأخرات إعطيات جنودهم. ومن ثم أخذ جندهم يتحولون رويدًا رويدًا إلى مجرد مناسر تعيش على حساب البلاد نهبًا واستلابًا، وأوجدت حرب الثلاثين سنة تقاليد من الانتهاج والسلب بوصفهما عملية قانونية في الحرب ومن انتهاك الحرمات بوصفه امتيازًا للجندي، وهي تقاليد لوث سمعة ألمانيا الطيبة حتى الحرب العظمى (١٩١٤).

إن الفصول الأولى من كتاب "مذكرات فارس" *Memoirs of a Cavalier* تأليف 'دانيال ديفو'، بهاموت من وصف رائع لمذبحة ماجدبورج وحريقها، لتعير القارئ فكرة عن طريقة الحروب في ذلك الزمان، أحسن جدًا من أي كتاب رسمي في علم التاريخ. إذ بلغت البلاد من الخراب حدًا حمل الفلاحين على الكف عن الزراعة، وكان ما يستطاع حصده من المحصولات السريعة غير المنتظمة يخفى فور جمعه، وأصبحت جماهير غفيرة من النساء الطاويات والأطفال الجائعين ممن ينتبعون معسكرات الجيوش، حاشية من اللصوص إلى جانب الناهبين الأشد خشونة وشراسة. فما إن انتهى الكفاح حتى كانت كل ألمانيا قد أمست خرابًا بيانا. ولم تتخلص أوروبا الوسطى تخلصًا تامًا من هذه السرقات والمفاسد المدمرة إلا بعد قرن من الزمان.

ولن يسعنا هنا إلا أن نذكر اسمي تلي (Tille) والنشتين (Wallenstein) قائدي النهب الكبيرين في جانب أسرة هابسبرج، وجوستاف أدولف ملك السويد أسد الشمال ونصير البروتستانت الذي كان يحلم بأن يجعل من بحر البلطيق "بحيرة سويدية". ولكن جوستاف أدولف قتل ساعة نصره الحاسم على والنشتين في لوتز (١٦٣٢)؛ وقتل والنشتين في (١٦٣٤).

وفي (١٦٤٨) اجتمع الأمراء والسياسيون بين ظهراني ذلك الدمار الذي حاكته أيديهم، اجتمعوا لترقيع شئون أوروبا الوسطى في صلح وستفاليا. وبهذا الصلح استحالَت قوة الإمبراطور إلى شبح أو خيال، وتردّب على استحقاق للأكراس أن وصلت إلى نهر الراين. وأصبح في حوزة أمير ألماني هو منتخب براندنبرج سليل آل هوهنزلرن قدر عظيم من الأراضي جعل بين يديه أعظم قوة ألمانية تلي قوة الإمبراطور، وهي قوة سرعان ما أصبحت (١٧٠١)، مملكة بروسيا.

واعترفت معاهدة وستفاليا أيضًا بحقيقتين مقررَتين من زمان مديد، وهما الانفصال عن الإمبراطورية والاستقلال التام لكل من هولندا وسويسرة.

٥- أبهة الملكية العظمى في أوروبا

افتتحنا هذا الفصل بقصتي قطرين، هما الأراضي المنخفضة وبريطانيا، اللتين نجحت فيهما مقاومة المواطن الخاص لهذا الطراز الجديد من الملكية، وهي الملكية الميكافلية، التي أخذت تدشأ عن انهياد المسيحية الخلقي. ولكن الملكية الفردية في فرنسا والروسيا وفي كثير من أنحاء ألمانيا وإيطاليا- في سكونيا وتوسكاني مثلاً لم تُصد وتُقر على مثل تلك الدرجة. بل الواقع أنها وطدت نفسها بوصفها النظام الأوربي السائد أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر. بل لقد كانت الملكية في هولندا وبريطانيا أخذت بأسباب استرجاع قوتها أثناء القرن الثامن عشر. (فأما هولندا فلها ظروف خاصة، وإنا لمعالجوها في فصل تال).

ولم يكن ثمة 'عهد أعظم' (ماجانكارتا) في فرنسا، ولا كان للحكم البرلماني بها مثل تلك التقاليد المحددة الفعالة. أجل كان هناك نفس تعارض المصالح بين التاج من ناحية وبين أصحاب الأراضي والتجار من ناحية أخرى، ولكن هؤلاء لم يكن لهم مجتمع (أي مكان اجتماع) معترف به، ولا كان لهم أسلوب للوحدة كريم. لقد شكلوا المعارضة للتاج ألواناً، وأنشؤوا عصباً للمقاومة، - كذلك شأن "الفروند"^(١)، الذين كانوا يكافحون الملك الشاب لويس الرابع عشر ووزيره العظيم مازارين، على حين كان شارل الأول يقاتل لاس تنقاذ حياته في إنجلترا - ولكن الأمر انتهى في (١٦٥٢) بأنهم هزموا هزيمة نهائية بعد حرب أهلية. وعلى حين حدث في إنجلترا بعد تأسيس بيت هانوفر أن مجلس اللوردات وتابعه مجلس العموم صارا يحكمان البلاد، فإن البلاط في فرنسا على العكس من ذلك كان بعد (١٦٥٢) هو صاحب السيطرة التامة على الأرسى تقيراطية. وكان الكردينال مازارين نفسه يبني على أسس مهددا له الكاردينال ريشيليو معاصر جيمس الأول ملك إنجلترا.

ولسنا نسمع بعد زمان مازارين بأي نبيل فرنسي عظيم إلا أن يكونوا في البلاط حشماً للملك وموظفين. ذلك أنهم شروا وروؤوا - ولكن بثمان، والثمان هو إلقاء عبء الضرائب على جماهير العامة التي لا صوت لها. فكان كل من رجال الدين والتبلاء، بل وفي الواقع كل إنسان يحمل لقباً - معين من كثير من الضرائب. وأصبح هذا الظلم في النهاية أمراً لا يطاق، ولكن الملكية الفرنسية ازدهرت ربحاً من الزمان ازدهار شجرة الغار الخضراء في المزامير. وإنك لتري الكتاب الإنجليزي عند مفتتح القرن الثامن عشر، وقد أخذوا يستلطفون الأنظار إلى بؤس الطبقات الدنيا الفرنسية وإلى ما يستمتع به الفقراء الإنجليزي، في نفس ذلك الزمان، من رخاء نسبي.

على مثل هذه الأوضاع الآثمة أقامت ما عسانا أن نسميها "الملكية العظمى" الفرنسية أسسها، فحكم لويس الرابع عشر الملقب بالعاهل الأعظم زماناً لا نظير له في الطول هو اثنتان وسبعون سنة (١٦٤٣ - ١٧١٥)، وأقام من نفسه نموذجاً يحتثيه كل ملوك أوروبا. وكان يقوده بادئ الرأي وزيره الميكافلي الكردينال مازارين. وبعد وفاة الكردينال أصبح هو نفسه بشخصه ونصه وفصه "الأمير" المثالي. وكان - داخل حدود

(١) وحروب الفروند: هي الحروب الأهلية الفرنسية (١٦٤٨ - ٥٣) وتقع في مرحلتين: محاولة برلمان باريس في (١٦٤٨ -

٤٩) تحديد سلطات الملكية وثورة كبار النبلاء برئاسة كوندية على حكم مازارين في (١٦٥٠ - ٥٣) (المترجم)

عطنه الضيق - ملكاً ذا كفاية استثنائية؛ وكان طموحه أقوى من شهواته الدنيا، فجر على بلاده الإفلاس بما انتهج من معقدات سياسية خارجية شديدة النشاط أظهر فيها وقاراً محكماً ما يزال يستدعي إعجابنا. وكان أول ما يخالجه من رغبة أن يربط أجزاء فرنسا بعضها ببعض وأن يمد حدودها إلى نهر الراين وجبال البرانس، وأن يتمثل الأراضي المنخفضة الإسبانية؛ وكانت أحلامه البعيدة ترى في ملكه وكونه ساء خلفاء محتلمين لشرلمان في دولة رومانية مقدسة يعاد سكهها.

واتخذ من الرشوة وسيلة للدولة تكاد تكون أعظم أهمية من الحرب. وكان شارل الثاني ملك إنجلترا يتناول منه الأعطيات المالية، وكذلك كان شأن معظم النبلاء البولنديين، الذين سنصفهم من فوردها. وكانت نفوده أو بالحري نفوذ الطبقات الدافعة للضرائب في فرنسا تذهب كل مذهب. ولكن البذخ كان شغله الشاغل. فكان قصره العظيم في فرساي بقاعته (صالوناته) ودهاليزه ومرايه وشرفاته ونافوراته وجناته ومنظراته، موضع غبطة العالم أجمع وإعجابه.

لقد حفز الجميع إلى محاكاته. فإن كل ملك أو أمير صغير في أوروبا كان يبني لنفسه قصر فرسايه الخاص متجاوزاً موارده المالية بالقدر الذي يسمح به رعاياه ودائنوه. وكان النبلاء في كل مكان يعيدون بناء قصورهم أو يوسعونها وفق النموذج الجديد. وتطورت صناعة الأقمشة والأثاثات الجميلة المحكّمة إلى صنع وعظم شأنها وازدهرت فنون الترف في كل مكان، فتمتاز تماثيل من الرخام المجزع، والقاشاني (Faience) وأشغال الخشب المذهب، وأشغال المعادن والجلد المضغوط بالنقوش البارزة، وموسيقى كثيرة وتصوير فاخر، وطباعة جميلة وتجليد مونق وطباعة ممتازة وخمور بديعة. وكان يسير بين المرايا والأثاث البديع جنس عجيب من السادة في شعور مستعارة ضخمة مذرورة بالمساحيق، وحرارة ومخرمات وهم يتمايلون على أعقاب عالية حمراء، ويتوكلون على عصي باهرة!! هذا إلى سيدات أكثر إدهاشاً وإعجاباً، تحت أبراج من الشعور المغطاة بالمساحيق وفي ثياب لها متسعات عظيمة من الحرير والساتان تحملها الأسلاك. وكان يتجلى وسط ذلك كله لويس العظيم، شمس عالمه، غير شاعر بالوجوه الهزيلة المتجهمة المريرة التي كانت ترقبه من تلك الظلمات الدنيا التي لم تخترق حجبها شمس ضيائه.

وليس هذا مجال التفصيل في قصة حروب ذلك الملك وأعماله. وما يزال كتاب فولتير المسمى 'عصر لويس الرابع عشر' أحسن ما كتب عنه وأصح من وجوه كثيرة. أنشأ الملك بحرية فرد سية كفتاً لمقاتلة الإنجليز والبولنديين. وهو عمل يعد مأثرة عظيمة القدر. ولكن نظراً لأن ذكاه لم يسم قط عن سحر مغريات ذلك السراب الخادع، أو تلك اللوثة التي أصابت العقلية السياسية في أوروبا، وأعني به الحلم بقيام 'إمبراطورية رومانية مقدسة' تشمل العالم طراً، فإنه تحول في سنواته الأخيرة إلى استرضاء البابوية، التي كانت حتى ذلك الحين معادية له. ونصب نفسه حرباً على روح الاستقلال والانفصال، الممثلة في الأمم راء البروتستانت، وأشعل نار الحرب على البروتستانتية في فرنسا. فأبقت إلى خارج البلاد فراراً من اضطهاداته الدينية جماعات وفيرة العدد من خيرة رعاياه اعتدالاً وأعظمهم قيمة، حاملين معهم فنوناً وصناعات. فإن صناعة

(1) القاشاني: هو ضرب من الخزف الممتاز مطلي بطبقة صقيلة من الطلاء الملون. (المترجم)

الحرير الإنجليزية مثلاً، قام بتأسيسها البروتستانت الفرنسيون. وقد كانت إذ إن حكمه عملية "ال دراجوناد Dragonnades" وهي طريقة للاضطهاد شريرة فعالة بوجه خاص. فكان بعض الجنود الأجلاف يُنزلون في منازل البروتستانت، ويباح لهم أن يفسدوا نظام حياة مضيفيهم وأن يهينوا نساءهم على الشاكلة التي ترضيهم. وخضع لهذا النوع من الضغط، كثير من الرجال ممن لم يكونوا ليخضعوا للنار والعذراء، خالعة العظام.

وانقطع تعليم الجيل التالي من البروتستانت، وكان الآباء بين أن يعلموا أولادهم تعليمًا كاثوليكيًا أو لا يعلمونهم البتة. ولا يداخلك شك أنهم كانوا يعطونهم ذلك التعليم، ولكن في سخر ونغمة صوت تذهب بكل ثقة فيه. وبينما الأقطار الأكثر تسامحاً أصبحت في معظم أمرها مخرصة في عقيدتها الكاثوليكية أو البروتستانتية فإن الأقطار التي أنزلت الاضطهاد برعاياها أمثال فرنسا وإسبانيا وإيطاليا، بلغ من قتلها للتعليم البروتستانتى الشريف، أن أصبح هؤلاء الناس في جل شأنهم مجرد كاثوليك معتقدين للكثلكة أو كاثوليك ملحدين، مستعدين للانتقال إلى الإلحاد الغفل المطلق ما سحنت لهم الفرصة لذلك. وكان العهد التالي أي عهد لويس الخامس عشر هو عصر ذلك الساخر الرفيع فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨)، وهو عصر كان فيه كل إنسان في الجماعة الفرنسية مطابقاً للكنيسة الكاثوليكية ومتمشياً معها، على حين لا يكاد يكون فيهم واحد يؤمن بها.

وكان من مقومات الملكية العظمى - بل من مقوماتها الفاتكة الممتازة - أن تنصر الآداب والعلوم. فأقام لويس الرابع عشر أكاديمية للعلوم منافساً بها الجمعية الملكية الإنجليزية التي أنشأها شارل الثاني ومثيلتها جمعية فلورنسا. وقد زين بلاطه بالشعراء وكتاب المسرحيات والفلاسفة ورجال العلم. ولئن خرجت الطريقة من هذه الرعاية بالشيء القليل من الإلهام، فإنها حصلت على كل حال على موارد مالية تعينها على التجريب والنشر مع قدر خاص من الهيبة في أعين السوق.

وكانت الجهود الأدبية في كل من فرنسا وإنجلترا، منوالاً تقيس على مثاله معظم الجهود الأدبية أثناء تلك الفترة، فترة الملوك الأعظمين ما بين صغير وكبير، وفترة البيوتات الريفية الكبيرة والمنشآت التجارية النامية. وكانت ظروف الأحوال بفرنسا أكثر اعتماداً على الملكية منها بإنجلترا، وأشد تركزاً واتساقاً. وكان الكتاب الفرنسيون تعوزهم التقاليد العظيمة التي تهيأت لمثل تلك الروح الحرة غير المنظمة - روح شكسبير - إذ كانت الحياة الذهنية للفرنسية تتركز حول البلاط، وكانت أشد من الإنجليزية إحساساً بال ضبط وكدح الجماع. وهي لم تنتج أبداً أدباء من "العامة" أبناء الشعب أمثال "بنيان Bunyan" الإنجليزي، ولم يكن في متناول أيديها في القرن السابع عشر مثل ذلك السراح المطلق لروح التمرد والانشقاق الذي قامت عليه الجمهورية والذي يطلق عقاب رجل مثل ملتون. وكانت نزعتها أميل إلى مراعاة الصحة والقيود، وكانت أتم خضوعاً لنفوذ معلمي المدارس والنقاد المتمسكين بالقواعد. وكانت تخضع المادة للأدب. فكلما أن تنظيم الأكاديمية لم يزد قيودها المفرطة إلا تشديداً. وترتب على تلك الفروق، أن تشبع الأدب الفرنسي السابق على القرن التاسع عشر بالوعى الذاتي الألبى، وكأنى به قد كتب بروح طالب ماهر يخشى الدرجات الرديئة، أكثر منه بروح رجل ينشد التعبير الصريح. فإنه أدب قوامه الدرر اليتيم والمأسى والمهازل (التراجيديايات

والكوميديات) وقصص الرومانس^(١) والمباحث النقدية وكلها باردة صحيحة مطابقة للأصول، جوفاء خالية من الحيوية بشكل خارق للعادة. وممن برزوا بين ممارسي "الصحة" في الدراما، كورني (Cornelle) (١٦٠٦ - ١٦٨٤) ورأسين (١٦٣٩ - ١٦٩٩). وانتصر موليير (١٦٢٢ - ٧٣) كذلك على عصره بكوميديات يراها بعض الثقات خير ما ظهر في العالم. ويكاد العرق الوحيد من القراءة السهلة الناصعة اللذيذة الذي يبدو وسط الرياش العقلي النمث الفاخر للملكية الفرنسية العظمى، أن يوجد في مذكرات ذلك الزمان المليئة بالقبيل والقال والفضائح. فهناك هذه، وهناك تدوين بعض المساجلات القوية الاجتماعية والسياسية.

ومن أروع وأحسن ما سطر بالفرنسية أثناء ذلك الزمان ما قام به في خارج فرنسا فرنسيون منفيون ومتمردون. فإن ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) أعظم الفلاسفة الفرنسيين عاش معظم حياته في ظل ملال أمن هولندية النسبي. وهو الشخصية المركزية المتسلطة بين مجموعة متألفة من العقول المتأملّة وأهل النظر، نشطت في أعمال معول التقويض والتعديل والتحقير بمسيحية عصرهم المهذبة. وكان يعمل محققاً فوق كل هؤلاء المبعدين، وفوق كل الكتاب المعاصرين الأوروبيين شخص فولتير العظيم، الذي سننكلم عن اتجاهاته الذهنية في فصل تال. وإن جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) - وهو روح أخرى منبوذة - بما قام به من هجوم عاطفي على الأخلاق الشكلية واتخاذ العاطفي للطبيعة والحرية مثلاً أعلى، ليقف مدبراً بوصفه الروائي الأعظم في عصره ووطنه. وسنزيد القراء عنه بياناً.

وكان الأدب الإنجليزي في القرن السابع عشر مرآة تعكس سمة الشؤون الإنجليزية الأفلقة راراً وتمركزاً، وكان به من العنفوان قدر أكبر ومن الصقل قدر أصغر مما للفرنسي. ولم يكن البلاط والعاصمة الإنجليزيان ابتلعا حياة البلاد القومية كما فعلت العاصمة والبلاط الفرنسيان. وربما أمكننا أن نضع مقابل ديكارت ومدرسته، باكون الذي سبق أن نبأناك عنه في بياننا عن النهضة العلمية، ثم هوبز ولوك. وكان ملتون (١٦٠٨ - ١٦٧٤)، يرتدي ثوباً مخططاً من الدراسات الإغريقية واللاتينية، والثقافة الإيطالية واللاهوت البيوريتاني مع أبراد من المجد من نسج يديه. وكان هناك قدر جسيم من الأدب الحر خارج مجال النفوذ الكلاسيكي، ولعله وجد أشد خصائص تعبيره في كتاب بنيان "سيرة الحجاج Pilgrim's Progress" - (١٦٧٨). وواضح أيضاً أن تواليف ديفو Defoe المبتكرة (١٦٥٩ - ١٧٣١) الذي لم ينل بعد قدره الدقيق من التقدير، موجهة إلى جمهور بريء من تهذيبيات العالم الأكاديمي وادعاءاته. وإنما جاء مؤلفه روبنسون كروزو واحداً من أعظم مبتكرات الأدب. وكتابه "مول فلاندرز Moll Flanders" إنما هو دراسة للأخلاق تستدعي الإعجاب، وديفو هذا الكتاب وفيما كتبه في التطورات الخيالية للتاريخ، إنما يسبق كثيراً من الناحية الفنية كل معاصرة. ويكاد يكون على نفس مستواه، فيلدنج الحاكم اللندني ومؤلف "توم جونز". وكان صمويل ريتشاردسون بائع الأقمشة الذي كتب "بامبلا وكلاريسا"، شخصية عظيمة تالته بين حقائق الأدب الإنجليزي الحية في القرن الثامن عشر؛ وهو الأدب الذي لم يكن أبدياً، وإلى هؤلاء الثلاثة جرت عادة النقد أن يربطوا اسم "سموليت Smollett"، وهو أدنى كثراً. وبهذه الأسماء وباسم جان جاك روسو معها، تعدد

(١) الرومانس: قصص الغزل والفروسية. (المترجم)

إلى الأهمية" الرواية" وهي البيان شبه الحقيقي عن طرائق العيش، وعن الضرب في أرجاء العالم، وعن الالتقاء بالمسائل الخلقية، وذلك بعد أن اختفت بتدهور الإمبراطورية الرومانية. وتؤذن عودتها بانطلاق سراح أنواع جديدة غير محدودة من الناس ميالة إلى الاستطلاع في شئون الحياة والخلق، وهم أناس أوتوا شيئاً من وقت الفراغ، وأناس تواقون إلى تكميل تجربتهم الخاصة بقصص مغامرات من هم على شاكلتهم. ذلك ب أن الحياة أصبحت أقل وطأة وأكثر لذة.

وربما جاز لنا هنا قبل أن نختم هذه الحاشية الأدبية، أن نلاحظ أيضاً ما عليه أدب سون (١٦٧٢ - ١٧١٩)، من خواء رقيق بوصفه شخصية لها أثرها في الأدب الإنجليزي، وما للدكتور صويل جونسون (١٧٠٩ - ١٧٨٤)، من رغبة في التعقيد يحبها الناس، وهو مصنف أول قاموس إنجليزي. ولا يكاد يصلح للقراءة الآن من كتاباته الفعلية شيء اللهم إلا تراجم قليلة قصيرة للشعراء، بيد أن أمثاله وغرابه أطواره قد بقيت لنا في الكتاب الذي ألفه بوزويل عن تاريخ حياته جونسون. فأما إيدنر بوب (١٦٨٨ - ١٧٤٤)، وكان كلاسيكي الاتجاه فرنسي الروح، فإنه ترجم هو ميروس ثم تناول بعض المذاهب الدايستية^(١) فحولها إلى شعر صقيل متقن. وصدرت أقوى كتابات هذا العصر، عصر الرجال المؤدبين غير الممتازين في إنجلترا شأنه في فرنسا، عن روح انغمست في نزاع عنيف مع النظام السائد، بل مع نظام العالم بأجمعه في الواقع، وهو سويت (١٦٦٧ - ١٧٤٥)، مؤلف رحلات جليفر. وهناك "لورانس سترن L. Sterne" (١٧١٣ - ١٧٦٨)، وهو رجل الدين الذي تكاد تتصل باسمه شهرة السوء والذي كتب "تريسترام شاندي"، وعلم من تلاه من كتاب القصص مائة حيلة مبتكرة في فن الرواية. وقد استقى حيويته من عظمة الفرنسي رابليه السابق على العهد الكلاسيكي. ولسوف نقتبس من جيبون المؤرخ في قسم نال، وعند ذلك نحدثك ثانية عن التحديدات العقلية العجيبة التي تغل ذلك العصر عصر الجنتلمانية.

ومات الملك الأعظم في ١٧١٥. وخلفه لويس الخامس عشر وهو ابن حفيده والمقلد غير الكفء لفخامة سلفه العظيم. اتخذ وضعة ملك وجلاله، ولكن الشهوة المتسلطة عليه كانت هي الشيء العادي الملازم لجنسنا البشري، وهي طراد النساء الذي يخفف منه خوف من جهنم يمتد إلى الخرافات بسبب. فأما كيف أن النساء من أمثال الدوقة شاتوروو ومدام دي باري تسلطن على ملذات الملك، وكيف أن الدروب كانت تشب والمحالفات تعقد وأن المقاطعات كان يعاثر فيها فساداً، وآلاًفاً من الناس يقتلون بسبب غرور هاته المخلوقات وأحقادها، وكيف حدث أن كل الحياة العامة لفرنسا وأوروبا تلوّثت بالدسائس والبغاء والاحتيال بسببهن، فأمر ينبغي أن يعلمها القارئ من مذكرات ذلك الزمان. وصارت السياسة الخارجية الظموح في حكم لويس الخامس عشر بقدماً ثابتة صوب تحطيمها النهائي.

(١) الفلسفة الدايستية أو الربوبية Deistic فلسفة مخالفة للمسيحية تؤمن بوجود الإله وتكر الوحي. (المترجم)

وفي ١٧٧٤ مات هذا اللويس بمرض الجدري، لويس المحبوب جدًا كما كان مملّوقه يسمونه، وخلفه على العرش حفيده لويس السادس عشر (١٧٧٤ - ١٧٩٣)، وهو رجل غبي حسن النية، وصدا أحب طلبة نارية بديعة التشديد، وصانع أقفال هاو على شيء من المهارة. فأما كيف أنه تبع شارل الأول إلى المقصلة فأمر سندلي به في قسم تال. إذ ينحصر كل اهتمامنا في الوقت الحاضر، في الملكية العظمى إبان مجدها.

وقد نستطيع أن نذكر من بين ممارسي الملكية العظمى خارج فرنسا الملوك البروسيين أولاً وهم فرديريك وليم الأول (١٧١٣ - ١٧٤٠)، وابنه وخلفه فرديريك الثاني وهوفريدريك الأكبر (١٧٤٠ - ١٧٨٦). وقصة النهوض البطيء لأسرة هونزلرن، التي حكمت مملكة بروسيا، مبتدئة من بدايات مغمورة غير مبرزة، قصة مملعة ليس يهمن أن نتبعها هنا. وهي قصة تجمع بين الحظ والعنف، والدعاوى الجريئة والخيانات المباحة. ويسردها مع التقدير العظيم كتاب كارليل المسمى "فرديريك الأكبر". حتى إذا وافى القرن الثامن عشر كانت المملكة البروسية قد بلغت من الأهمية حدًا هددت معه الإمبراطورية؛ وكان لها جيش قوي حسن التدريب، وكان ملكها ممن أعطوا ميكافلي حظًا كبيرًا من التفاتهم وعنايتهم. وجعل فرديريك من قصر بوتسدام فرسايًا آخر بلغ به حد الكمال. إذ هناك بلغت جنات سان سوسي، بنافوراتها وشوارعها المزدانة بالأشجار وتمائيلها حد التقليد "الفردي" لنموذجها الفرنسي؛ وكان هناك كذلك القصر الجديد وهو بناء هائل من الطوب أنفقت في تشييده أموال طائلة، وكذلك صوبة البرتقال (الأورانجري^(١)) ذات الطراز الإيطالي وفيها مجموعة من الصور، وقصر من الرخام إلى غير ذلك. وسما فرديريك بالثقافة إلى حد التأليف، كما أنه أخذ يرسل فولتير ويستضيفه حتى انتهى بهما الأمر إلى السأمة المتبادلة.

وكانت الإمبراطورية النمساوية مشغولة على الدوام ما بين مطرقة الفرنسيين وسندان الأتراك حتى إنها لم تستطع أن تطور نموذج الملك الأعظم الحقيقي إلى عهد ماريا تريزا (١٧٤٠ - ١٧٨٠) (التي لم تحمل لقب الإمبراطورة لأنها امرأة). وخلفها على قصورها في ١٧٨٠ جوزيف الثاني الذي تولى الإمبراطورية منذ (١٧٦٥ - ١٧٩٠).

ويظهر بطرس الأكبر انفصلت الإمبراطورية المسكوفية عن تقاليدھا التتارية ودخلت إلى حد زاجاذبية الفرنسية. وحلق بطرس لحى نبلائه الشرفية وأدخل الثياب الغربية. ولم تكن هذه إلا الرموز الخارجية المرئية لميوله الغربية. ولكي يحرر نفسه من الشعور الآسيوي وتقاليد موسكو، التي لها شأن بكنين - مدينة جوانية مقدسة، هي "الكرملين" Kremlin بنى لنفسه عاصمة جديدة هي بتروجراد على مستنقع النيفا. وطبيعي أنه شاد لنفسه فرسايًا أخرى هي قصر البيتر هوف على قرابة ثمانية عشر ميلًا من باريس الجديدة هذه، مستخدمًا في ذلك مهندسًا معماريًا فرنسيًا ومنشأ شرفة (تراسًا) ونوافير ومساقط مائية وبها ولصور وجنات وكل المظاهر المعترف بها. وكان من أبرز خلفائه إليزابيث (١٧٤١ - ١٧٦٢) وكاترين العظيمة، وهي أميرة ألمانية، عادت بعد الحصول على التاج بطريقة شرقية بحتة هي قتل زوجها، القيصر الشرعي، فأنحرفت إلى مثل عليا غربية تقدمية وحكمت البلاد بقوة عظيمة من (١٧٦٢ إلى ١٧٩٦). فأقامت

(١) الأورانجري أو صوبة البرتقال (Orangery) مبنى من الزجاج يساعد بدفنه شجر البرتقال على النمو. (المترجم)

أكاديمية، وتراسلت مع فولتير. وعاشت حتى شهدت نهاية "الملكية العظمى" في أوروبا وإعدام لويس السادس عشر.

ويضيق المقام عن مجرد تقديم قائمة بأسماء صغار "الملوك الأعظمين" في فلورنسا (توسكاني) وسافوي وساكسونيا والدانماركة والسويد. ولو راجعت كتاب دليل بيديكار⁽¹⁾ لشهدت في كل عاصمة فرسايًا جديدًا باسم جديد تقلد فرساي باريس، وإن السائح لتأخذه الدهشة أثناء مروره في تلك القصور لدقة النقل. وكذلك يضيق المقام عن معالجة حرب الوراثة الإسبانية. فإن إسبانيا وقد أجهدت فوق طاقتها ما مشروعات التوسع الإمبراطوري التي دبرها شارل الخامس وفيليب الثاني، وأضعفها ما أظهرته ندو البروتستانت والمسلمين واليهود من اضطهاد تعصبي، أخذت طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر تهبط عما أوتيت من أهمية موقوتة في الشؤون الأوروبية وتعود ثانية إلى مستوى دول الدرجة الثانية.

كان هؤلاء الملوك الأوروبيون يحكمون ممالكهم كما يحكم نبلاؤهم مزارعهم، كانوا يتآمرون بعضهم ببعض، وكانوا "سياسيين" وبعيدي النظر" بطريقة أبعد ما تكون عن الواقع، وكانوا يخوضون الدروب ويبددون العصاراة الحيوية لأوروبا في سياسات سخيفة من العدوان والمقاومة. وانتهى الأمر بأن انفجرت عليهم من الأعماق عاصفة هوجاء. وكانت تلك العاصفة هي الثورة الفرنسية الأولى، فإن غضب الرجل العامي في أوروبا أخذ نظامهم بغتة وعلى حين غرة. ولم يكن ذلك إلا الانفجار الافتتاحي لدورة عظيمة من العواصف السياسية والاجتماعية لا تزال مستمرة، ولعلها ستستمر حتى يزول أثر للملكية القومية النزعة ثم ينقشع الغمام وتتجلي السماوات ثانية على السلام الأعظم الذي سيظل اتحاد البشرية جمعاء.

(1) دليل بيديكار (Baedeker): كتاب يصدر بلغات أجنبية متعددة عن أهم أقطار العالم مبيّنًا أهم ما بها من المدين والآثار والمعالم (المترجم)

٦- الموسيقى في القرنين السابع عشر والثامن عشر

كان القرنان السابع عشر والثامن عشر فترة تقدم قوي في الموسيقى. إذ إن العوامل الفكرية المهمة لذلك كانت أحكمت، وتأسس الديوانان (السلمان) الموسيقيان الكبير والصغير بما لهما من تعاقب ثابت للنغمات، ومن قابلية للتكيف وفق التلحينات وبما يكمن فيهما من احتمالات اللون الهارموني. فصار في الإمكان تحديد القصد الموسيقي (Musical intention) تحديداً واضحاً، وأن ينظم التعاون بين آلات متنوعة في دقة عظيمة. وكانت الأحوال الاجتماعية ما بين مدن نامية وبلاطات وبيوتات ريفية تضيف ميادين جديدة من الاحتمالات الموسيقية إلى المجال القديم المنحصر في جوقة الممثلين الكنسيين. وكانت الحفلات التكرية والمهرجانات قد انتشرت وأصبحت محبوبة من الشعب في القرن السادس عشر، فأُتاحت أمام محكم الموسيقى فرصاً جمة، وأصبحت الأوبرات والأناشيد الدينية تقدماً عظيماً عند حلول القرن السابع عشر.

وظهرت في إيطاليا الموسيقى الجديدة (Nuove Musiche). يقول السير و. ه. بادور إن لولي (١٦٣٥ - ١٦٣٥ - ١٦٨٧)، هو أعظم شخصية من الوجهة التاريخية، وما كان ذلك فقط من أجل ما حوته ألقانه من قوة درامية تمثيلية، بل لما تجلّى في طريقة خطابه الدرامي من ضبط متسق. ويقف إلى جواره الإيطالي مونتيفردي. ذلك أن الموسيقى شرعت تعمل على معيار كبير في تلك المدة.

ودونت قداسات القرن السادس عشر لجوقات الممثلين بالكنيسة، وكتبت غزليات (مادريجات) القرن السادس عشر ليستمتع بها جماعة من الخلان حول مائدة عشائهم، ولم يحدث إلا عند قريب من نهايته أن عازفي العود والفرجينال يشجعون في أن يتجهوا بأذهانهم إلى فكرة الأسد تاذية (١) Virtuoso في الفن التنفيذي... واجتلب التحسين العظيم في بناء الأرغن عدداً متعاقباً من العازفين العظماء: منهم بول وفيلبس الإنجليزيان، وسويلنك الهولندي، وفرسكو بالدي في روما، وفروبرجر في فيينا، وبكستودي في لوبيك، وه. و. الذي سعى إليه باخ ماثلاً على قدميه لكي ينعم بسماعه... ويساير هذا كله التطور الذي لحق بموسيقى الفرجينال (٢) ولا يقل عن ذلك في الأهمية وصول الكمان وعائلتها وتلكؤ الناس في قبولها. فإنها وإن رجعت إلى عهد تيفن بروخر وأسرة أماتي (٣) في النصف الأول من القرن السادس عشر، إلا أنها قضت زهاء مئة عام تشق طريقها نحو القبول والرضا العام. ناهيك بأن ماس عازف العود كان في عصر يصل في تأخره إلى ١٦٧٦ ما يزال مستطعاً أن يطعن في "الكمان الصارخة" - على حد تعبيره، وأن يأسف على نغم جدتها القبول Viol الأكثر هدوءاً واستواءً. بيد أن نطاقها الأرحب، وخفة حركتها العظمى وقوة تعبيرها الأشد وخزاً وتأثيراً فرضت نفسها وأصبحت شيئاً ملموساً على طول المدى.. وبلغ من شأنها في إيطاليا ما موطنها

(١) (Virtuoso): الأستاذ الماهر في الفنون الجميلة وخاصة الموسيقى. (المترجم)

(٢) الفرجينال: آلة موسيقية صغيرة يلعب عليها بواسطة الدساتين (لوحة الأصابع). (المترجم)

(٣) أسرة أماتي (Amatis): اسم عائلة من صنّاع إيطاليين للكمان وهم مؤسسو مدرسة الكمان الكريمونية. (المترجم)

الأصلي وإن حملوها في سماجة وعزفوا عليها في سماجة - أن اعترف لها الناس بأنها الآلة الوحيد الذي تستطيع أن تضارع الصوت الإنساني وتتافسه^(١).

ويقال إن التطور الموسيقي تأخر حيناً من الدهر بسبب التباهي بالصائت المغني والإعجاب به في الأوبرا الإيطالية، وكان لمغني القرن السابع عشر، وبخاصة أصحاب صوت السوبرانو من الذكران، صديت يقارب في سوقيته وشناعته ما لنجوم السينما العصريين، ومع هذا فإن تلك الفترة أظهرت موسيقى آل ساندرو اسكرلاتي (١٦٥٩ - ١٧٢٥) الجميلة الوفيرة وهو البشير الممهد لموزار. وحدث في إنجلترا انفجار عظيم من النشاط الموسيقي بلغ أوجه في شخص بورسل (١٦٥٨ - ١٦٩٥) بعد فترة هذوء أثناء عصر الجمهورية. وفي ألمانيا أمدت البلاطات الصغيرة وجوقات المدن الشعب الألماني بقدر لا حصر له من مراكز الاستثارة الموسيقية، وولد في ١٦٨٥ بسكسونيا يوهان سباستيان باخ وهاد دل، ليحملا الموسيقى الألمانية إلى سمت التفوق والاستعلاء الذي قدر لها أن تحافظ عليه طيلة قرن ونصف من الزمن، يقول السير و. ه. هادو: "إنهما بين جميع الملحنين قبل عصر فيينا أشدهم وأوثقهم ارتباطاً بزمانهما هذا وإن صوتيهما ليرنان في آذاننا بألف اللهجات وأدناها إلينا".

فأما بالسترينا الذي سجل لنفسه أنفاً ذروة في الموسيقى، فإنه بالمقايضة مخلوق يعيش في عالم آخر. إذ كان تاجاً على مفرق أساتذة موسيقى جوقة المرتلين الكنسية قبل عهد الآلات العظيم. وجاءت بعقب أسماء باخ وهاندل مجموعة من أسماء أخرى. فإن هايدن (١٧٣٢ - ١٨٠٩)، وموزار (١٧٥٦ - ١٧٩١) وبيتهوفن (١٧٧٠ - ١٨٢٧) يقفون مبرزين بين أشد الكواكب تألقاً. ذلك أن الفيلسوف العظيم للموسيقى العصرية كان ينثال آنذاك عميقاً جياشاً واسع الجنبات. وما يزال يهيم ويفيض. ولا يتسع المقام هنا إلا لذكر المؤلفين الموسيقيين ثم ندلي إليك بعد ذلك في فقرة موجزة أو ما إليها بتعميمات قليلة مركزة حول موسيقى القرن التاسع عشر وموسيقى أيامنا هذه. كانت هذه الموسيقى، موسيقى القرنين السابع والثامن عشر إذ بان صنعها امتيازاً خاصاً لعالم صغير مثقف - هو من في البلاطات من الناس، ومن في مدن المقاطعات والدور الريفية من أناس يستطيعون أن ينظموا حفلات عزف ومن من الناس في مدن تحوي لكبرها دور الأوبرا وحجرات العزف. وكان نصيب الفلاح والعامل من الموسيقى في أوروبا الغربية قدراً مطرد التناقص إذ بان القرنين السابع عشر والثامن عشر بينما كانت هذه الأشكال الجديدة آخذة في التطور. ذلك أن الغناء الشعبي تدلى واضمحل وبدت عليه مظاهر التعرض للنسيان. وكان كل ما تبقى للكافة من الناس من حياة موسيقية هو بضع أغان شعبية وبضع ترانيم. والراجح أن النهضة الدينية في تلك الأيام، مدينة بشيء من قوتها الدافعة إلى إطلاقها سراح الحافظ الغنائي السجين. ولم يحدث إلا في أيامنا هذه مع ظهور تطور ضخم في الطرائق الآلية للإنتاج والنشر الموسيقي، أن الموسيقى وقد صبغت بالصباغ العصري وخالطها الذل والشقاء والارتقاء وارتفعت في علية التسامي - تعود إلى غمار الحياة العادية. فأصبح من ثم باخ وبيتهوفن جزءاً من ثقافة الجنس البشري العامة.

(١) انظر كتاب "Music" من تأليف السير و. ه. هادو.

٧- التصوير في القرن السابع عشر والثامن عشر

إن فني التصوير والعمارة في هذا الزمان شأن موسيقاه، مرآة تعكس الأحوال الاجتماعية فيه. وهـ و زمان تحطمت فيه الأفكار وتمزق السلطان، ولم تعد اعتبارات المظهر (Object) والروعة تسيطر على الفن التصويري. وقد نزلت الموضوعات الدينية إلى مرتبة ثانوية، فحيثما عالجها الناس عالجوها بوصفها أحداثاً صغيرة في قصة وليس بوصف كونها حقائق عظيمة هائلة. وتحت أشكال الكنايات^(١) والرمزيات. فإن المصور يصور من أجل الرؤية لا من أجل الفكرة ولا من أجل الحقيقة. وتحل صورة الحقيقة والواقع محل صورة الأبطال أو صور التبتل الديني على نفس الشاكلة التي تحل بها الرواية محل الملحمة والرومانس العجيبة الخيال. والأستاذان المنفوقان في تصوير القرن السابع عشر هما فيلاسكويز (١٥٩٩ - ١٦٦٠) ورامبرانت (١٦٠٦ - ١٦٦٩). إذ يخيل إلينا أن الحياة كانت في نظرهما متكافئة كلها لا تتفاوت إلا بمقدار ما تقدم إليهما من مجال ضاق أو رحب لتحقيق الجمال في الجو والنور والمادة. وكان فيلاسكويز يقوم في البلاط الإسباني المتدهور، برسم الباباوات والملوك دون تمليق، ورسم الأقزام والمقعدين دونما احتقار. ويخلي الرسم الدقيق التحليلي والتسجيلي (Documentary) مكانه في أشغال هذين الرجلين - وهما أول المصورين العصريين - لعملية إفراغ إجمالي للأثر، ولتركيز على وحدة الانطباع وذلك على حساب كل الاعتبارات الثانوية. وكانت الصورة إلى ذلك العهد في حياة الماضي الشديدة لتمرکز، إما شاهداً يشهد بشيء أو حثثاً على شيء أو تمليقاً لشخص أو حلية لمكان؛ فأما الآن فإنها أصبحت في عدد عظيم من الحالات، شيئاً في حد ذاته، شيئاً يوجد من أجل نفسه. فالصور تعلق بوصفها صوراً وتجمع في معارض لا صور. وتطورت المناظر الطبيعية (Landscape) تطوراً قوياً، كذلك تصوير مناظر الحياة العادية (Genre)^(٢). وصارت الصور العارية (Nude) تنقش في شكل لطيف مثير؛ وفي فرنسا أبهج كل من واتوه وفراجونار وغيرهما طبقة الخاصة وتملقوهم بلمسة من التقديس الرقيق لحقائق الحياة الريفية. وإن الإنسان لي درك في هذه الأشياء شواهد تتم عن مجتمع نام مكون من أناس آمنين موفقين ذوي أرواح جد ممتازة، يقدرون الحياة وينفصلون شيئاً ما عن مبادئها وآلامها جميعاً.

ولم يبدُ عصر إليزابيث في إنجلترا أي تحمس في فنون التشكيل يطاول جهوده الأدبية والموسيقية. فهي إنما كانت تستورد مصوريها ومعماريها. بيد أنه حدث في القرنين السابع عشر والثامن عشر، أن خلقت الثروة المتجمعة والرخاء المتكاثف اللذان أصابتها تلك الدولة التي كانت حتى حين قطراً على هامش المدينة الغربية - أحوالاً توائم ازدهار المجهود الفني، حتى إذا وافى القرن الثامن عشر كان أمثال رينولدز (١٧٢٣)

(١) الكنايات (Allegory): ضرب من التصوير المجازي أو الرمزي يرمي إلى موقف له ظل من الحقيقة ومع ذلك فيه موضوع في عالم الخيال. (المترجم)

(٢) الجنس (Genre): هو لفظ يطلق في النقش والتصوير على الصور التي تصور الحياة العادية من أمثال المناظر المنزلية أو الريفية أو القروية. (المترجم)

(١٧٩٢ -)، وجينزبورو (١٧٢٧ - ١٧٨٨) ورومي من المصورين الإنجليز يستطيعون أن يطلوا أي مجهود معاصر.

وكانت هذه الفترة، فترة الملكيات وطبقة الخاصة، موائمة أيضاً أعظم الموائمة لتطور طرز معينة من العمارة. ذلك أن عمليات ناشطة من قبل في القرن السادس عشر، كانت لا تزال تعمل عند ذاك بقوة متزايدة. وكان الملوك في كل مكان يبنون القصور ويعيدونها بناءً، وكان النبلاء والأعيان يهدمون قلاعهم ويشتدونها منازل أنيقة، فأما منازل المدن فقد شرع فن العمارة في التفكير فيها على معيار أكبر. فأما فن العمارة الكنسي فإنه ذوى. وأضحى مجهود البلديات أقل أهمية نسبياً، والواقع أن المثرى الكبير الفرد، إنما هو القابض بيده على مفتاح الابتكار في ذلك العصر في هذا الشأن وفي غيره من الشؤون. وأتاح احتراق قسم عظيم من لندن في الحريق الكبير (١٦٦٦)، لإنجلترا نهضة خاصة أتاحت للسير كرسطوفر، وإن كاندراثة سانت بول وكنايس لندن، لتسجل دوراً بالغاً الأوج في العمارة الإنجليزية. وكان له الفضل على أمريكا إذ أرسل إليها تصميمات لببوت ريفية متنوعة شيدت هناك، كما أن عبقرية الخاصة طبعت أثرها في فن التصميم الأمريكي الباكر. وكان إينيجو جونز شخصية عظيمة ثانية بين المعماريين الإنجليز في بواكير القرن السابع عشر، وهذه قاعة الولايم التي قصد بها أن تكون قسمًا من قصر في هوايت هول^(١) لم يمتدأه - تجعل عمله مألوفاً لدى كل زائر لمدينة لندن. وكان كل من هذين الرجلين بل في الواقع مع كل المعماريين الإنجليز والفرنسيين والألمان في تلك الفترة، يشتغلون على أساس النهضة الإيطالية التي كانت لا تزال حية متطورة، وذلك أن كثيراً من أحسن المباني في ذلك الزمان كان من عمل إيطاليين. وقد حدث بالتدريج مع اقتراب القرن الثامن عشر من نهايته، أن توقف التطور الحر الطبيعي لعمارة عصر النهضة، إذ اعترضته موجة من التحذلق الكلاسيكي. وكان لما نال الدراسات الكلاسيكية بمدارس أوروبا الغربية من تجمد تدريجي، نظير بدا في ظهور نزعة متزايدة إلى تقليد نماذج إغريقية ورومانية فما كان يوماً من المنبهات أضحت الآن مخدراً ذهنياً تقليدياً مخبلاً للعقول. وأصبحت البيوت المالية والكنائس والمتاحف تبني على صورة المعبد الأثيني، وحتى شرفات (تراسات) المنازل نفسها أخضعت لنظام أبهاء الأعمدة (Colonnades). ولكن أسوأ غلوّ نهياً لهذه النزعات القائلة، جاء في القرن التاسع عشر خارج حدود عصرنا التراهن هذا.

(١) هوايت هول: قصر بناه ولم يتمه هنري الثامن ودمرته النيران في ١٦٩٨. (المترجم)

٨- نمو فكرة الدول العظمى

رأينا كيف ظهرت في الشؤون الإنسانية فكرتنا الحكم العالمي والمجتمع البشري، وقصد صناعه كيف أن إخفاق الكنيسة المسيحية على اختلاف مذاهبها في توطيد وصيانة تينكم الفكرتين، فكرتي مؤسسها يسوع، قد أفضى إلى انهيار خلقي في الشؤون السياسية وانتقال إلى الأناية ونقص في الإيمان. ورأينا كيف أن الملكية الميكافلية نصبت نفسها لمناهضة روح الأخوة في المسيحية، وكيف أن الملكية الميكافلية تطورت في قسم كبير من أوروبا فأصبحت الملكيات العظمى والملكيات البرلمانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر. بيد أن عقل الإنسان وخياله لا ينفكان ناشطين، لذلك فقد كانت تنتسج انتساج الشبكة تحت سلطان الملوك الأعظمين مجموعة معقدة من الأفكار والتقاليد، تهدف إلى اصطياذ عقول الناس والإمساك بها. تلك المجموعة المعقدة هي فكرة السياسة الدولية لا بوصفها موضوع معاملات بين الأمراء، بل بوصف كونه موضوع معاملات بين نوع من الكائنات الخالدة، هي الدول. ذلك أن الأمراء يجيئون ويذهبون. فإن لم ويس الرابع عشر قد يخلفه لويس خامس عشر متصيد لربات الدل والجمال، وقد يخلفه بدوره ذلك صانع الأقفال الهاوي الغبي لويس السادس عشر. وجاء بعد بطرس الأكبر خلف متعاقب من القيصرات. وكان أهم مظهر مستمر لآل هابسبرج بعد شارل الخامس، في كل من النمسا أو إسبانيا، تواصلًا لشفاه الغليظة والد ذقون القبيحة والاعتقاد في الخرافات. وإن النذالة المحببة التي يديها ملك مثل شارل الثاني، لتتخذ من مدعياته هزواً وسخرية. فأما الشيء الأرسخ قديمًا فهو أعباء وظيفة وزير الخارجية، وفكرات الناس الذين كتبوا عن اختصاصات الدولة. وقد كان الوزراء يحافظون على استمرار السياسة أيام اعتكاف ملوكهم، وفي الفترات التي يخلو فيها العرش بين ملك وخلفه.

ولذا فإننا نجد أن الأمير أصبح بالتدريج أقل أهمية في أذهان الناس من "الدولة" التي كان الأمير رأساً لها؛ ومن ثم يحين الزمان الذي نقرأ فيه القليل فالأقل عن خطط وأطماع هذا الملك أو ذاك، ونقرأ أكثر من 'خطط فرنسا' أو 'أطماع بروسيا'. فإننا نجد في عصر كانت فيه العقيدة الدينية في انحدار، رجالاً يظهرون إيماناً جديداً جازماً بحقيقة هذه الشخصيات المعنوية. وذلك أن تلك الأطياف الضخمة المبهمة وأعدى بها 'الدول' تسللت خفية إلى الفكر السياسي الأوروبي، حتى تسلطت عليه تسلطاً كاملاً عند ختام القرن الثامن عشر وإبان التاسع عشر. وهي لا تبرح متسلطة عليه إلى يومنا هذا. وظلت القارة الأوروبية مسيحية اسماً، ولكن عبادة رب واحد روحاً وحقيقة معناها الانتماء إلى مجتمع واحد يضم كل زملاء الإنسان في تلك العبادة. ولكن الواقع العملي أن أوروبا لا تفعل ذلك، بل إنها قد سلمت نفسها تسليماً تاماً لعبادة تلك الرطابة (Mythology) العجيبة المسماة بالدولة. ومن أجل هذه الآلهة "الدول ذات السيادة"، ومن أجل وحدة 'إيطاليا'، وزعامة 'بروسيا'، ومن أجل مجد 'فرنسا'، ومقدرات 'الروسيا'، ضحت بأجيال عديدة من الودعة الممكنة والسلام والرخاء وأودت بحياة ملايين من الرجال.

والنظرة إلى القبيلة أو الدولة كنوع من الشخصية إنما هي نزعة قديمة جداً في العقل الإنساني. والكتاب المقدس حافل بمثل هذه التجسمات أو الشخصيات المعنوية. فإن مملكة يهوذا وآدوم وموآب ومملكة آشور (آشوريا) لتبدو في الكتب المقدسة العبرانية كأنما هي أفراد. بل قد يكون من المستحيل في بعض الأحيان أن يقول المرء هل الكاتب العبري يعالج شخصاً أو أمة؟ ولا خفاء في أنها نزعة بدائية وطبيعية. ولكنها في حالة أوروبا العصرية، ضرب من النكوص. فإن أوروبا في كنف فكرة "عالم Christendom" المسيحية قد دمت مراحل كثيرة في سبيل الوحدة. وبينما كانت شخوص قبلية أمثال "إسرائيل" أو "صور" تمثل بالفعل مجتمعاً ما بعينه من القرابة الدموية، واتساقاً بعينه في الطراز وتألفاً في المصلحة، فإن الدول الأوروبية التي نشأت في القرنين السابع عشر والثامن عشر، كانت وحدات افتعالية تماماً. فالروسيا مثلاً كانت في الحقيقة مجموعة من أشد العناصر تبايناً وعدم تجانس، ما بين قوزاق وتتار وأوكرانيين ومسكوفيين ثم انضم إليهم - بعد ذلك - بولندا - الأسطوريون والليتوانيون. وكانت فرنسا في حكم لويس الخامس عشر تضم الأراض الألمانية ومناطق بورغندي المتمثلة حديثاً، وكانت سجنًا للهوجنوت المهيزي الجناح ومستنزفًا لحياة الفلاحين. فأما في 'بريطانيا' فإن إنجلترا كانت تحمل على كاهلها الممتلكات الهانوفرية في ألمانيا كما تحمل اسكتلندا، وأهل ويلز الأجانب تماماً، والإرلنديين الكاثوليك المعادين. وإن هناك دولاً كالسويد وبروسيا، وأكثر منها في هالند والنمسا، وكلها تروح إذا نحن تتبعناها في سلسلة من الخرائط التاريخية، قد تقلص وتتمدد، وقد بزوايدها وذوائبها خارجاً وتتجول فوق خريطة أوروبا كما تفعل الأمبيات تحت الميكروسكوب.

ولو أننا تأملنا سيكولوجية العلاقات الدولية كما نراها متجلية في العالم المحيط بنا، وكما يظهرها تطور فكرة 'الدولة' في أوروبا العصرية، لأدركنا حقائق بعينها على غاية الأهمية من الوجهة التاريخية عن طبيعة الإنسان. لقد قال أرسطو إن الإنسان إنما هو حيوان سياسي، ولكنه في المعنى العصري الذي لدينا عن كلمة 'السياسة' وهي التي تشمل الآن سياسة العالم بأكملها، ليس بأي حال شيئاً من هذا القبيل. ولا تزال غرائز قبيلة العائلة باقية فيه إلى يومنا هذا، ولديه بعد هذا نزعة تدفعه إلى ربط نفسه وعائلته إلى شيء أكبر منهما، أي إلى قبيلة أو مدينة أو أمة أو دولة. ولكن هذه النزعة لو تركت ونفسها لكانت نزعة مبهمّة جد غير نقادة. ومهما يكن من شيء، فإنه ميل إلى خشية وكرهية كل نقد يوجه لذلك الشيء الأكبر الذي يحيط بحياته والذي سلم نفسه إليه، كما أنه ميل إلى تجنب مثل هذا النقد. ولعل في نفسه خوفاً شبه شعوري من العزلة التي قد تترتب على تحطيم النظام أو هدم ثقة الناس به ذلك أنه الوسط الذي يجد فيه نفسه أمراً مسلماً به. وإنه ليتقبل مدينته أو حكومته مثلاً يتقبل الأنف أو الهضم الذي حباه الحظ به. بيد أن ولاءات الرجال، أعني الجوانب التي ينحازون إليها في الأمور السياسية ليست فطرية، وإنما هي نتائج تربية وتعليم. ولكن التعليم الذي يتلقاه أغلب الناس في تلك الأمور إنما هو التعليم الصامت المستمر الصادر عن الأشياء المحيطة بهم. فإن الناس يجدون أنفسهم جزءاً من إنجلترا المرحّة أو روسيا المقدسة. وهم إنما يشبون على هذه العقائد ويتقبلونها كجزء من طبيعتهم.

الواقع أن العالم شرع يدرك ولكن بغاية البطء، إلى أي حد من العمق يمكن التعليم الالضماني المفهوم بالاستنتاج والذي تجيء به الظروف العابرة، أن يُستكمل أو أن تُعدل أو يصحح بالتعليم الإلجباري والأدب

والجدال، والخبرة المنقودة نقدًا صحيحًا. فحياة الفرد العادي الحقيقية هي حياته اليومية وأعني بها ما لا دائرة الصغيرة لعواطفه ومخاوفه وجوعاته وشهواته واندفاعاته الخائلة. وهو لا يلزم عقله المتكبر أن يؤثر في الشؤون السياسية إلا عندما يُوجّه نظره إليها بوصفها شيئًا له أثره الحيوي في تلك الدائرة الشخصية. ولا تكاد تكون هناك مبالغة في القول بأن الرجل العادي يفكر في الأمور السياسية بأقل قدر مستطاع، وأنه يكف عن التفكير فيها بأسرع ما يستطيع. فالعقول الشديدة التطلع والقدرة الاستثنائية، أو العقول التي استطاعت بفضل المثل المحتذى أو التربية الممتازة بلوغ تلك العادة العلمية ألا وهي الرغبة في معرفة أسد باب الأشياء، أو العقول التي حزت فيها أو صدمتها كارثة قومية عامة حتى استنارتها إلى التخوف من الأخطار المقبلة، هي وحدها التي تأبى قبول حكومات ونظم سخيفة غير معقولة واعتبارها مقبولة لا بأس بها لمجرد أنها لم تؤذ تلك العقول ولم تسبب لها ما يكدرها شخصيًا. وإن الكائن الإنساني العادي لينضوي - حتى يأتي الوقت الذي يستثار فيه على تلك الشاكلة - تحت ظلال أية مناشط جماعية تجري في هذا العالم الذي يجد فيه نفسه؛ كما أنه يتقبل أي تعبير أو رمز يواجه حاجته المبهمة إلى شيء أعظم وأكبر يمكن أن ترسو لديه وتطمئن إليه شؤونه الشخصية ودائرته الفردية.

فإذا نحن وعينا جيدًا هذه التحديدات الواضحة التي تغل طبيعتنا، لم يصبح بعد سرًا خافيًا كيف أنه كما حدث أن فكرة اتخاذ المسيحية أخوة عالمية بين الناس قد هوت في دركات المهانة وضد يافع الثقة بسبب اشتباكها القاتل بدسائس القساوسة ومطامع البابوية من ناحية، وبسلطان الأمراء من ناحية أخرى، ومن ثم انتقل عصر الإيمان إلى عصرنا الزاهن عصر الشك وعدم الإيمان، - فقد حول الناس مدارح حياتهم عن ملكوت الرب وأخوة الجنس البشري إلى هذه الحقائق المائلة بين أيديهم والأكثر في ظاهرها دوامًا وحياة، وهي فرنسا وإنجلترا والروسيا المقدسة وإسبانيا وبروسيا، التي كانت على الأقل تتجسم في شخص بلاطات ناشطة، والتي كانت تحافظ على القوانين وتظهر القوة بواسطة الجيوش والأساطيل، والتي كانت تلوح براياتها في هيئة جد ووقار تعنو لعزتها الجباه كما كانت رافعة رعوسها اعتزازًا بالنفس بهمة نهم من لا يشبع بصورة متسقة تمام الانساق مع الطبيعة الإنسانية.

ولا مراء أن رجالاً من أمثال الكردينال ريشليو والكردينال مازارين كانوا يرون أنفسهم خدامًا لغايات أعظم من غاياتهم هم، ومن غايات ملوكهم، إذ يخدمون فرنسا شبه المقدسة التي تصورها لهم أخيلتهم. كما لا مراء أيضًا أن هذه العادات العقلية انسابت منهم إلى مروضيهم وإلى هيئة الشعب العامة. وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر كانت عامة السكان في أوروبا تستمسك بالدين ولم تكن وطنيتهم إلا شيئًا مبهمًا؛ فما إن حل القرن التاسع عشر حتى أصبحوا وطنيين بكليتهم. فلو حدث في عربية مزدحمة من عربات السكك الحديدية الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية في أخريات القرن التاسع عشر، أن شخصًا سخر من الله لاستثار من العداوة قدرًا أقل كثيرًا مما تستثيره السخرية بأحد من هاته المخلوقات العجيبة: إنجلترا أو فرنسا أو ألمانيا. فإلى هذه الأشياء تعلقت أذهان الناس، تعلقت بها لأنه لم يبد في كل أنحاء العالم أي شيء آخر تقتنع النفوس بأن تتعلق به. ولذا كانت هي آلهة أوروبا الحقبة الحية.

لقد رفعوا الحكومات ووزارات الخارجية إلى مصاف المثل العليا، وحفلوا منها رطازة، هي رطازة^(١) 'الدول' ومحباتها وكرامياتها ونضالاتها. واشتد تشبع خيال أوروبا وآسيا الغربية بها إلى حد أن كانت مصدرًا تستقي منه 'أشكال تفكيرها'. ويكاد كل ما دوّن من التواريخ، وكل الألب السياسي في القرنين الأخيرين في أوروبا، أن تكون مكتوبة بنفس تلك اللغة والروح. على أنه لا بد أن يأتي ذلك الزمان الذي سوف يقرأ فيه جيل أوضح نظرة وأصفى بصيرة ويرى في شيء من الارتباك والحيرة، كيف حدث في المجتمع الأوروبي الغربي، المكون في كل مكان (مع تنوعات طفيفة جدًا) من خليط عنصري مشترك من الشعوب النوردية والأيبيرية وعناصر نازحة سامية ومغولية وهي تتكلم في كل مكان تقريبًا لهجات محورة عن نفس اللسان الأري، ولها ماضٍ مشترك متمثل في الإمبراطورية الرومانية، وأشكال دينية مشتركة، وعادات اجتماعية مشتركة وفن وعلم مشترك، وهي تتراوح فيما بينها بحرية لا يستطيع إنسان معها أن يتكلم في أي تحقيق عن جنسية (أي قومية) أي من أولاد أحفاده، كيف حدث أن كان في الإمكان أن تهيج في الرجل أقصى أنواع الانفعال حول مسألة عظمة فرنسا، ونهضة وتوحيد ألمانيا، ومدعيات روسيا واليونان المتنافستين على امتلاك القسطنطينية. وسوف تبدو هذه المنازعات عند ذلك غريبة لا سبب لها، جنونية لا عقل فيها، شأن ما اندثر قبلها من منازعات لا يفهمها الناس الآن أمثال التي اشتجرت بين 'الخضر والزرق'^(٢) الذين كانوا يملئون شوارع بيزنطة بالضجيج وسفك الدماء.

وهذه الأطياف أعني الدول عظيمًا ما عظم تسلطها اليوم على عقولنا وحيواتنا إنما هي - كما يبين لك هذا الكتاب أوضح بيان - أمور لا ترجع إلى أقدم من القرون الأخيرة القليلة بل هي مجرد ساعة واحدة أو دور عرضي في التاريخ المقصود المتعمد لنوعنا البشري. وهي تسجل دورًا من أدوار الانكاس أو ضد ربًا من الانسلاخ من ركب التقدم، مثلما يسجل نهوض الملكية الميكيفاللية حالة تخلف وقتي عن مسايرة الركب. هي جزء من نفس دوامة العقيدة المضطربة المترددة تعترض سبيل اتجاهها العام وهو اتجاه أشد منها قوة وأبعد ما يكون عنها جملة وتفصيلاً: ألا وهو الاتجاه نحو الاتحاد الخلقى والذهني للبشرية. لقد ارتد الناس حينًا من الدهر إلى أربابهم هؤلاء من قومية وإمبراطورية ولكن هذا لن يدوم إلا إلى حين. فإن فكرة 'الدولة العالمية' ومملكة الصلاح العامة التي يصبح فيها كل كائن حي مواطنًا، كانت موجودة في العالم قبل ذلك بألفين من السنين، ولن تغادر العالم بعد ذلك قط. وإن الناس ليعلمون أنها بين أيديهم وإن أبوا أن يعترفوا بها. وإنك لتحس في كتابات وأحاديث الناس عن الشؤون الدولية اليوم وفي المناقشات الجارية الدائرة الآن بين ظهراني المؤرخين والصحفيين السياسيين، كأنما بين يديك رجال ثملون قد شرعوا يستقيقون، ويداخلهم ذعر شديد من استفاقتهم هذه. فهم لا يفتنون يتكلمون بصوت مرتفع عن 'حبهم' لفرنسا و'كراهيتهم' لألمانيا وعن

(١) الرطازة (Mythology): هي أسطورة أو حكاية تقليدية كثيرًا ما تعبر عن معتقدات وأحلام بدائية لشعب بعينه وعن طريقة تفسيره للظواهر الطبيعية والتاريخية. (المترجم).

(٢) الخضر والزرق: فرقان رياضيتان قديمتان بالقسطنطينية كانتا تعدان حرسًا للمدينة. وكان النزاع بينهما دائمًا لا ينقطع (انظر للمترجم كتاب الحضارة البيزنطية في مجموعة الألف كتاب). (المترجم)

'سيادة بريطانيا التقليدية في البحار"، وهكذا وهكذا... شأن أولئك الذين يغنون مترنمين بكنوسهم بالرغم من تواصل دبيب الاستفاقة إليهم وخوفهم من زوال الخمار ^(١) عنهم. وما تلك التي يخدمون إلا أرباب ميثة. فإن الناس لا يريدون في البحر أو البر دولا تنسم بالرفعة، وإنما يبتغون القانون والخدمة. وإن ذلك التددي الصامت الذي لا مندوحة منه ولا مفر، لموجود في أذهاننا وجود الفجر وهو يبرز في تمهل وأناة، وينفذ ضياؤه خلال مصاريع حجرة مشوشة النظام.

(١) الخمار : كما ورد في المعجم الوسيط: ما خالط الإنسان من سكر الخمر . (المترجم)

٩ - جمهورية بولندة المتوجة ومصيرها

كان القرن السابع عشر في أوروبا قرن لويس الرابع عشر الذي كان هو وعظمة فرنسا وفرنسا قطب الرحى في القصة. وكان القرن الثامن عشر بالمثل قرن نهضة بروسيا كدولة عظمى، والشخصية الرئيسية في قصته هي فردريك الثاني، أي فردريك الأكبر. وتجيء قصة بولندة مشتبكة وتاريخه.

كانت الشؤون في بولندة ذات سمة خاصة. وبولندة بخلاف جيرانها الثلاثة الروسية وبروسيا وملكية آل هابسبرج في النمسا والمجر، لم تطور لنفسها ملكية عظمى. وخير وصف يوصف به نظام حكمها أن يقال إنه كان نظاماً جمهورياً له ملك، أي رئيس ينتخب مدى الحياة. وكان كل ملك ينتخب على حدة. فكانها كانت في واقع الأمر أبلغ في روحها الجمهورية من بريطانيا، ولكن روحها الجمهورية كانت أكثر أرستقراطية في شكلها. وكان لبولندة تجارة طفيفة ومصنوعات قليلة العدد، وكانت قطراً زراعياً ما يزال به مساحات عظيمة للرعي والغابات والأرض البراح؛ فكانت لذلك قطراً فقيراً، وكان أصحاب الأراضي فيها أرسد تقراطيين فقراء. وكانت جمهرة سكانها فلاحين أذلاء جهلة جهلاً وحشياً، وكانت تئوي كذلك جماهير غفيرة من اليهود الشديدي الإدقاق. وقد حافظت على عقيدتها الكاثوليكية. فكانها كانت - إن صح هذا التشبيه - بريطانيا أخرى أرضية كاثوليكية فقيرة، يكتنفها الأعداء من كل جانب مثل ما يكتنف البحر بريطانيا. ولم تكن لها على وجه الإطلاق أية تخوم محدودة، فلا بحر ولا جبل. ومما زاد في مصائبها أن بعض ملوكها المنتخبين كانوا حكاماً أنكباء عدواني النزعة. فكان سلطانها يمتد شرقاً امتداداً ضعيفاً إلى مناطق يسكنها كلها تقريباً الروسون؛ كما يشمل من ناحية الغرب بعض الرعايا الألمان.

ونظراً لأنها لم يكن لها تجارة عظيمة، لم تنشأ لديها مدن عظيمة تقاس إلى مدن أوروبا الغربية، ولا تكونت بها جامعات قوية تضم شتات ذهنها بعضه إلى بعض. وكانت طبقتها النبيلة تعيش على ما تغله لها مزارعها، دون الشيء الكثير من الاختلاط الذهني. كانوا وطنيي النزعة، ولديهم إحساس أرستقراطي بالحرية يتسق تماماً مع الإفقار المنظم الذي يعيش فيه موالى أراضيهم - ولكن وطنيتهم وحريتهم كانتا غير قادرتين على إنتاج التعاون الفعال. كانت بولندة يوم كانت الحروب أمر جمع للرجال والخيل، دولة قوية نسبياً؛ ولكنها لم تستطع بأي حال أن تماشي تطورات الفن العسكري الذي كان يتخذ من قوات دائمة من جنود محترفين، العدة الضرورية في الحروب. ولكنها على ما كانت عليه من الانقسام وقلة الاقتدار، تستطيع أن تكتب في كتاب حسابها بعض انتصارات جديرة بالذكر. فإن الهجوم التركي الأخير على فيينا (١٦٨٣) قد قضى عليه الفرسان البولنديون بقيادة الملك حنا سوبيسكي (الملك دون الثالث). (وكان هذا السويبي سكي نفسه قبل أن ينتخب ملكاً، أجيراً يتقاضى المال من لويس الرابع عشر، وكان قد حارب في صفوف السويبيين ضد وطنه). ولا حاجة بنا إلى القول إن هذه الجمهورية الأرستقراطية الضعيفة، بانتخاباتها المتداركة الدوثة كانت تستدعي العدوان من كل من جيرانها الثلاثة. وكانت "الأموال الأجنبية" وكل نوع من أنواع التدخل تتساب إلى البلاد عند كل انتخاب. وكان كل مواطن بولندي ساخط منهم يفر - شأن الإغريق قديماً - إلى أحد الأعداء الأجانب ويصب جام غضبه على وطنه الناكس للجميل.

ولم تكن للملك البولندي إلا سلطة ضعيفة جدًا حتى بعد أن يتم انتخابه، وذلك بسبب غير رة الذ بلاء البولنديين بعضهم من بعض. إذ هم شأن النبلاء الإنجليز كانوا يفضلون الأجنبي؛ ولأنه - نفس السبب - لم يكن له عماد من قوة أو عزوة يرتكز عليها في البلاد. ولكنهم بخلاف البريطانيين لم تكن لحكومتهم نفس قوة التماسك التي كانت تعيرها للنبلاء البريطانيين الاجتماعات الدورية للبرلمان في لندن، التي كانوا يسمونها: 'الحضور إلى العاصمة'. وكانت لندن ملتقى المجتمعات وما يتلوه من تمازج متواصل بين الأفكار وبين أصحاب النفوذ من الأشخاص. ولم تكن لبولندة مدينة كلندن ولا كان فيها "هيئة اجتماعية". ولذا فالواقع أنه لم تكن لبولندة حكومة مركزية على الإطلاق. وما كان ملك بولندة بمستطيع أن يعلن حربًا أو يعقد صلحًا، ولا أن يجبي ضريبة أو يغير قانونًا دون موافقة مجلس الدايت، (وكان لكل عضو بمفرده في مجلس الدايت الحق في الاعتراض (Veto) على أي مقترح مطروح للبحث). وما كان عليه إلا أن ينهض ويقول 'إنني غير موافق' فيسقط الموضوع. بل إنه كان يستطيع أن يحمل حقه في الاعتراض المطلق (Liberum Veto) إلى مدى أبعد من هذا. إذ يستطيع أن يعترض على اجتماع المجلس، وعند ذلك ينحل الدايت. فكان لبولندة لم تكن إذن مجرد جمهورية أرستقراطية متوجة مثل تلك البريطانية، بل كانت جمهورية أرستقراطية متوجة مشلولة. وكان وجود بولندة في نظر فردريك الأعظم أمرًا مثيرًا بوجه خاص بسبب الطريقة التي كانت بها ذراع لبولندة تمتد إلى بحر البلطيق في دانزج، وتفصل ممتلكاته الموروثة عن أجداده في بروسيا الشرقية عن أراضيه داخل الإمبراطورية. فكان هو من حرض كاترين الثانية قيصرية روسيا وماريا تريزا النمساوية - التي فاز باحترامها بحرمانه إياها من سيليزيا - على القيام بهجوم مشترك على بولندة. واسمحوا الآن لخرايط أربع لبولندة أن تروي لكم القصة.

وبعد هذا الانتهاك الذي أصاب بولندة في (١٧٧٢)، ألم بفؤاها تغيير كبير. إذ الواقع أن بولندة ولدت شعبًا متمسكًا في ليلة انحلالها. إذ حدث فيها تطور إن يكن سريعًا فقد كان إلى ذلك جسيمًا ضخماً في التعليم والأدب والفن. ونشأ المؤرخون والشعراء بغتة، وقذف جانبًا بالدستور العقيم الذي جعل من بولندة دولة كليلية واهنة. وألغى حق الاعتراض المطلق، وجعل التاج وراثيًا من أجل إنقاذ بولندة من المؤامرات الأجنبية التي كانت تصحب كل انتخاب، وأقيم برلمان يحاكي البرلمان البريطاني. على أنه كان هناك مع ذلك محدود للنظام القديم في بولندة، كرهوا تلك التغييرات الضرورية، وطبيعي أن تعين الروس يا وبروس يا هؤلاء المعترضين، إذ كانت لا ترغبان في نهضة بولندية. وجاء التقسيم الثاني، وبعد كفاح وطني عنيف ابتداءً بالمنطقة التي سلختها بروسيا، ووجد في كوزكيوسكو (Kosciusko)، زعيمًا له وبطلًا وطنيًا، حدثت إزالة لبولندة نهائيًا من الخريطة. وبذا انتهى إلى حين من الزمان ذلك التهديد البرلماني للملكية العظمى في أوروبا الشرقية. ولكن وطنية البولنديين اشتدت تضرمها وتلألأ صفاؤهم لهذا الضغط. فإن بولندة ظلت مائة وعشرين سنة تكافح كفاح مخلوق مغمر بالماء، تحت تلك الشبكة السياسية والعسكرية التي كانت تمسك بها وتغل حركتها. ثم نهضت ثانية في (١٩١٨) عند نهاية الحرب العظمى.

١٠ - أول تخاطف على الإمبراطوريات وراء البحار

أدلىنا إليك ببعض البيانات عن ارتفاع فرنسا مدارج الرفعة في أوروبا، وعن الاندلال السريع لذلك النماء الزخو الذي تهيأ للدولة الإسبانية وعن انفصالها عن النمسا، وقيام بروسيا. فأما فرنسا والبرتغال وإسبانيا وبريطانيا وهولندا، فإن تنافسها على الرفعة في أوروبا قد امتد وتعد في كفاح على الممتلكات وراء البحار.

ذلك بأن اكتشاف قارة أمريكا وهي الضخمة القليلة السكان، غير المتطورة والمكيفة تكيفاً رائعاً لإقامة الأوروبيين واستغلالهم، وما رافق ذلك من اكتشافات لمساحات عظيمة من الأرض البكر جذوبي المناطق الاستوائية الحارة في إفريقية التي كانت حتى ذلك الحين تحد من معرفة الأوروبيين، ثم التوصل على التدرج إلى معرفة أقاليم جزيرية فسيحة في البحار الشرقية، لم تمسها حتى ذلك الحين المدنية الغربية، - كانت بأكملها عملية عرض للنهزات أمام أعين الإنسانية لم يسبق لها مثيل في التاريخ أجمع. وكأنما ورثت شعوب أوروبا ميراثاً فاخراً باذخاً. فإن عالمهم تضاعف بغتة أربعة أضعافه. وكان لكل ما يفي بحاجته ويفيض. ولم يكن عليهم إلا أن يتسلموا تلك الأراضي وأن يواصلوا بها عيش الثراء، وعند ذلك يتبدد ما هم عليه من فقر وتراحم تبذل الحلم عند اليقظة. ولكنهم تلقوا ذلك التراث الفاخر تلقى الورثة السيئ التربيعة. إذ لم يكن له لديهم من معنى إلا أنه ظرف جديد تتجلى فيه المنازعات الفظيعة. ولكن أنى لنا ذلك المجتمع البشري الذي يؤثر الخلق والابتكار على المؤامرة؟ وأي شعب في قصتنا بأجمعها تعاون قط مع شعب آخر بينما كان يستطيع بأي ثمن أن يدبر المكاييد لإلحاق الضرر بذلك الشعب الآخر؟ ابتدأت دول أوروبا الأمر "بادة ماء" المدعيات الجنوبية المتهوسة على الأقطار الجديدة. ثم ترمى بهم الأمر إلى منازعات مستفدة للقوقى. فإن إسبانيا صاحبة أول الادعاءات وأشدّها، والتي ظلت رديحاً من الدهر "سيدة" ثلثي أمريكا، لم تفد من ممتلكاتها بطريقة أحسن من أن تنزف دماء نفسها فيها إلى درجة الموت تقريباً.

ولقد ذكرنا كيف أن البابوية في آخر أدوار تمسكها بالسيادة العالمية، قسمت القارة الأمريكية بين إسبانيا والبرتغال بدل أن تحافظ على الواجب المشترك لكل عالم المسيحية بإنشاء حضارة عظيمة مشتركة في الأراضي الجديدة. وطبيعي أن يستثير ذلك عداوة الشعوب المحرومة. ومن ثم فإن رجال البحر الإنجليز لم يعيروا مدعيات الطرفين أي احترام، ونصبوا أنفسهم ضد الإسبان بوجه خاص. وحول السويديون نزعتهم البروتستانتية إلى شيء من هذا القبيل. وما كاد الهولنديون يلقون عن أنفسهم نير أسياهم الإسبان حتى نشروا قلوبهم غرباً ليسخروا من البابا، وينالوا نصيبهم من خيرات العالم الجديد. فأما صاحب الجلالة الكاثوليكية الورعة ملك فرنسا، فإنه لم يتردد إلا قدر ما يتردد أي بروتستانتية. فكانت كل هذه الدول مشغولة تتنافس في دعاواها على أمريكا الشمالية وجزائر الهند الغربية.

ولم تفد المملكة الدانيماركية (وكانت آنذاك تضم النرويج وإيسلندا) ولا السويد شيئاً كثيراً جداً في هذا التخاطف. فضم الدانيمركيون إليهم بعض جزائر الهند الغربية. ولم تصل السويد إلى شيء منها. وكان كل من الدانيمرك والسويد في ذلك الأوان غائصتين في الشؤون الألمانية. فقد ذكرنا أنفاً جوسد تاف أدول أسد

الشمال البروتستانتية، وأشرنا إلى حملاته في ألمانيا وبولندا والروسيا. والحق أن هذه الأقبال الأوروبية الشرقية تمتص الطاقات امتصاصاً عظيماً، وإن هذه القوة التي ربما كانت تكسب السويد قسماً عظيماً من العالم الجديد، قد حصدت لها محصولاً عقيماً من المجد في أوروبا. وسرعان ما سقطت تلك المستقرات الصغيرة التي أنشأها السويديون بأمريكا في أيدي الهولنديين.

وكذلك الهولنديون أيضاً فإنهم وقد شهدوا حيالهم الملكية الفرنسية تحت الكاردينال ريشليو وتحت لويس الرابع عشر، وهي تشق طريقها عبر الأراضي المنخفضة الإسبانية نحو تخومهم، لم تكن لديهم الموارد غير المبددة ولا القوة المجتمعة التي كانت بريطانيا من خلف لجج "بحرها القضي" تستطيع أن تقذف بها في ميادين المغامرات وراء البحار.

وفضلاً عن ذلك فإن الجهود التي بذلها في سبيل الحكم المطلق جيمس الأول، وشارل الأول، وعودة شارل الثاني، كان من أثرها أن دفعت خارج إنجلترا عدداً عظيماً من البروتستانت الأقوياء العقول، الجمهوريين الروح، وهم قوم أشداء ذوو وطنية قوية وأخلاق متينة، أقاموا في أمريكا، وبوجه خاص في منطقة نيويورك، بعيداً عن منال الملك وضرائبه - فيما كانوا يظنون. ولم تكن السفينة 'ماي فلور' إلا واحدة من السفن الأولى في فيض من سفن المهاجرين. وكان من حسن طالع بريطانيا أنه لم تزدت العلم البريطاني، وإن كانوا مخالفين منشقين. فأما الهولنديون فلم يرسوا إلى أمريكا البتة مستقرين على نفس وفرة العدد والرقي، وذلك أولاً لأن حكاهم الإspanيين لم يكونوا يسمحوا لهم، وثانياً لأنهم تملكوا بلادهم هم. ومع أنه حدثت هجرة عظيمة للهوجنوت البروتستانت لما لقوا عذاب الدراجوناد واضطهاد لويس الرابع عشر، فقد كان لهم من هولندا وإنجلترا منتجاً قريب، فانتقلت صناعاتهم ومهاراتهم وجدهم وقناعاتهم إلى ذينك القطرين فكان لهما منهم وبخاصة إنجلترا قوة أي قوة. وأسس القليل منهم المستقرات في كارولينا، على أنه لم تستمر فرنسية. فإنها انتقلت إلى الإspan أولاً ثم انتقلت آخر الأمر إلى الإنجليز.

كذلك خضعت المستقرات الهولندية ومعها السويدية لبريطانيا. فأصبحت نيواهم ستردام بريطانية (١٦٧٤) وتعذر اسمها إلى نيويورك، كما قد يرى القارئ في كتاب واشنطن إرفنج الفكه: 'تاريخ نيويورك' الموجز'. وتتبين حال الأمور بأمريكا في (١٧٥٠) تبيناً واضحاً جداً من خريطة كيفناها عن أخرى في كتاب 'العصور الوسطى والحديثة' لروبنسون^(١). وقد تأسست دائرة النفوذ البريطانية على امتداد الشاطئ الشرقي من سافانا إلى نهر سانت لورنس، فأما نيويورك ولندن وأراضي شمالية مترامية هي أراضي شركة خليج هدسون فقد اكتسبت من الفرنسيين بمعاهدة صلح. واحتل البريطانيون بربادوس في (١٦٥٠)، (وهي تكاد تكون أقدم ممتلكاتهم الأمريكية)، واستحوذوا على جامايكا وجزائر بهاما وهندوراس البريطانية من الإspan. ولكن فرنسا كانت تطارد صيداً خطراً مزعجاً جداً، وهو صيد يبدو على الخريطة أشد خطراً وإزعاجاً منه في الحقيقة. فإنها أنشأت مستقرات حقيقية في كوبيك ومونتريال في الشمال وفي نيويورك ونيو أورليانز في الجنوب، وتقدم مستكشفوها وعملوها جنوباً وشمالاً، يعقدون المعاهدات مع الهنود الأمريكيين بالسهول العظيمة ويقبضون

(١) Robinson: "Medieval & Modern Times".

المدعيات - دون أن يقيموا المدن - عبر القارة بأكملها خلف منطقة البريطانيين. ولكن حقائق الموقف لا تمثل على هذا النحو تمثيلاً كافياً. فإن المستقرات البريطانية قد توطدت بها إلى أقصى حد إقامة طبقة صالحة من الناس؛ وكان عددهم يتجاوز بالفعل المليون. وما كان الفرنسيون في ذلك الزمان يدانون عشر ذلك العدد. أجل كان لهم عدد من أذكىاء الرحالين والمبشرين يعملون ناشطين، على أنهم لم يكن من ورائهم مادة عظيمة من السكان.

وما يزال في الإمكان العثور على كثير من الخرائط القديمة لأمريكا في تلك الفترة، وهي خرائط وضعت خصيصاً لإخافة البريطانيين واستثارتهم حتى يتنبهوا إلى "خطط الفرنسيين" في أمريكا. وقد شبت الحرب في (١٧٢٤). وفي (١٧٥٩) استولت القوات البريطانية وقوات المستعمرات بقيادة الجنرال وولف على كوبيك وأتمت من فتح كندا في السنة التالية. وما وافت (١٧٦٣) حتى كانت كندا قد انتقلت نهائياً إلى أيدي بريطانيا. (على أن الجزء الغربي من إقليم لويزيانا الذي يكاد يكون لا حد له في الجنوب، والمسمى باسم لويس الرابع عشر، ظل خارج الدائرة البريطانية. فأخذته إسبانيا، وفي (١٨٠٠) استردته فرنسا. ثم اشترته آخر الأمر (١٨٠٣) حكومة الولايات المتحدة من فرنسا). وفي هذه الحرب الكندية، حصل المستقرون الأمريكيون على خبرة جسيمة في فن الحروب، وعلى علم بالتنظيم العسكري البريطاني العام عليهم بعظيم النفع بعد ذلك بزمان وجيز.

١١ - بريطانيا تسود الهند

لم يقتصر اصطدام الدولتين الفرنسية والبريطانية على أمريكا وحدها. بل إن أحوال الهند كانت في ذلك الزمان شديدة الجاذبية عظيمة اللذة للمغامرين الأوروبيين. فإن الإمبراطورية المغولية العظيمة، إمبراطورية بابر وأكبر وأورانغزيب، كانت قد سارت في الانحلال شوطاً بعيداً. وما حدث للهند كان موازياً ومماثلاً لما جد لألمانيا. فإن المغولي الأكبر، شأن إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة في ألمانيا، كان ما يزال صاحب السيادة العليا شرعاً، ولكنه كان بعد وفاة أورانغزيب، يتولى سلطة اسمية ليس غير، اللهم إلا في المنطقة المجاورة مباشرة لعاصمته. وقد حدث نهوض عظيم في الهندوكية وفي الروح الوطنية. ففي الجنوب الغربي ثار على الإسلام شعب هندوكي هو الماراتا (Maharattas)، وأعاد البرهمانية ديانة سائدة. ثم بسطوا سلطانهم حيناً من الدهر فوق مثلث الهند الجنوبي بأجمعه. وتقوض حكم الإسلام في راجبوتانا أوصاً وحطت محله البرهمانية، وكان يحكم في بهورتبور وفي جايبور، أمراء راجبوتانيون أقوياء. وكانت في أوده مملكة شيعية عاصمتها كَنُو، وكانت البنغال كذلك مملكة إسلامية منفصلة. ونشأت في بلاد البنجاب القصية في الشمال هيئة دينية شائقة جداً هي السيخ، الذين أعلنوا أن الحكم العام لرب واحد وهاجموا الفيدا الهندوكية ولفق رآن الإسلامي على السواء. وكان السيخ في الأصل طائفة سلم ما لبثوا أن احتذوا حذو الإسلام^(١) وهاولوا - موقعين أنفسهم في أول الأمر في أشد الكوارث - أن يؤسسوا مملكة الرب بحد الحسام. وإلى هـ ذه الهند الهندية المتبللة البالغة الفوضى وإن كانت ناهضة قوية الحيوية، هبط للفور (١٧٣٨) غاز من الشمال، هـ و نادر شاه (١٧٣٦ - ٤٧) حاكم فارس التركماني، الذي انتال بجيوشه عابراً ممر خيبر، موقعاً بكل جيش اعترض طريقه، واستولى على دلهي ونهبها، وحمل منها غنائم هائلة. وخلف شمال الهند محطماً يباباً إلى حد أن عدد غارات النهب الأخرى الناجحة في العشرين سنة التالية لم يقل عن ست غارات في شمال الهند أدت جميعاً من بلاد الأفغان، التي أصبحت دولة مستقلة عند وفاة نادر شاه. وواصل الماراتا محاربة الأفغانيين ردحاً من الزمان على حكم شمال الهند. ثم تحطمت دولة الماراتا وتقسما عدد من الإمارات وهي إذ دور وجواليور وبارودا وغيرها. فكانت الهند في القرن السابع عشر شديدة الشبه بأوروبا في القرن السابع أو الثامن، إذ كانت أرض نهوض بطيء لا يفتأ المغيرون الأجانب ينزلون بها الكوارث.

ذلك شأن الهند التي كان يندفع إليها الفرنسيون والإنجليز إبان القرن الثامن عشر. ذلك أن عددًا متعاقباً من الدول الأوروبية الأخرى ما فتئ يكافح طلباً لمرسى تجاري وسياسي في الهند والشرق منذ السنة التي قام فيها فاسكودا جاما برحلته العظيمة حول رأس الرجاء إلى قاليقوت. وكانت تجارة الهند البحرية قبل ذلك في يد عرب البحر الأحمر، فظفر بها منهم البرتغاليون بعد سلسلة من المعارك البحرية. إذ كانت السفن البرتغالية أكبر حجماً، وكانت تحمل أسلحة أثقل. وظل البرتغاليون زماناً وزمام التجارة الهندية ملك خاص ليمينهم،

(١) سبق أن رددنا على هذه النقطة في المجلد الثالث من المعالم ص ٦٣٢ ط ١ و (ص ٧٨١ - ط ٢) فليرج إليها القارئ في موضعها. (المترجم)

وبزت لشبونة البندقية كسوق للأفاويه الشرقية. ومهما يكن من شيء فإن القرن السابع عشر شهد الهولنديين قابضين على هذا الاحتكار. وكان للهولنديين وهم في أوج قوتهم مستقرات عند رأس الرجاء الصالح، هذا إلى جزيرة موريشيوس، وإلى مؤسستين في فارس، واثنيتي عشرة في الهند، وست في سيلان، وكانوا قد نشروا محطاتهم المحصنة في كل أرجاء جزائر الهند الشرقية. ولكن ما أبدوا من عزم أناني على حرمان التجار من أية جنسية من الاستفادة من تجارة الشرق، ألجأ السويديين والدانمركيين والفرنسيين والإنجليز إلى المنافسة العدائية. فكانت أولى الضربات التي كبلت لاحتكارهم وراء البحار، تلك التي وجهها بليك الأميرال الإنجليزي الجمهوري في المياه الأوربية. وكان كل من الإنجليز والفرنسيين عند مفتتح القرن الثامن عشر في نزاع ومنافسة قوية للهولنديين على التجارة والامتيازات في كل أرجاء الهند. وأنشأ الإنجليز مراكزهم الكبرى في مدراس وبمباي وكلكتا؛ وكانت المستقرات الفرنسية الرئيسية هي بوندشيري وشاندر ناجور.

وفي بادئ الأمر، كانت كل هاته الدول الأوربية تأبى بوصفها مجرد متج رين، وكانت المؤسسات الوحيدة التي يحاولون تشييدها هي المخازن. ولكن حالة البلاد غير المستقرة، والطرق غير الشريفة التي كان يتبعها منافسهم، جعلت تحصينهم أنفسهم وتسليحهم شيئاً طبيعياً، وجعلهم هذا التسليح حلفاء جذابين في أعين الأمراء المتنوعين المتقاتلين الذين كانت تنقسم الهند آنذاك بينهم. وكان مما يتوابعه روح السياسة القومية الأوربية الجديدة. أنه ما يكاد الفرنسيون ينضمون إلى جانب، حتى يجب أن ينحاز الإنجليز إلى الآخر. وكان الزعيم في الجانب الإنجليزي هو روبرت كلايف، المولود في (١٧٢٥) والذي وصل إلى الهند في (١٧٤٣). وكان خصمه الأكبر هو دويليه. ولكن قصة هذا الكفاح الذي استغرق النصف الأول من القرن الثامن عشر أطول وأعقد من أن يتسع لها هذا المكان. ولما وافقت (١٧٦١) نظر الإنجليز وإذا لهم إلى سيادة الكاملة على شبه الجزيرة الهندية. وفازت جنودهم في بلاسي (١٧٥٧) وبوكسر (١٧٦٤) بانتصارات رائعة فاصلة على جيش البنغال وجيش أوده. وكان المغولي الأكبر، صاحب السيادة عليهم اسمياً، قد أصبح في الحقيقة ألعوبتهم الخاضعة. وكانوا يجبون الضرائب في مساحات عظيمة؛ وكانوا يحتمون دفع التعويضات جزاء لأية معارضة حقيقية أو خيالية.

على أن هذه الانتصارات لم تحرزها أيدي قوات ملك إنجلترا مباشرة، بل فازت بها شركة الهند التجارية، التي ما كانت في الأصل حين إنشائها في حكم الملكة إليزابيث، إلا شركة من المغامرين البحريين. واضطروا خطوة فخطوة أن يجمعوا الجنود وأن يسلحوا سفنهم وعند ذلك وجدت هذه الشركة التجارية بما لها من تقاليد الكسب والربح، أنها لا تنجر فحسب في الأفوايه والأصباغ والشاي والجواهر، بل في إيرادات الأمراء وممتلكاتهم وفي مقدرات الهند. جاءت لتشتري وتبيع، ووجدت نفسها تصيب قرصنة هائلة. ولم يكن هناك من إنسان يتحدى تصرفاتها. أعجيب إذن أن قادتها وضباطها وموظفيها، كلا بل كل كتبتهما وجنودهما العاديين، كانوا يعودون إلى إنجلترا محملين بالغنائم؟ إن رجالاً في مثل هذه الظروف وتحت رحمتهم أراضٍ عظيمة غنية، لا يستطيعون أن يميزوا بين ما يجوز أن يفعلوه وما لا يجوز. كانت في أعينهم أرضاً عجيبه ذات شمس عجيبه الضياء. وكان سكانها السمر القاتمون جنساً مختلفاً، يخرج عن مجال عطفهم. وكانت معابدها ومبانيها تبدو كأنها تقيم أركان معايير للسلوك وهمية سخيفة.

وكانت خواطر الإنجليز في بلادهم تضطرب وتتبلبل عندما يعود هؤلاء القادة والموظفون إلى بلادهم م
ويتراشقون بالتهم السوداء ما بين ابتزازات وقساوات. وأصدر البرلمان قراراً بلوم كلايف. ففضى على نفسه
انتحاراً في (١٧٧٤). وفي (١٧٨٨) حوكم وارن هاستنجز وهو مدير عظيم آخر للهند وقضى ببراءته
(١٧٩٢). وكان ذلك الموقف موقفاً غريباً لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم. فإن البرلمان الإنجليزي ألقى
نفسه يحكم فوق شركة لندنية للتجارة، كانت بدورها تتسلط على إمبراطورية أعظم وأكثر سكاناً من كل
ممتلكات التاج البريطاني. وكانت الهند في نظر كتلة الشعب الإنجليزي أرضاً شاسعة خيالية سخيصة لا يك
يستطاع الوصول إليها. لم يذهب إليها إلا فقراء الشبان من المغامرين ليعودوا إلى وطنهم بعد سنوات كثيرة
سادة مسنين أغنياء جداً حادّي الطبع جداً. وكان من العسير على الإنجليز أن يتصوروا ماذا يمكن أن تكون
عليه حياة ملايين السمر الذين لا يحصرهم عدد في ضياء شمس الشرق. وكانت أخيلتهم تأبى عليهم حمل هذه
الصورة. فظلت الهند شيئاً غير حقيقي يشابه في غرابته الروايات الرومانسية ومن ثم كان من المستحيل على
الإنجليز، أن يقيموا أي إشراف ورقابة فعالين، على تصرفات الشركة.

١٢ - تقدم روسيا إلى المحيط الهادي

وعلى حين كانت شبه الجزيرة العظيمة في الجنوب من آسيا تقع على هذا النحو تحت سلطان التجار البحريين الإنجليز، كان يحدث في الشمال رد فعل آخر لأوروبا على آسيا معادل لذلك عظيم. ولقد سبق أن نبأنا القارئ كيف استردت الدول المسيحية في روسيا استقلالها من الرهط (الحشد) الذهبي، وكيف أصدر قيصر روسيا سيلاً على جمهورية نوفجورود؛ وأخبرناك في القسم الخامس من هذا الفصل عن بطرس الأكبر وهو ينضم إلى جماعة الملوك العظام ثم يسوق روسيا في الواقع إلى أوروبا سقاً. ونهوض هذه الدولة الكبرى التي تتوسط العالم القديم والتي لا هي بالشرقية تماماً ولا هي بالغربية تماماً، نهوض ذو أهمية قصوى لمقدراتنا الإنسانية.

كذلك نبأناك في الفصل ذاته عن ظهور شعب مسيحي في السهوب، هم القوزاق الذين كانوا حدًا فاصلاً بين زراعة بولندة وهنغاريا الإقطاعية من ناحية الغرب وبين التتار من ناحية الشرق. وكان القوزاق يمثلون شرق أوروبا المتوحش، وكانوا في كثير من الوجوه لا يختلفون كثيراً عن القسم الغربي المتوحش في الولايات المتحدة إبان منتصف القرن التاسع عشر. فكل من أحق عليه صدر روسيا حتى لم تعد تطيق أن تنويه، من أمثال المجرمين ثم الأبرياء المضطهدين، وموالي الأرض الثائرين، وأعضاء الشيع الدينية، والاصوص، والأفاقيين والقتلة، كانوا يلوذون بملجأ السهوب الجنوبية، ثم يبدعون حياتهم من جديد ويقاثلون من أجل الحياة والحرية ضد كل من البولنديين، والروسيين، والتتار على السواء. ولا مرية في أن لاجئين من التتار في الشرق كانوا ينضمون كذلك ويزيدون في عدد خليط القوزاق. وكان أكبر هذه القبائل المترحلة الجديدة، قوزاق أوكرانيا على نهر الدنيبر وقوزاق الدون على نهر الدون. وضُم هؤلاء القوم على الحدود في بطة إلى الخدمة الإمبراطورية الروسية، على نفس الطريقة التي تم بها تحويل عشائر الأراضي المرتفعة (هايلاند) في اسكتلندة إلى فرق أنشأتها الحكومة البريطانية. فمنحوا أراضي جديدة في آسيا. فأصبحوا سلاحاً ضد دوة المغول المترحلين المضحلة، في التركستان في مبدأ الأمر، ثم عبر سيبيريا حتى نهر العامور.

وانحلال الطاقة المغولية في القرن السابع عشر والثامن عشر أمر يعسر علينا جداً أن نفه سره. فلما ينقصر قرنان أو ثلاثة على أيام جانكيز وتيمورلنك، حتى انحدرت آسيا الوسطى من فترة رفعة عالمية إلى حالة كلال ووهن سياسي مفرط. ولعل تغيرات في المناخ، وأوبئة لم يسجلها التاريخ، وعدوى من طراز يشبه الملاريا، قد قامت بدورها في هذا التأخر الذي ألم بشعوب آسيا الوسطى، والذي ربما لا يكفون إلا تأخرًا موقتاً إذا قيس إلى معيار التاريخ العام. ويظن بعض الثقاة أن انتشار التعاليم البوذية من الصين إلى تلك الأصقاع كان له أيضاً أثر مهدئ لنفسهم. ومهما يكن من شيء، فلم تعد شعوب التتار والترك المغولية عند حلول القرن السادس عشر محافظة على ضغطها نحو الخارج، بل تحولت بهم الحال، فأصبحوا هم الذين يغزون ويقهرون ويدفعون إلى الخلف من كل من روسيا في الغرب والصين في الشرق.

وظل القوزاق ينتشرون نحو الشرق طوال القرن الثالث عشر من روسيا الأوربية ويستقرون حيثما تهيأت لهم الظروف الزراعية. وكانت نطاقات من التحصينات والمحطات تقوم مقام التخوم المتحركة لهذه

المستقرات في الجنوب، حيث كان التركمان لا يبرحون أقوياء ناشطين؛ ومع ذلك فإن روسيا من الجهة الشمالية الشرقية لم تكن لها تخوم حتى وصلت إلى المحيط الهادي نفسه. وكانت الصين في نفس الوقت في دور اتساع. إذ إن الغزاة "المانشو" بثوا في الشؤون الصينية طاقة جديدة، وأدى اهتمامهم بمناطق الشمال إلى توسع شمالي عظيم لحضارة الصين وسلطانها في كل من منشوريا ومنغوليا. وهكذا حدث عند منتصف القرن الثامن عشر أن تلاحم ⁽¹⁾ الروسيون والصينيون في منغوليا. وكانت الصين في تلك الفترة تحكم التركستان الشرقية، والتبت ونيبال، وبورما وأنام.

وكان عصر المانشو في الصين فترة نشاط أدبي جسيم أيضاً، مماثل لعصور نظرائهم في أوروبا. وإن استقل عنها الاستقلال كله، فإن الرواية الصينية والقصة الصينية القصيرة ارتفعتا إلى مستويات عالية في الأسلوب والإمتاع، وحدثت للدرامة الصينية تطورات هامة. وصورت مظاهر أرضية ممتدة كثيرة، واخترعت الطباعة بالألوان، وتعلم الناس الحفر على النحاس من المرسلين اليسوعيين، وارتقى صنع الخزف (البورسلين) الصيني إلى ذروة لا مثيل لها من الرفعة. ولكن السمة الجمالية لهذا الخزف انحطت مع تقدم الزمن بالقرن الثامن عشر بسبب مسارعة الفخرانية إلى تكييف أنفسهم طبقاً لما كانوا يعدونه الذوق الأوربي. وتواصل التصدير طيلة هذا القرن كله إلى السرايات والقصور والدور الريفية التي للذبلاء والأعيان الأوربيين. وقلدت صناعة الخزف الأوربية المنتجات الصينية ونافستها ولكنها لم تفقها قط. وابتدأت أيضاً تجارة الشاي الأوروبية.

سبق أن ذكرنا غزواً يابانياً للصين (أو بالحري لكوريا). ولا تلعب اليابان فيما عدا عدوانها هذا على الصين، أي دور في تاريخنا قبل القرن التاسع عشر فإنها - شأن الصين تحت حكم أسرة منج - قد نصبت نفسها في حزم وعزم ضد تدخل الأجانب في شؤونها. فكانت قطراً يمضي قدماً في ظل حياته الحضارية الخاصة. وهو مختوم ختماً سحرياً ضد كل دخيل. وقد حدثناك عنها بالنزر اليسير حتى الآن لأن كل ما لدينا كان ذلك النزر اليسير. فإن تاريخها الجميل الجذاب الرومانسي الشعري يقف بمعزل عن الدراماة العامة للشؤون الإنسانية. كان سكانها في معظم أمرهم من المغول، بهم مسكة من شعب أبيض شائق جذابة وحي بطراز نوردي بدائي، هو الأينو (Ainu) المشعرون في الجزائر الشمالية. ويلوح أن مدينتها قد استمدت كلها تقريباً من الصين وكوريا؛ وأن فنها تطور خاص للفن الصيني وكتابتها تكييف للكتابة الصينية.

(1) تلاحمت الأشياء: تضامت وتلاصمت بعد أن كانت منفصلة. (المترجم).

١٣- رأي جيبون في العالم في ١٧٨٠

كنا نعالج في هذه الأقسام الاثنا عشر السابقة عصر فرقة وانقسام، وقوميات متفرقة. وسبق أن ش بهنا تلك الفترة في القرنين السابع عشر والثامن عشر بفترة "عطل وخلو" من الدافع الأعلى توقف فيها ما تق دم البشرية نحو وحدة تعم العالم أجمع. وقد حرمت عقول الناس طوال هذه الفترة من كل 'فكرة موحدة جامعة'. فإن قوة دفع الإمبراطورية قد بلغ من إخفاقها أن الإمبراطور لم يعد يزيد عن فرد بين جماعة من الأمم راء المتنافسين، كذلك ذهب حلم "عالم المسيحية" أدراج الرياح. وكانت الدول المتطورة تتدافع بالمناكب في كل أرجاء العالم قاطبة؛ وانقضى حين من الدهر كان يبدو أثناءه أنها سوف تمضي تتدافع بالمناكب إلى ما شاء الله دون أن تلم بالإنسانية أية نازلة عظيمة. وقد وسّعت المكتشفات الجغرافية العظيمة في القرن السادس عشر الموارد الإنسانية إلى درجة أنه بالرغم من انقساماتهم، وبالرغم مما كانت تجره الحروب والسياسات على شعوب أوروبا من الخسارة والضياع، فإن تلك الشعوب استمتعت بظلال رخاء جسيم متزايد. وراحت أوروبا الوسطى تنتعش انتعاشاً مطرداً مما حل بها من جراء حرب الثلاثين سنة.

وإذا نحن ألقينا إلى الخلف نظرة إلى تلك الفترة التي بلغت ذروتها في القرن الثامن عشر، كما قد نستطيع أن نفعل ذلك اليوم، ورأينا أحداثها بالعلاقة إلى القرون التي سبقتها، وإلى الحركات العظيمة في الزمن الحاضر، استطعنا أن ندرك كم كانت أشكالها السياسية موقوتة غير دائمة وعرضية طارئة وكم كانت ضماناتها غير ثابتة. كانت لا جرم عرضية طارئة على صورة لم تسبق لأي عصر آخر، وكانت عصرية تمثل وإبلال بل هي كانت توقفاً سياسياً، وتجميعاً لفكرات البشر وموارد العلم توطئة لمجهود إنساني أرحب. على أن العقل المعاصر لها لم يرددها على هذه الصورة. فإن إخفاق الفكرات الخلاقة العظيمة بشكلها الذي صيغت فيه في القرون الوسطى، غادر الفكر الإنساني حيناً من الدهر محروماً من هداية الفكرات الخلاقة؛ فإن المتعلمين وذوي الخيال الفسيح أنفسهم كانوا يرون العالم بطريقة عارية من كل روعة؛ فلم يعد في نظرهم مكاناً تتفاعل فيه الجهود والمصائر بل مشهداً تلتبس فيه الفصائل الفاترة حسن الجراء. ولم يكن أصحاب العقول المحافظة والقانعة هم وحدهم الذين كانوا يتقيئون - في عالم حافل بالتغيرات السريعة - أكناف هذا الاطمئنان الذي يجزم ببلوغ الشؤون الإنسانية مرحلة الثبات والاستقرار. بل لقد أظهر نفس النزعة أصحاب الفطن القوية الناقدة والثائرة، وذلك لامتناع وجود أي حركات تدعم روح المجتمع وتشد أزره فإنهم أحسوا بأن الحياة السياسية تغيرت ولم تعد على ما كانت عليه من العجلة الفاجعة؛ فإنها أصدت كوميديا مودة. وكان القرن الثامن عشر قرن كوميديا أصبحت في النهاية عابسة جهمة. ولا يكاد يتصور العقل أن ذلك العالم منتصف القرن الثامن عشر كان في طوقه أن ينتج عظماء من أمثال يسوع الناصري ولاجوناما ولا فرنسيس الأسيسي، ولا إناباوس ليولا. فلو استطاع الإنسان أن يتصور وجود جون هس آخر في القرن الثامن عشر، فإن من المستحيل عليه تصور وجود أي إنسان لديه ما يكفي من الحمية لإحراقه.

فإلى يوم بدأت حركات تيقظ الضمير في بريطانيا التي تطورت إلى نهضة المنهاجيين (Methodists) ^(١) لا نكاد نلمح في أوروبا أية بارقة شك تشير إلى أنه لا تزال توجد بين يدي جنسنا واجبات عظيمة لا بد له من إتمامها، ولا أن اضطرابات هائلة كانت على الأبواب، ولا أن أخطارًا لا حصر لها كانت تغشى بالأسفة والظلام طريق الإنسان في الزمان والفضاء، وأن قطعه لذلك الطريق لا بد له من أن يظل حتى النهاية جهدًا عظيمًا ورهيبًا.

عاودنا في هذا التاريخ مرة بعد أخرى الاقتباس عن كتاب "اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها" لجيبون. ونحن الآن على أن نقبس منه لآخر مرة ثم نستودعه الله، ذلك أننا وصلنا إلى العصر الذي كتب فيه ذلك الكتاب. ولد جيبون في ١٧٣٧، وصدر آخر جزء من تاريخه في ١٧٨٧. على أن الفقرة التي نقبب بها كتب فيها يرجح في ١٧٨٠. كان جيبون شابًا رقيق الصحة متوسط الثراء، نال في أوكسفورد تعليمًا جزئيًا متقطعًا، ثم أتم دراساته في جنيف؛ وكان اتجاهه الذهني في جملته فرنسيًا دوليًا أكثر منه بريطانيًا. وكان كبير التأثير بالفنود العقلي للفرنسي العظيم الذي يشتهر باسم فولتير (فرانسوا ماري أرويه دي فولتير، ١٦٩٤ - ١٧٧٨). كان فولتير مؤلفًا هائل الجد والتشهير، فإن سبعين سفرًا له تزين رفوف كاتب هذه السطور، وهناك طبعة أخرى لمؤلفات فولتير ترفع العدد إلى أربعة وتسعين سفرًا، وكان أكثر ما يعالجه شئون التاريخ والشئون العامة، وتراسل مع كاترين العظمى قيصرية روسيا وفردريك الأكبر ملك بروسيا ولويس الخامس عشر ومعظم الرجال البارزين في ذلك الزمان. وكان إحساس جيبون وفولتير بالتاريخ قويًا، وكلاهما قد وضع آراءه في الحياة الإنسانية على أكمل وأوضح وجه؛ وواضح أنهما كليهما كانا يريان أن النظام الذي كان يعيشان فيه وأعني به نظام الملكية، ونظام الطبقات الراقية الناعمة بالفراغ والامتيازات، ونظام الأقدام المحتقرين تقريبًا أصحاب الصناعة والتجارة، ونظام العامة والفقراء والعمال المدوسين بالأقدام والمندزلين منزلة الإهمال، كان يبدو أثبت طريقة للعيش رأها العالم طوال الدهر. فاعتنقا مبادئ الجمهوريين إلى حد ما، وأخذوا يسخران من الادعاءات المقدسة للملكية؛ ولكن الروح الجمهورية التي راقت فولتير كانت الروح الجمهورية المتوجة في بريطانيا أثناء ذلك الزمان، التي كان فيها الملك مجرد رأس الرسمى، وأول الجنتلمانية وأعظمهم.

وكان المثل الأعلى الذي يرفعان لواءه وبناءه هو المثل الأعلى القائل بوجود عالم مؤدب مهذب يكون فيه الرجال - وأعني بهم الرجال ذوي السجايا العالية، إذ ليس لغير هؤلاء وزن - في خجل من أن يكونوا قساة أو غلاظًا أو متحمسين، وتكون فيه مرافق الحياة فسيحة الجنبات رشيقة الحواشي، والخشية من هزؤ الناس أقوى معين للقانون على صيانة السلوك اللائق وضروب التوازن والانسجام في الحياة. وكان فولتير يحمل في صدره استعدادًا للكره المتوقد للظلم، وما تدخلاته في نصرة من يضطهدون أو يساء إليهم من الرجال إلا الأنوار الساطعة في قصة حياته المديدة المعقدة. وإذا كان هذا هو المثل الذي ذهني لدى جيبون

(١) المنهاجيين: هيئات دينية كثيرة نشأت عن الحركة الإنجيلية التي قام بها شارل وجون ويسلي في القرن الثامن عشر. (المترجم)

وفولتير، ولدى العصر الذي كانا يعيشان فيه، فإن من الطبيعي ليهما أن يجدا في وجود الديانة في العالم وبخاصة وجود الديانة المسيحية ظاهرة مربكة محيرة لا يكاد يوجد لها ما يبررها. وكان ذلك الجانب من الحياة يبدو لهما في مجموعه نوعاً من الخبل في الكيان الإنساني. وما ذلك التاريخ العظيم الذي ألفه جيرون إلا مهاجمة للمسيحية في جوهره، بوصفها السبب الفعال للتدهور والسقوط. فكان يمجّد بلوتوقراطية^(١) روما الفجة الغليظة ويتخذ منها مثلاً علياً حاول أن يبينها في عالم مكون من جنلثمانية ممتازين نشأوا على غرار القرن الثامن عشر، كما بين كيف أن سقوطها أمام هجمات البرابرة القادمين من الخارج جاء نتيجة لفسادها الداخلي من جراء المسيحية. وقد حاولنا في كتابنا التاريخي هذا أن نقيم معالم تلك القصة تحت ضياء أصدح وأحسن. وكان فولتير يرى في المسيحية الرسمية "شئنة L'infame"، وشيئاً يحد من حياة الناس، ويتدخل في أفكارهم، ويضطهد المخالفين الذين لا يضررون أحداً. والواقع أنه لم يكن في "فترة العطل والخلو من الدافع الأعلى" هذه إلا أثر ضئيل جداً من النور أو الحياة في أي من مسيحية روما (السلفية) أو كنائس الروس يا الأرثوذكسية الخاضعة وكنائس الأمراء البروتستانت. وكان من العسير على الإنسان في فترة هذا الخلو من الدافع الأعلى التي يثقل الجو فيها وجود كثرة من الأساقفة المداهنين والقساوسة المكره - أن يدرك أي نيران توقدت جمرتها يوماً ما في قلب المسيحية، وأي نيران من الشهوات السياسية والدينية لعلها لا تزال ممكنة التوقد في قلوب الناس.

وأتم جيبون في نهاية سفره الثالث بيانه عن تصدع الإمبراطورية الغربية. ثم تساءل عند ذلك هل تصاب المدنية يوماً ما بانتهاء يماثل ذاك؟ وأدى به ذلك إلى استعراض حال الشؤون المعاصرة له (١٧٨٠) وإلى مقارنتها بحال الأمور أثناء اضمحلال روما الإمبراطورية. وعندي أن من المناسب جداً لخطتنا العامة في هذا الكتاب أن نقف هنا بعض فقرات من تلك الموازنة، فما من شيء يستطيع أن يوضح خيراً منها ما الحال العقلية لدى المفكرين المتحررين في أوروبا إبان بلوغ "فترة العطل والخلو من الدافع الأعلى" في عصر النول الكبرى أوجها من الناحية السياسية. وذلك قبل ظهور أول بوادر تلك القوى العميقة السياسية والاجتماعية، قوى التفكك التي أنتجت في النهاية حالة التساؤل المستوقفة للنظر الموجود في عصرنا هذا.

كتب جيبون عن الانهيار الغربي يقول: "ربما طبقت هذه الثورة الرهيبة تطبيقاً نافعاً ما يعيد بالعظيمة والعبرة المفيدة على عصرنا الحاضر. فإن من واجب الوطني أن يؤثر ويذكر مصلح ومجد وطنه وحده دون أي شيء عداه. على أنه ربما أبيع للفيلسوف أن يوسع وجهه نظره، وأن يعد أوروبا جمهورية واحدة عظيمة، أوشك سكانها المتنوعون أن يصلوا إلى نفس المستوى من التألب والتعذيب. ولسوف يستمر توازن القوى في التآرجح، وسوف يتعاور على رخاء مملكتنا أو الممالك المجاورة لها غير الدهر ما بين تسام وتتل؛ على أن هذه الأحداث الجزئية لا تستطيع بالضرورة أن تسد سهماً يجرح سعادتنا العامة، وأعني بذلك مجموعة الفنون والقوانين وآداب السلوك، التي تميز الأوروبيين ومستعمراتهم عن الجنس البشري تمييزاً له جدواؤه التامة. فإن شعوب الكره الأرضية المتوحشين هم الأعداء المشتركون للجماعة الإنسانية الممدنة، ولعلنا

(١) البلوتوقراطية Plutocracy: حكومة الأغنياء. (المترجم)

نتساءل في تطلع القلق ألا تزال أوروبا مهددة بتكرار تلك النوازل التي سبق أن ألمت بقوى روما ونظمها. وربما وضحت نفس التأملات سقوط تلك الإمبراطورية الجبارة وشرحت الأسباب المحتملة لحالة الطمأنينة الفعلية التي نحن عليها اليوم.

'كان الرومان بمجهلة لمدى الخطر المحيق بهم وعدد أعدائهم. وكانت المناطق وراء الراين والدانوب أي الأقطار الشمالية لأوروبا وآسيا غاصة بقبائل لا يحصيها حصر من الصيادين والرعاة وهم فقراء جشعون جياشون بالثورة والعصيان، متصفون بالجرأة عند اشتباك القتال وهم أشوق ما يكونون إلى أن ينته أب ثم بار الكدح والجد الذي يبذله من يجاورهم من شعوب عاملة. كان العالم المتبربر يضطرم بدافع الحرب السريع الجياش، وكان سلام بلاد الغال أو إيطاليا يتزلزل بما يثور في الصين من ثورات. فراح الهون الذين كانوا يفرون أمام عدو مظفر، يجعلون وجهتهم الغرب، وتزايد السيل وطما بمن كان ينضم إليهم من الأسرى والأحلاف. واتخذت القبائل الهاربة التي خضعت للهون، روح الغزو بدورها؛ وكان طابور البرابرة الذي لا نهاية له يضغط على الإمبراطورية الرومانية بقوة متجمعة متكاثفة. ولئن دُمّر الأولون منهم، لقد كان المكان الشاغر يملؤه على الفور مهاجمون جدد. وليس في المستطاع بعد ذلك أن تجيء من الشمال مثل هاته الهجرات العاتية. فأما السكون الطويل الذي يعزى إلى نقص عدد السكان، فهو النتيجة السعيدة لتقدم الفنون والزراعة. فبدلاً من ألا تقوم بألمانيا إلا بضعة قرى خشنة متناثرة تناثرًا بعيدًا وسط غاباتها ومستنقعاتها، فإن ألمانيا تُصدر اليوم قائمة بألفين وثلاثمائة مدينة مسورة؛ وتأسست على التعاقب ممالك الدانمارك والسويد وبولندا المسيحية. ومد تجار الهانسا ومعهم الفرسان التيوتون مستعمراتهم على امتداد ساحل بحر البلطيق، حتى خليج فنلندا. ومن خليج فنلندا حتى المحيط الشرقي، تتخذ روسيا الآن شكل إمبراطورية قوية ممددة. ويستقدم المحراث والمنوال والكور إلى ضفاف الفولجا والأوربي واللينا؛ وعُلمت أشد قبائل التتار شراسة كيف ترتعد وتطيع.

'وكانت إمبراطورية روما راسخة البنيان بسبب تضامن أعضائها الفريد الكامل. ولكن هذا الاتحاد اشترى بضياح الحرية القومية والروح العسكرية؛ وكانت الولايات الذليلة وهي خلو من الحياة والحركة، تتوقع أن تكون سلامتها على يد الجيوش والحكام المرتزقة الذين كانوا يأترون بأوامر بلاط بعيدة الشقة. وكانت سعادة مائة مليون من الأنفس تتوقف على الجدارة الشخصية لرجل أو رجلين، ربما كانا طفلين ممن أفسد عقولهم طراز تربيته وترفعهم وسلطتهم الاستبدادية. وأوروبا اليوم مقسمة إلى اثنتي عشرة مملكة قوية وإن تكن غير متعادلة، ثلاث منها إمبراطوريات عظمى، هذا إلا عدد من الدول الصغرى، وإن كانت مستقلة. فالفرص أمام مواهب الملوك والوزراء تضاعفت، وذلك على الأقل بقدر تكاثر عدد حكامها. وربما تولى الأحكام في الشمال جوليان آخر (أي فردريك الأكبر) أو سميراميس أخرى (يعني كاترين الكبرى قيصرية روسيا)، على حين يغلب النعاس من جهة أخرى على أركاديس (لويس السادس عشر)، وهو نورديوس (شارل الثالث ملك إسبانيا)، الجالسين على عرش آل بوربون. وقد أوقفت مساوئ الطغيان عند حدها نتيجة لما للخوف والخجل من تأثير متبادل. فاكسبت الجمهوريات النظام والثبات، وانطوت الملكيات على مبادئ الحرية، أو مبادئ القصد والاعتدال على أقل تقدير؛ ودخل إلى أشد الدساتير نقصاً شيء من معنى الشرف

والعدالة بفضل ما ساد الزمان على الجملة من خلق حسن. وفي زمن السلم كانت سيرة تقدم العرفان والصناعة تزداد بتنافس مثل هذا الحجم من المتبارين الناشطين. وفي زمن الحروب تتمرس القوات الأوروبية بنضال معتدل غير حاسم. فلو خرج من صحراء التتار غاز متبربر، فلا بد له من أن يقدم على التوالى فلاحى روسيا الأشداء، فجيوش ألمانيا العديدة، فنبلاء فرنسا الشجعان فرجال بريطانيا الأحرار الجريئى الجنان؛ الذين لعلهم يتحالفون من أجل دفاعهم المشترك. ولو أن البرابرة المظفرين حملوا الاسترقاق والتدمير حتى المحيط الأطلسي، لنقلت عشرة آلاف من السفن بقايا الجماعة الممدنة إلى حيث لا تتألف أيديهم؛ وعند ذلك تنتعش أوروبا مزدهرة في العالم الأمريكي المليء بمستعمراتها ونظمها.

'والبرد والفقر وحياة الخطر والمتاعب تخلع على قوة البرابرة وشجاعته متعة وحصانة. ولقد كانوا في كل عصر كلاً يوقع فادح المتاعب على أهل التأديب والسلام من أمم الصين والهند وفارس، الذين أهملوا وما يزالون يهملون أن يقيموا لأنفسهم عماداً يوازن تلك القوى الطبيعية بالالتجاء إلى موارد الفن العسكري. وكانت الدول الحربية النزعة في الأزمان القديمة أمثال الإغريق ومقدونيا وروما، تنشئ جنساً من الجنود، فتمرن أجسامهم، وتنظم شجاعاتهم وتكثر من عددهم بما تحدث في قواهم من تطورات منظمة، وتحول ما في حوزتها من حديد إلى أسلحة متينة نافعة. ولكن هذا الاستعلاء الحربي ما لبث أن انحط بالتدريج وبشكل غير محسوس بظهور قوانينهم وآداب سلوكهم. وأدت السياسة الضعيفة التي اتجها قسطنطين وخلفاؤه إلى تسليح المرتزقة البرابرة وتدريب شجاعتهم الخشنة على فنون القتال، - فعاد ذلك على الإمبراطورية بالخراب. ولقد غير اختراع البارود كل أصول الفن العسكري؛ والبارود يطوع للإنسان السيادة على أقوى عوامل الطبيعة شكيمة وهما الهواء والنار. ووضعت علوم الرياضيات والكيمياء والميكانيكا والعمارة في خدمة الحرب؛ وأخذ كل خصمين متنازعين يطبقان على بعضهما البعض أحكم طرائق الهجوم والدفاع. وربما لاحظ بعض المؤرخين في شيء من الغضب أن نفقه معدات الحصار قد تكفي لتأسيس مستعمرة مزدهرة والمحافظة عليها. ومع ذلك فليس في استطاعتنا أن نتكدر لأن تخريب مدينة عمل لا بد أن يتكلف ثمناً غالياً وأن تعترضه صعوبة كبيرة، أو أن شعباً مجداً يجب أن تحميه فنونه، التي تبقى بعد فناء وانحلال الفضيلة العسكرية والتي تكون من عوامل ذلك الفناء. فالآن تنهض المدافع والتحصينات حاجزاً منيعاً ما في وجه خيل التتار؛ كما أن أوروبا أمست بآمن من أية غارة مستقبلية يشنها البرابرة؛ إذ إنه يجب عليهم قبل أن يفتحوا ويقهروا أن يتخلوا أولاً عن همجيتهم.

'فإن ساورك الشك في هذه الآراء، أو تبينت خطأها، فما يزال هناك مصدر متواضع للراحة والأمل. فإن مكتشفات الملاحين القدامى والعصريين والتاريخ الداخلي أو التقاليد لأشد الشعوب استتارة، تظهر 'المتوحش الإنساني' عارياً في كل من جسده وعقله، ومجرداً من 'القوانين والفنون والفكرات، بل من اللغة تقريباً'. وعن هذه الأحوال الوضيعة، ولعلها على وجه العموم حالة الإنسان البدائية، ارتفع الإنسان شيئاً فشيئاً إلى السيطرة على الحيوان وإلى تسميد الأرض، وإلى اختراق لجأت المحيط، وإلى قياد أساطيق السماوات. وكان تقدمه في تحسين وتدريب مواهبه العقلية والجسمية نوعاً غير منتظم، بطيئاً بطناً لا نهائياً في البداية، متزايد السرعة بعد ذلك، متضاعفاً درجة فدرجة. وكم تلت عصور الرفعة المضيئة لحظات

انحدار سريع. وأحست أجواء الكرة الأرضية المختلفة تقلبات النور والظلام. على أن خبرة أربعة آلاف سنة، يجب أن توسع آفاق آمالنا، وأن تقلل من مخاوفنا. ولسنا بقادرين أن نبلغ الكمال. على أنه من الممكن أن يفكر المرء وهو على جانب الأمانة أن شعباً واحداً لن ينتكس إلى حالة همجيته الأصلية ما لم يتغير روجه الطبيعية.

'فمنذ اكتشاف الفنون لأول مرة بثت الحروب والتجارة والحماسة الدينية بين متوحشي الأزمان القديمة والعالم الجديد، تلك الهبات التي لا تقدر، بأن طفقت تنشرها نشرًا متعاقبًا على الأجيال؛ وإذن فلا يس في الإمكان أبدًا أن تزول. ولذا فإننا نستطيع أن نوافق على ذلك الاستنتاج السار القائل بأن كل عصر في العالم قد زاد وما يزال يزيد - في الثروة الحقيقية والسعادة والعرفان لدى الجنس البشري وربما ما زاد في فضيلته أيضًا'.

١٤ - الهدنة الدينية تشارف نهايتها

ومن أمتع مظاهر قصة أوروبا هذه في القرن السابع عشر ومستهل الثامن عشر، أشد دور الملكية العظمى والبرلمانية، ما نراه من الاستسلام النسبي في العمال والفلاحين. والظاهر أن نيران العصيانات التي شبت إبان القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر قد خمدت تمامًا. ذلك بأن بعض الدول سويات الخشنة الفجة خفضت من حدة الخلافات الاقتصادية في الفترة السابقة، إذ أحدث اكتشاف أمريكا انتقالاً ما وتغييراً في معيار الأشغال التجارية والصناعة، وأدخل إلى أوروبا قدرًا ضخمًا من المعادن النفيسة فصنعت نقودًا، وزاد في العمل ونوعه. وامتعت أسباب الشقاء إلى حين. ومر حين من الزمن لم تعد فيه الحياة والعمل شيئًا لا يطاق عند جماهير الفقراء. ولكن لم يحل هذا بالطبع دون وجود الكثير من الشقاء والدمر الفردي، أن كان الناس يعيشون وإلى جوارهم على مدى الدهر كله الفقراء، بيد أن هذا الشقاء والتدمير كان موزعًا متناثرًا. فأصبح من ثم مهمة لا تصل إلى الأذان.

وكان لعوام الناس في الفترة السابقة فكرة يتبلورون حولها وهي فكرة الشبوعية المسيحية. وقد وجدوا في أمثال ويكيليف من القساوسة والعلماء المنشقين قيادة مثقفة وإذ إن الحركة الداعية إلى نهضة في المسيحية استنفدت قوتها، وإذ إن العقيدة اللوثرية نكست في زعامتها عن يسوع الناصري إلى الأمراء البروتستانت، فقد نضب معين ذلك التماس والتفاعل الذي تهيأ بين الأذهان الجديدة للطبقة المتعلمة وبين الأذهان الأمية. ومهما تبلغ ضخامة عدد الطبقة المهيضة الجانب، ومهما يبلغ التطرف بشقاوتها، فلن يكون في إمكانها القيام باحتجاج فعال حتى تصل إلى التكتل بواسطة تكوين فكرة عامة تجمع شمل أفرادها. فإن أصحاب الأفكار من متعلمي الرجال والنساء ألزم وأشد ضرورة لأية حركة سياسية شعبية منهم إلى أية عملية سياسية أخرى. فإن الملكية تتعلم الحكم عن طريق الحكم، وإن للأوليكركية - من أي طراز كانت - لتعليمًا تتلقاه من إدارتها للشؤون؛ ولكن ليس لدى الرجل العامي وأعني به الفلاح أو الكادح أي تجربة في الشؤون الكبيرة، فهو لا يستطيع أن يعيش سياسيًا بغير خدمات المتعلمين وإخلاصهم وإرشادهم. فالإصلاح الديني، أي الإصلاح الديني الذي نجح وفق، وأعني به الإصلاح الديني للأمراء، قد قضى بتحطيمه للوسائل والفرص التعليمية على العالم الفقير وطبقة القسوس قضاء كبيرًا وهم الذين جعلوا الإصلاح ممكنًا بإقناعهم الجمهور.

هذا ولم يفت أمراء الأقطار البروتستنتية أن يدركوا منذ البداية أي عداوة تولى على الكنائس الوطنية، ضرورة الاستحواذ على الجامعات أيضًا. وكانت فكرتهم عن التعليم هي فكرة الاستيلاء على أذكى الشبان واستخدامهم في خدمة سادتهم. وكان التعليم يعد عندهم فيما وراء ذلك شيئًا ضارًا. وعلى ذلك لم يبق للفقر إلا وسيلة واحدة للتعليم هي الاستعانة بنصر يأخذ بيده. وبدهي أن جميع الملكيات العظمى كانت تشجع التعليم بطريقة هي بالمهرجانات أشبه، ففيها أقيمت الأكاديميات والجمعيات الملكية، ولكن هذه الأوضاع لم تعد إلا طبقة صغيرة من العلماء الخاضعين، وكانت الكنيسة كذلك تعلمت ألا تثق في المتعلم الفقير. كذلك حدث في الجمهورية العظيمة الأرستقراطية المتوجة في بريطانيا، نفس التناقص في الفرص التعليمية. ويقول هاموند في بيانه عن القرن الثامن عشر: "إن كلا من الجامعين القديمتين، كانت للأغنياء. وهناك فقرة في

ماكولي تصف حالة أكسفورد وما كانت عليه من بذخ وأبهة عند مختتم القرن السابع عشر، 'عندما جلس مديرها الدوق أورموند الوقور في ثيابه الموشاة على عرشه تحت السقف المنقوش في المسرح الشلدونى^(١)، يحيط به مئات من المتخرجين كل في ثياب رتبته، على حين كان يقدم إليه أنبل شبان إنجلترا في دعة ووفار بوصفهم طلابًا لدرجات الشرف العلمية. لقد كانت الجامعة قوة، لا بالمعنى الذي يمكن أن يقال به تلك الكلمة عن جامعة مثل جامعة باريس القديمة، التي كان العلم فيها يستطيع أن يجعل البابوات يرتعدون فرقًا، بل بالمعنى القائل بأن الجامعة كانت جزءًا من الجهاز الأرستقراطي المعترف به. وما كان يصدق عن الجامعات، كان يصدق عن المدارس العامة^(٢). فلم يكن التعليم في إنجلترا مهد مجتمع، بل مهد هيئة من الناس، وليس مهد دولة، بل مهد جنس من الحكام الملاك". وكانت روح التبشير الديني قد فارقت التعليم في كل أرجاء أوروبا. وإلى هذا، بل وأيضًا إلى تحسن الأمور بانتشار الرخاء، ينسب طور الاستسلام هذا الذي ران على الطبقات الدنيا. فإنهم فقدوا عقولهم وألسنتهم، وكان الطعام يقدم إليهم وكفى. وكان المجتمع مع أشبه شيء بحيوان مسلوب الحيوية في أيدي الطبقة الحاكمة.

وفضلاً عن ذلك فقد دخلت تغييرات جسيمة على ما بين الطبقة والطبقة من تناسب. ومن أشق الأمور التي على المؤرخ أن يقفوها في مجتمع ما، تقدير القيمة النسبية للأملك الكلية، التي تملكها في أي وقت أية طبقة خاصة في ذلك المجتمع. فإن هذه الأمور تتقلب تقلبًا سريعًا جدًا. وتدل حروب الفلاحين في أوروبا على دور تركيز نسبي للأملك في أيدي قلة من الناس بينما تشعر جماهير من الناس أنها قد شردت عن أملكها ما شملت حالة من السوء مشتركة. وبذلك تنتهج خطة العمل الجمعي. كان هذا هو الزمان الذي تسمنت فيه أسرة الفوجر^(٣) وأمثالها مراقي الرفعة والرفاهية، وهو زمان مالية دولية. ويبدو أنه قد صدح أحب الاس تيراد الهائل للذهب والفضة والسلع إلى أوروبا من أمريكا، عودة لحالة ثراء أوسع انتشارًا بين الأفراد. وكان الفقراء على حالهم التي هم عليها من الشقاء والتعاسة، ولكن لعله لم يكن هناك فقراء بمثل العدد الأول من سببها، كما أنهم كانوا مقسمين إلى أضرب عديدة من الطوائف التي لا تجمعها أفكار مشتركة. فأما ما في بريطانيا العظمى، فإن الحياة الزراعية التي فككها وزلزل أركانها مصادرات الأملك إلا أن الإصداح الديني، قد استقرت من جديد في نظام زراعة المستأجرين يعيشون من دون ملاك للأراضي عظام. وإلى جوار هذه المزارع الكبيرة، كان ما يزال يوجد أراض كثيرة مشاعة لرعي سائمة القرويين الأفقرين، كما كان هناك أراض كثيرة تزرع قطعًا على أساس الملكية المشتركة للمجتمع. فأما الرجل المتوسط الحال، وحتى النوع الأفقر منه من الرجال المرتبطين بالأرض، فكانوا يعيشون عيشًا مطاقًا مقبولاً في (١٧٠٠). فإن مستوى الحياة وأعني به فكرة ما قد يطاق من العيش، كان مع ذلك في ارتفاع أثناء مستهل عهد الملكية العظمى.

(١) المسرح الشلدونى: نسبة إلى جليبرت شلدون رئيس أساقفة كانتربري في ١٦٦٣ بناه على نفقته بأكسفورد وقد صدق عليه المهندس رن. (المترجم).

(٢) المدارس العامة Public Schools: هي المدارس الثانوية. (المترجم).

(٣) أسرة فوجر Fuggers: أسرة سوابية من التجار كانت تعيش في أوجزبرج وبلغ من ثرائها أن كانت تنفق أحيانًا على حملات ملوك ألمانيا العسكرية. (المترجم).

وبعد انقضاء آن من الزمان، تبدو عملية تركيز الثروة واتجاهها إلى أعلى وكأنما قد استؤنفت. ف إن ملاك الأراضي العظام أخذوا يضعون أيديهم على الأراضي ويطردون الزراع الأحرار الأفقرين زرافات، وتزايدت من جديد نسبة الفقراء ونسبة القوم الذين كانوا يشعرون بأنهم يعيشون حياة من يحل بهم الفقر. وكان أكابر الرجال هم حكام بريطانيا العظمى الذين لا يمتازهم منازع، فنصبوا أنفسهم لإصدار قوانين - هـ ي ق وائين السياجات (The Enclosure Acts) - وهي التي كانت تقضي إلى مصادرة الأراضي غير المرسومة والأراضي المشاع، لمصلحة كبار ملاك الأراضي قبل كل إنسان. وانحدر صغار الرجال إلى مرتبة الأجراء كاسبى الأجور بعرق الجبين في الأراضي التي كانوا يملكون فيها في أحد الأيام حق الفلاحة والرعي.

ولم يصل الفلاح في فرنسا وأوربا عامة إلى مثل هذه الدرجة من الحرمان من ممتلكاته. فلم يكن عدوه هو صاحب الأرض بل الجابي؛ فكان يُدفع إلى أرضه دفعاً بدل أن يدفع إلى خارج أراضيها.

ومع مضي العهد بالقرن الثامن عشر يتضح لنا من أدب ذلك الزمان، أن معالجة شأن 'الفقير' عادت فشلت أذهان الناس ثانية، فإننا نجد كتاباً من متوقدي الأذهان بين الإنجليز من أمثال ديفو (١٦٥٩ - ١٧٣١) وفيلدينج (١٧٠٧ - ١٧٥٤)، يفكرون أعمق التفكير في هذه المسألة. ولكن لم يحدث حتى ذلك الحين انتعاش للفكرات الداعية إلى الشيوعية والمساواة الموجودة في المسيحية البدائية. شأن ما كان يميز أزم مان وكيكليف وهس (Huss). فالبروتستانتية عند تمزيقها للكنيسة العامة، مزقت ربحاً من الزمان فكرة التماسك العام، وحتى لو صح أن الكنيسة العامة في القرون الوسطى فشلت فشلاً تاماً في تحقيق تلك الفكرة، فإنها كانت على كل حال رمزها.

وكان ديفو وفيلدينج رجلين أوتيا خيالاً عملياً أشد نشاطاً من خيال جيبون، فأدركا شيئاً من العمليات الاقتصادية التي كانت قائمة على قدم في زمانهما، وكذلك شأن أوليفر جولد سميث (١٧٢٨ - ١٧٤٠)؛ ف إن قصيدته 'القرية المهجورة' (١٧٧٠) ليست إلا منشوراً في موضوع السياجات متكرراً في زي قصيدة. ولكن ظروف جيبون لم تظهر قط الحقائق الاقتصادية أمام ناظره ظهوراً ناصعاً جداً. فإنه كان يرى العالم في صورة كفاح بين التبرير والمدنية، على أنه لم يدرك شيئاً من ذلك النزاع الآخر الذي كان (جيبون) يطفو فوقه، وهو ذلك الكفاح الصامت غير المدرك، كفاح عامة الناس ضد الرجال القادرين الأقوياء الأثرياء الأنانيين. فلم يدرك تجمع عوامل الضغط التي أوشكت للفقور أن تعصف بكل التوازن القائم بين 'ممالك' الاثنين عشرة القوة غير المتعادلة" أعني بين "إمبراطورياته المحترمة الثلاث" وما حوله من الأسفل والزعانف من أصاغر المستقلين من الأمراء والأدواق الحكام ومن إليهم. وحتى الحروب الأهلية التي ابتدأت في المستعمرات البريطانية بأمريكا، لم توقظه إلى إدراك قرب نشوء ما نسميه اليوم 'بالديمقراطية'.

وقد يظن القارئ مما ظللنا نقوله حتى الساعة عن دفع الملاك العظام للمزارع الصغير والفلاح إلى خارج الأراضي، وعن اختطاف أرض المشاع وتركيز العقار في أيدي طبقة قوية شرهة ذات امتيازات، أن ذلك كان كل ما يحدث في الأراضي الإنجليزية في القرن الثامن عشر - إذ الواقع أننا اقتصرنا على ذكر أسوأ نواحي التغيير. وفي نفس الوقت الذي كان يحدث فيه هذا التغيير في الملكية، كان يحدث تقديماً عظيماً في

الزراعة. وليس هناك إلا القليل من الشك في أن طرائق الفلاحة التي يستخدمها الفلاحون وواضعو اليد على الأرض والمزارعون الصغار، كانت طرقاً عتيقة بالية مضیعة للجهد وغير منتجة نسبياً، وأن الملكيات والمزارع الخاصة الكبرى التي خلقتها قوانين السياجات كانت أكثر إنتاجاً بكثير من الطرق القديمة (يقول حجة من الثقات إنها كانت تنتج عشرين ضعفاً). فلربما كان التغيير أمراً ضرورياً، على أن ما فيه من الشر لم يكن راجعاً إلى حدوثة، بل إلى أنه إنما حدث لكي يزداد الأثرياء ثراءً والفقراء عدداً. أما منافعه فإن المالك الخاص الأكبر قطع الطريق دونها مختصاً بها نفسه. فوَقعت المضرة على المجتمع وإن استفادت هذه الطبقة الفائدة العظمى.

وهنا نبلغ واحدة من أعظم مشكلات حياتنا في الزمن الحاضر، وهي مسألة اندراف ثمارة التقدم ومكاسبه عن طريقها الطبيعي. فقد انقضت مئات من السنين - ظهر فيها بتأثير العلم والبحث بوجهه رئيسي، تحسن متواصل في طرائق إنتاج كل شيء تقريباً تحتاج إليه الإنسانية. فلو أن إحساننا بالجماعة وعلمنا الاجتماعي كانا معادلين للواجبات المفروضة عليهما، فلن يكون هناك أدنى شك في أن هذه الزيادة الكبيرة في الإنتاج، كانت تعود بالنفع على المجتمع بأكمله، وكانت تتيح لكل فرد قدرًا من التعليم ووقت الفراغ والحرية لم تحلم الإنسانية قط بمثله من قبل. ولكن على الرغم من أن مستوى المعيشة العام قد ارتفع، فإن الارتفاع تم بمعيار صغير غير مناسب إذ إن الأغنياء طوروا لأنفسهم حرية وترفاً لم يعهدهما العالم من قبل، كما تزايدت نسبة الأغنياء والخاملين من الناجحين وغير المنتجين في المجتمع؛ على أن هذا يفشل في تعليل النفع الكامل المستفاد. إذ حدث ثمة كثير من المضیعة التي لا فائدة تجنى من ورائها، فإن تجمعات هائلة من المادية والطاقة قد أنفقت في الحرب والاستعداد لها. وكرس شيء كثير من الجهد في سبيل تلك الجهد وود غير المجدية، التي تتفق في المنافسة الفاشلة في الأعمال التجارية. وظلت إمكانيات كثيرة بلا تطوير وتنمية بسبب ما أبداه الملاك ومحتكرو السوق والمضاربون من معارضة لاستغلالها الاقتصادي. ولم تتناول الطبييات التي ظل العلم والتنظيم يقربانها إلى متناول يد الإنسانية - تتاولاً منهاجياً⁽¹⁾ ولم تستعمل إلى أقصى حدودها، ولكن تخاطفتها الأيدي وتجانبتها الأصابع - واستمسك بها المغامرون المقامرون واستخدمت لغايات أنانية تمت إلى الغرور بسبب. وكان القرن الثامن عشر في أوروبا وبوجه أخص في بريطانيا العظمى وبولندية عصر الملكية الخاصة. وكان القدر المعلى فيه "للمسعى الخاص"⁽²⁾ الذي معناه في الممارسة العملية أن لكل فرد الحق في الحصول على كل شيء يستطيعه من أشغال المجتمع. ولسان عدو في الروايات العادية والمسرحيات وما إليها من الأدب الممثل للزمان على أي إحساس بالتزام الأفراد بأي شيء نحو الدولة في شؤون الأعمال. إذ إن كل إنسان منطلق "لتكوين ثروته"، وليس هناك من يدرك أن من الخطأ أن يظل الإنسان طفيلياً على المجتمع غير منتج، وأقل من هذا أن يشعر مالي أو تاجر أو صاحب صناعة، أنه يتداول لقاء خدماته للإنسانية أجراً أكثر مما ينبغي. كان ذلك هو جو الزمان الخلفي. وهؤلاء اللوردة والجنتمانية الذين

(1) منهاجياً Methodically: أي متبعاً للترتيب المنطق في البحث العلمي. (المترجم).

(2) المسعى الخاص أو الجهد الفردي Private Enterprise: جهود الأفراد في التجارة والأعمال الحرة. (المترجم).

كانوا يختطفون أرض الشعب المشاع، يفترضون امتلاك المناجم التي تحت أراضهم، ويحطمون صدغار المزارعين الملاك^(١) والفلاحين حتى يصلوا إلى مرتبة الأجراء المعدمين ولم تكن تخامرهم بعد هذا كله أية فكرة إلا أنهم إنما يعيشون عيشاً جديراً تماماً بكل كرامة واستحقاق.

وكان يساير هذا التغيير في بريطانيا العظمى، أعني هذا الانتقال من فلاحه الرقاع التقليدية والمراعي المشتركة إلى الزراعة الكبيرة الأكثر اعتماداً على العلم - تغييرات عظيمة جداً في صناعة السلع. وكانت بريطانيا العظمى في القرن الثامن عشر زعيمة العالم في تلك التغييرات. فحتى ذلك الدين وعلى مسار التاريخ أجمع منذ بداية المندنيات، كانت المصنوعات والمباني والصناعات في أيدي أرباب الحرف على وجه العموم وفي أيدي صغار المعلمين (الأسطوات) الذين كانوا يشتغلون في بيوتهم الخاصة. وكانت تتنظمهم نقابات، وهم في معظم الأمر سادة أنفسهم وأصحاب أعمالهم. فكانوا يكونون طبقة وسطى جوهريّة مستديمة لها وزنها. وكان بينهم الممولون الذين كانوا يخرجون الأموال وما إليها، ويدزودون غيرهم بالخدمات، ويأخذون السلعة التي تتم، على أنهم لم يكونوا مولين كباراً. فلم يكن هناك أصحاب مصانع أغنياء، بل كان أغنياء العالم قبل ذلك الزمان هم أصحاب الأراضي العظام أو مسلفو النقود أو الممارسون لشئون النقود أو التجار. ولكن حدث في القرن الثامن عشر أن بدأت طريقة جديدة هي تجميع صناعات بعينها رغبة في إنتاج أشياء بمقادير أكبر بطريقة توزيع نظامي للعمل، وشرع صاحب العمل مميّزاً من المعلم (الأسطوي) في أن يكون شخصاً هاماً. زد على ذلك أن الاختراعات الآلية أخذت تنتج الآلات التي تسهل عمل الإنتاج اليدوي وتبسطه، والتي كان في الإمكان دفعها بقوة الماء ثم للفور بقوة البخار. إذ ركب في (١٧٦٥) آلة وات Watt البخارية، وهو تاريخ عظيم الأهمية في تاريخ الحركة الصناعية. وكانت صناعة القطن من أوائل الصناعات التي تحولت إلى الإنتاج في المصانع (وكان ذلك في الأصل بواسطة آلات تدفعها المياه) وتلا ذلك صناعة الصوف. وفي نفس الوقت لجأت صناعة صهر الحديد إلى فحم الكوك المصنوع من الفحم الحجري وكانت حتى ذلك الحين تقتصر على أساليب صغيرة تعتمد على الفحم النباتي. وابتدأت صناعات الفحم والحديد كذلك في الانتشار. وانتقلت صناعة الحديد من أرض ساسكس (Sussex) وسري (Surrey) المليئة بالغايات إلى مناطق الفحم. ولما وافقت (١٨٠٠) كان هذا الانقلاب في الصناعة قد سار شوطاً صالحاً وانتقل بها من الإنتاج الصغير بما يصحبه من أصحاب الأعمال الصغار إلى الإنتاج الكبير في كنف أصحاب أعمال كبار. فنشأت في كل مكان مصانع استعملت الماء بادئ بدء ثم تلت بقوة البخار. كان تغييراً ذا أهمية جوهريّة في الاقتصاد البشري. ومنذ فجر التاريخ كان صاحب المصنع وصاحب الحرفة كما قلنا نوعاً من أهل المدن أبناء الطبقة المتوسطة.

فالآن حلت محل مهارته الآلة وصاحب العمل، فأما هو فإنه أصبح إما صاحب عمل يستخدم إخوانه، ويرقى درجات الغنى إلى حد التساوي بالطبقات الفنية الأخرى، أو ظل صانعاً وانحط سريعاً إلى مستوى

(١) صغار المزارعين الملاك Yeomen: وكانت ملكيتهم مدى حياتهم فقط أو تتوارث بقيود. (المترجم).

العامل الأجير، ويعرف هذا التغير العظيم في الشؤون الإنسانية باسم الانقلاب الصناعي أو الثورة الصناعية. وقد بدأ ذلك الانقلاب في بريطانيا العظمى وظل ينتشر طيلة القرن التاسع عشر إلى العالم أجمع.

ومع تقدم الزمن بالثورة الصناعية، انفتحت هوة عظيمة بين صاحب العمل المستخدم لغيره والعالم لـ المستخدم الأجير ففي الماضي كان كل عامل "منتج" يمني النفس بأن يصبح يوماً ما معلماً (أسطى) مستقلاً. وبلغ الأمر بأصحاب الحرف الأرقاء في بابل وروما أن كانت تصميمهم قوانين كانت تمكنهم من ادخار المال وشراء حريتهم وإقامة عمل مستقل لأنفسهم. أما الآن فقد أصبح المصنع وعدده وآلاته شيئاً ضخماً بماهظ النفقة، بالقياس إلى قدرة الصانع المالية. ولذا صار لزماً على الأغنياء أن يجتمعوا لينشئوا مشروعاً. وكان الائتمان ومعدات المصنع وأعني بهما "رأس المال" لازمين مطلوبين. ولم تعد إقامة الصانع 'عمل' بل أصبحت مستقلة بنفسه مطلقاً طبيعياً لمهرة الصانع. ومن ثم أصبح العامل منذ ذلك الحين عاملاً من مهدد إلى لحد. ونشأت عند ذلك بالإضافة إلى أصحاب الأراضي والتجار والماليين الذين كانوا يمولون الشركات التجارية ويقرضون أموالهم للتجار والدولة، نشأت عند ذلك بالإضافة إلى أصحاب الأراضي والتجار والماليين الذين كانوا يمولون الشركات التجارية ويقرضون أموالهم للتجار والدولة، نشأت عند ذلك هذه الثورة الناتجة من رأس المال الصناعي - وهي ضرب جديد من القوة في الدولة.

وإننا لمحدثوك عما قليل، كيف نهضت تلك البدايات حتى بلغت تمامها. وكان الأثر المباشر للثورة الصناعية فيما حلت به من أقطار، أن أحدثت انتقالاً أليماً وهزة عظيمة بين عوام السكان إلى صامتين غير المتعلمين الذين لا زعيم لهم والذين أصبحوا الآن محرومين من الأملاك حرماناً يتزايد أكثر فأكثر. فأما صغار المزارعين والفلاحين - وقد قضت عليهم قوانين السياجات وأخرجتهم من أراضيهم - فإنهم انتقلوا إلى المناطق الصناعية الجديدة، وهناك انضموا إلى عائلات أصحاب الحرف الذين عضتهم الفاقة وانحطت مكانتهم في المصانع. وظهرت في الوجود مدن كبيرة مكونة من منازل قذرة. وما نخال أن إنساناً لاحظ في يومئذ ما كان يجري في ذلك الزمان. فالفكرة الأساسية لأرباب مذهب "المسعى الخاص" هي أن يلزم كل امرئ شأنه، وأن يحصل على أقصى ربح في استطاعه، وأن يغفل كل ما عدا ذلك من عواقب. ونمت مصانع قبيحة الشكل، بنيت بأرخص ما يمكن من نفقة، لتضم أكبر عدد ممكن من الآلات والعمال. وتجمعت حولها شوارع تحوي منازل العمال، وقد بنيت بأرخص الأسعار، دون أي اعتبار لدون أي انفصال عن الجيران، ودون أي مظهر من مظاهر اللياقة والاحتشام تقريباً، مع تأجيرها للعمال بأقصى إيجار يمكن تحتيمة عليهم. وكانت هذه المراكز الصناعية الجديدة، بلا مدارس ولا كنائس بادئ الأمر.

وكان الجنرلمان الإنجليزي الذي عاش في الهزيع الأخير من القرن الثامن عشر يقرأ السفر الثالث من جيبون ثم يقبل على نفسه بالتهنئة لأنه لم يعد يوجد منذ ذلك الحين أي خوف خطير من الهمج المتبربرين، على حين أنه على قيد بضعة خطوات من باب منزله كانت هذه الهمجية الجديدة تشب وتنمو، كما كان هذا التحول، الذي كان يحيل أبناء وطنه شيئاً حالكاً معتملاً لا رجاء فيه، يسير بأشد قوة وأقصاها.

الفصل الخامس والثلاثون

الجمهوريات الديمقراطية الجديدة بأمريكا وفرنسا

- ١- متاعب نظام الدولة العظمى.
- ٢- المستعمرات الثلاث عشرة قبل عصيانها.
- ٣- الحرب الأهلية تفرض على المستعمرات فرضاً.
- ٤- حرب الاستقلال.
- ٥- دستور الولايات المتحدة.
- ٦- المظاهر البدائية لدستور الولايات المتحدة.
- ٧- الأفكار الثورية في فرنسا.
- ٨- ثورة سنة ١٧٨٩.
- ٩- الجمهورية الفرنسية المتوجة ٨٩ - ٩١.
- ١٠- ثورة اليعاقة.
- ١١- جمهورية اليعاقة ١٧٩٢ - ١٧٩٤.
- ١٢- حكومة الإدارة.
- ١٣- توقف التعمير وفجر الاشتراكية العصرية.

١ - متاعب نظام الدولة العظمى

عندما كان جيبون يهنيئ منذ قرن ونصف من الزمان عالم الأناسي المهذبين المتعلمين بأن عصر الكوارث السياسية والاجتماعية قد ولى، كان يهمل دلالات كثيرة كنا نستطيع بعد أن مرت بنا أحداث التاريخ وحفائقه الواقعة - أن نخبره بأنها تحمل في طياتها النذر بهزات وتقلقات أفدح تقللاً من أي شيء توقعه. ولقد خبرناك كيف أن كفاح أمراء القرنين السادس عشر والسابع عشر من أجل الرفعة والمنافع تطور إلى كفاح أكثر مكرراً ودهاءاً وأشد تعقداً بين وزارات الخارجية، وهي في ثياب تنكزية تتشكل فيها شكل 'الدول العظمى' وتتخذ منها معبودات ومثلاً علياً مع تقدم العهد بالقرن الثامن عشر. وتطور فن الدبلوماسية المعقد العريض الدعاوى. ولم يعد 'الأمير' متأمرًا ميكافلياً يعمل في الخفاء، وأصبح مجرد الرمز المتوج لخطه ميكافليية. فانقضت بروسيا والروسيا والنمسا على بولندة واقتسمتها. وتورطت فرنسا في تدابير عميقة ضد إسبانيا. وخالت بريطانيا 'خطط فرنسا' في أمريكا واستحوذت على كندا. وتفوقت على فرنسا في الهند. عند ذلك حدث أمر جلل، أمر عدته الدبلوماسية الأوروبية مزعجاً جداً. فإن المستعمرات البريطانية في أمريكا رفضت رفضاً باتاً أن يكون لها بعد ذلك أي دور أو نصيب في لعبة 'الدول العظمى' هذه. إذ إنهم دفعوا بأنهم قوم ليس لهم صوت ولا مصلحة كبيرة في هذه الخطط والمنازعات الأوروبية، ورفضوا أن يتحملوا أي نصيب من عبء الضرائب التي تجرها تلك السياسات الخارجية، وكانت الفكرة المتسلطة عليهم هي أن 'الضرائب بلا تمثيل نيابي استبداد وطغيان'.

وغني عن البيان أن هذا العزم على الانفصال لم يتفجر كاملاً سوى الخلق من العقل الأمريكي منذ بداية هذه المتاعب. فقد كان الرجال العاديون في أمريكا في القرن الثامن عشر مثملاً كانوا في إنجلترا في القرن السابع عشر، في رضاء تام بل رغبة أكيدة في الواقع في ترك الشؤون الخارجية في يد الملك ووزرائه. ولكن كانت هناك رغبة تعادل هذه في القوة من جانب الرجال العاديين أنفسهم هي ألا تقرر عليهم الضرائب ولا يتدخل في شئون اتجاهاتهم العادية متدخل. ولكن هاتين الرغبتين متعارضتان. فإن الرجال العاديين لا يستطيعون أن يتصلوا من السياسة العالمية وأن يستمتعوا في نفس الوقت بالحرية الخاصة، ولكن تعلمهم هذه الحقيقة اقتضاهم أجيالاً لا تقع تحت حصر. وعلى ذلك فإن أول ما ظهر من اعتراض في العصيان الأمريكي على حكومة بريطانيا، كان مجرد تنمر من الضرائب، ومن التدخل الذي تبع بالضرورة 'السياسة الخارجية' دون أي تمييز واضح لما كان ينطوي عليه ذلك الاعتراض. ولم يحدث إلا عندما بلغ العصيان ذروته، أن سكان المستعمرات الأمريكية ميزوا حقاً تمييزاً واضحاً أنهم رفضوا وجهة نظر 'الدولة العظمى' في الحياة. وكانت العبارة التي عبرت عن ذلك الرفض هي وصية واشنطنوت 'يتجنب المخالفات المورطة'. ومن ثم فإن المستعمرات البريطانية المتحدة بأمريكا الشمالية ظلت قرناً كاملاً وقد تدبرت واستقلت تحت اسم الولايات المتحدة الأمريكية - بمنأى تامة عن المؤامرات والمنازعات الملطخة بالدماء بين وزارات الخارجية الأوروبية. وسرعان ما استطاعوا بعد (١٨٠١ إلى ١٨٢٣) أن يمدوا مبادئ الانفصالي إلى سائر أجزاء القارة، أو يجعلوا العالم الجديد أجمع 'محظوراً' على من في العالم القديم من أصحاب مؤامرات

التوسع الاستعماري ومدبري خطته. وعندما اضطروا آخر الأمر في ١٩١٧ أن يدخلوا ثانية إلى مجتد^(١) د السياسة العالمية، كان هدفهم من ذلك أن يزجوا في معقدات العلاقات الدولية، بالروح الجديدة والأغراض الجديدة اللواتي مكنهم ترفعهم من تطويرها. على أنهم لم يكونوا مع ذلك أول من ترفع. فمنذ معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) حافظت ولايات سويسرا الاتحادية في معاملتها الجبلية على حقها في الانعزال عن خطط الملوك والإمبراطوريات.

ولكن لما كانت شعوب أمريكا الشمالية مقدمة الآن على القيام بدور في تاريخنا تتزايد أهميته، فإن من الخير أن نقسم لهم من عنايتنا قسماً أوفى قليلاً مما قسمناه لتطورهم حتى الآن. ولقد سبق أن ألقينا نظرة إلى هذه القصة في القسم العاشر من الفصل السابق. وسوف نزيدك من فورنا إيضاحاً - وإن كان ذلك في حدود أبسط المعالم - عن أحوال تلك المستقرات، التي كان عنادها سبباً في تلك المضايقة لملك بريطانيا العظمى ووزرائها في لعبتهم السياسية ضد سائر بني الإنسان.

(١) المجتد (Arena): هو حلبة المباراة والمنازلة عند الرومان. (المترجم).

٢- المستعمرات الثلاث عشرة قبل عصيانها

تبين الخريطة المرافقة امتداد المستعمرات البريطانية في أمريكا في النصف الأول من القرن الثامن عشر. والتظليل الأفتح يمثل المناطق التي سكنت في ١٧٠٠، ويمثل التظليل الأغمق المناطق التي سكنت في ١٧٦٠. وسيرى القارئ أن المستعمرات كانت مجرد حافة من السكان على طول الساحل، تمتد إلى الداخل شيئاً فشيئاً وتعترض سبيلها جبال ألكيجاني والجبال الزرقاء حتى لتعد حاجزاً خطيراً جداً. ومن أقدم هذه المستعمرات مستعمرة فرجينيا، التي يخلد اسمها ذكرى الملكة إليزابيث، ملكة إنجلترا العذراء. وأول حملة لإنشاء مستعمرة بفرجينيا قام بها السيد والتر رالي في ١٥٨٤، ولكن ذلك الزمان لم يكن يتم فيه استقرار مستديم، ومن ثم ترجع بدايات فرجينيا الحقيقية إلى يوم تأسيس الشركة الفرجينية في ١٦٠٦، إبان حكم جيمس الأول (١٦٠٣ - ١٦٢٥). وإن قصة جون سميث ومؤسسي فرجينيا الأوائل وكيف تزوجت الأميرة الهندية بوكاهوناس من أحد رجاله الأمثال لتشكل قطعة أدبية كلاسيكية هي "رحلات جون سميث" (١). ولقي الفرجينيون أول بوادر اليسار في زراعتهم الطباقي. وفي نفس الوقت الذي تأسست فيه الشركة الفرجينية، حصلت شركة بليموث على مرسوم يخول لها الاستقرار في الأراضي الواقعة إلى الشمال من مضيق الجزيرة الطويلة (٢) "لونغ أيلند" التي ادعى الإنجليز ملكيتها. ولكن الناس لم يشعروا بالاستقرار في المناطق الشمالية إلا في (١٦٢٠)، وذلك بموجب مراسيم جديدة. وكان المستعمرون في المنطقة الشمالية (نيوإنجلند) التي أصبحت كونكتيكت ونيوهامشير ورود آيلاند وماساشوستس، رجالاً لهم طابع يخالف طابع الفرجينيين، فإنهم كانوا بروتستانت متدينين مما أبدت الكنيسة الإنجيلية من موادعة، كما كانوا رجالاً ذوي روح جمهورية لا مائل لديهم في مقاومة ملكية جيمس الأول أو شارل الأول العظمى. وكانت سفينتهم الأولى هي زهرة مايو May Flower التي أنشأ ركبها مدينة نيويورك في ١٦٢٠. وكانت أهم المستعمرات الشمالية هي ماساشوستس. وأدت الفوارق في الطوائف الدينية واختلاف الأفكار عن التمسك الديني إلى تفرقة المستعمرات الثلاث البيوريتانية الأخرى عن ماساشوستس. ومما يوضح المعيار الذي كانت تقوم عليه الأمور في تلك الأيام أن ولاية نيوهمبشير بأجمعها قد ادعى تبعيةها له شخص معين اسمه الكابتن جون ماسون، وأنه عرض أن يبيعها للملك (وهو الملك شارل الثاني في ١٦٧١) مقابل استيراده ثلاثمائة طن من النبيذ الفرنسي - معفاة من المكوس الجمركية - وهو عرض رفضه الملك. واشترت ولاية ماساشوستس ولاية مين Maine الحالية من مدعي ملكيتها بمبلغ ألف ومائتين وخمسين جنيهاً.

وفي إبان الحرب الأهلية التي انتهت بقطع رأس الملك شارل الأول، كانت عواطف نيوإنجلند مندبزة إلى جانب البرلمان. وكانت فرجينيا من أنصار فرسان الملك، ولكن كان يفصل بين هاتين المستعمرتين (٣)

(١) John Smith's Travels

(٢) Long Island Sound

(٣) المستعمرات والمستوطنات: تستعمل هنا بمعنى واحد والمؤلف في الإنجليزية يستعمل كلمة Settlement. Colony ولا تتطوian على معنى الاستعمار الحالي. بل على معنى الاستيطان والتعمير. (المترجم).

مائتان وخمسون ميلاً، ولذا لم يحدث بينهما احتكاك خطير. وصحب عودة الملكية في ١٦٦٠ تطور قوى في الاستعمار انبريطاني بأمريكا. إذ كان بشارل الثاني ومن حوله من خلطاء شراة للمال، فضلاً عن أن التاج انبريطاني فقد راعماً كل رغبة في أن يقوم بتجارب أخرى لفرض الضرائب غير الم شروعة في أرض الوطن. غير أن العلاقات غير المحددة بين المستعمرات وبين التاج والحكومة انبريطانية لاح فيها ما ب وادر بعض الأمل في القيام بمغامرة مالية وراء المحيط الأطلسي. فحدث تطور سريع في المزارع الواسعة الرقعة وفي مستعمرات الملاك. وكان اللود بالتيمور أقام قبل ١٦٣٢ مستعمرة لتكون للكاثوليك ملجأ يستمتعون فيه بالحرية الدينية تحت الاسم الجذاب ماري لاند، إلى الشمال وإلى الشرق من فرجينيا. وعندئذ اس تقراب ن الكويكري (الذي أدى والده لشارل الثاني خدمات جليلة) إلى الشمال من فيلادلفيا وأنشأ مستعمرة بن سلفانيا. وقد حدد تخومها الرئيسية مع ماري لاند وفرجينيا، رجلان هما ماسون وديكسون، اللذان قدر لخطهما خط ماسون وديكسون أن يكون بالفعل خط تقسيم هاماً جداً فيما تلا ذلك من شئون الولايات المتحدة. ومن قبل ذلك سقطت كارولينا في أيدي الإنجليز فسكنوها في جهات متعددة. وكانت كارولينا هذه في الأصل مؤسسة فرنسية بروتستانتية غير ناجحة، وكانت تدعى باسمها لا لشارل الثاني (كارلوس) ملك إنجلترا، بل لشارل التاسع الفرنسي. وكان يمتد بين ماري لاند ونيوإنجلند عدد من المستعمرات الصغيرة الهولندية والسويدية، كانت المدينة الرئيسية فيها هي نيواستردام. وقد استولى البريطانيون على هذه المستعمرات من الهولنديين في ١٦٦٤، ثم خسروها مرة ثانية في ١٦٧٣، واستعبدت بالمعاهدة التي أبرم بها الصلح بين هولندا وإنجلترا في ١٦٧٤. وبهذا غدا الساحل كله من مين إلى كارولينا (مملكة بريطانية بطريقة ما أو ب أخرى). وكان الإسبان مستقرين إلى الجنوب؛ وكان مقرهم الأكبر في قلعة سانت أوغسطين في فلوريدا، وفي ١٧٣٣ سكن مدينة سافانا رجل محب للإنسانية هو "أوجلي ثورب" الإنجليزي، وقد مست قلبه الرحمة بالفقراء المسجونين وفاء لدينهم في إنجلترا، ومن ثم أنقذ من السجن عدداً منهم فأصبحوا مؤسسي مستعمرة جديدة، هي جورجيا التي أصبحت حصناً منيعاً يقف في وجه الإسبان. ومن ثم نجد عند منتصف القرن الثامن عشر هذه المستقرات ممتدة بإزاء الساحل الأمريكي وهي: مجموعة نيوإنجلند المكونة من البيوريتانية والبروتستانتية الأحرار، وهي: - مين (التابعة لماساشوسيتس)، ونيوهامشير وكونكتيكت ورود أيلاند وماساشوسيتس؛ والمجموعة المنتزعة من الهولنديين التي كانت انقسمت آنذاك إلى نيويورك (وهو الاسم الجديد لمدينة نيواستردام) ونيوجرسي وديلاوير (وكانت سويدية قبل أن تصبح هولندية، وألحقت في أبكر أنوار تبعيتها انبريطانية ببسنلفانيا) ثم جاءت ماري لاند الكاثوليكية، وفرجينيا الفرنسية، وكارولينا (التي قسمت للوقت إلى شمالية وجنوبية) ثم جورجيا ومنشأة أوجلي ثورب. ثم التجأ إلى جورجيا بعد ذلك عدد من انبروتستانت التيروليين، وهاجرت إلى بنسلفانيا أعداد ضخمة من طبقة صالحة من الزراع الألمان.

تلك هي الأصول المخلطة لمواطني المستعمرات الثلاث عشرة. ولا بد أن قيام أية وحدة وثيقة فيما بينها في يوم من الأيام كان يبدو في عين أي امرئ غير متحيز يراقب الأمور في ١٧٦٠ احتمالاً ضِعْفاً جداً. ومما زاد الأمر سوءاً أن اجتمع إلى الفوارق السابقة فروق أخرى ولدها المناخ. فإلى الشمال من خط ماسون ديكسون كانت الزراعة تمارس على أساس القواعد المتبعة في بريطانيا وأوروبا الوسطى وعلى يد

زراع أحرار من البيض. واكتست المنطقة المسكونة في نيو إنجلند بثوب مشابه للريف الإنجليزي؛ ونشأت في مساحات مترامية من بنسلفانيا حقول ودور ريفية تشبه ما في جنوب ألمانيا. وكانت للظروف المميز في الشمال آثار هامة من الناحية الاجتماعية. إذ كان لزاماً على السادة ورجالهم أن يعملوا يداً ليد بوصفهم سكان غابات خلفية⁽¹⁾ فتمت التسوية بينهم أثناء ذلك. أجل إنهم لم يبدعوا العمل متساوين. فإن قائمة السفينة الماي فالور" تحوي أسماء كثير من الخدم ولكنهم سرعان ما أصبحوا متساوين جميعاً في ظل ظروف المستعمرات؛ فكان هناك - مثلاً - متسع عظيم من الأرض يمكن امتلاكه بوضع اليد عليه، وكان الخادم ينطلق ويأخذ الأرض مثل سيده وهنا اختفى نظام الطبقات الإنجليزي. ونشأت في أكناف هذه المستعمرات مساواة في ملكات كل من الجسم والعقل". وظهر استقلال فردي في الحكم على الأشياء تأخذها حماية الألف لأي تدخل من جانب إنجلترا. ولكن ابتدأت زراعة الطباق إلى الجنوب من خط ماسون وديكسون، وكان المناخ الأدفأ مشجعاً على إنشاء المزارع الضخمة وما بها من مناسر العمال. فحاولوا بادئ الرأي استخدام الأسرى من الهنود الحمر ولكنهم وجدوا بهم ميلاً شديداً إلى سفك الدماء البشرية. وأرسل كرومويل أسرى الحرب الإيرلنديين إلى فرجينيا، وهو أمر كان له أثره البالغ في استرضاء أفئدة المزارعين الملكيين على الجمهورية ومبادئها. وكان المحكوم عليهم يرسلون إلى هناك، واتسعت التجارة في الأطفال المخطوفين الذين كانوا يرسلون خفية إلى أمريكا لكي يصبحوا صبياناً في صناعة⁽²⁾ أو عبيداً أرقاء. ولكن أثبتت الأيام أن أوفق شكل من أشكال مناسر⁽³⁾ العمال إنما هو منسر العبيد الزوج. وقد اجتلبت سفينة هولندية أول فوج من الزوج إلى (جيمس تاون) من مدن فرجينيا في زمن مبكر يرجع إلى ١٦٢٠. ولما وافت ١٧٠٠ كان الأرقاء الزوج منتشرين في كل أرجاء الولايات، بيد أن فرجينيا وماري لاند والكارولينتين كانت مناطق استخدامهم الرئيسية، وعلى حين كانت المجتمعات في الشمال مجتمعات من زراع غير كبيرين الثراء وغير ركيدي الفقر، فإن الجنوب طور طرازاً من المالك الكبير ومجتمعاً أبيض من المشرفين وأرباب الحرف يعيشون على العمال الأرقاء. فكان العمال الأرقاء ضرورة اقتضاها النظام الاجتماعي والاقتصادي الذي نما في الجنوب، وكان وجود الأرقاء في الشمال أمراً لا ضرورة له بل كان من بعض الوجوه أمراً مزعجاً. لذلك وجدت اعتراضات أصحاب الضمان الحية على الاسترقاق في جو الشمال مجالاً أرحب لتطورها وازدهارها. ولا بد لنا من عودة إلى هذه المسألة، مسألة انبعاث الرق من جديد، عندما نأخذ في التأمّل فيه ما نتعّرض له الديمقراطية الأمريكية من دواعي الارتباك. ونحن هنا إنما نلاحظها في بساطة بوصفها عاملاً إضافياً إلى ذلك الخليط المتأثر في المستعمرات البريطانية.

ولكن لئن كان سكان المستعمرات الثلاث عشرة أنواعاً شتى في أصولهم متخالفين في عاداتهم واتجاه عواطفهم، لقد كانت تجمعهم معاً خصومات ثلاث: فكانت لهم مصلحة مشتركة ضد الهنود الحمر. وتقاسموا

(1) الغابات الخلفية: أراضي غابات غير مزروعة تقوم وراء الأرض المزروعة بمنأى من المدن والمستقرات. (المترجم).

(2) وهم الذين يعبر عنهم الآن باسم تلاميذ صناعيين. (المترجم).

(3) مناسر العمال Gang Labour: هي جماعات العمال التي تجمع لأداء عمل ما. (المترجم)

ردحاً من الزمان خوفاً مشتركاً من الفتح والسيادة الفرنسيين. وكانوا في الثالثة - مشتركين بـ أجمعهم في النضال ومدعيات التاج البريطاني والأناية التجارية للأوليكرية الجشة التي كانت تسيطر على البرلم ان البريطاني والشئون البريطانية. فأما الخطر الأول وهو الهنود، فكان شراً مستديماً ولكنه لم يزد قط عن مجرد تهديد ينذر بالشر. إذ إنهم ظلوا منقسمين على أنفسهم. ومع ذلك فلقد ظهرت على يهم في بعض الأحيان احتمالات تبشر بالامتزاج وتوحيد الجهود على معيار كبير. فإن الشعوب الخمسة في عصابة القبائل الإيروكوازية (Iroquois) (راجع خريطة مستعمرات ١٧٦٠) كانت عصابة قبائل هامة جداً. بيد أنه لم تتجح في حمل الفرنسيين على العمل ضد الإنجليز لكي تضمن لنفسها الأمان، ولم ينشأ بين مرتحلة العالم الجديد هؤلاء جانكيز خان هندي أحمر. وكان العدوان الفرنسي تهديداً أخطر، ولم يقد الفرنسيون أبداً بإنشاء مستعمرات في أمريكا على معيار ينافس المستعمرات الإنجليزية. بيد أن حكم ومتهم اتجهت إلى تطوير المستعمرات وإخضاعها بطريقة منظمة مرعبة. كان الإنجليز في أمريكا مستعمرين مستوطنين، وكان الفرنسيون مرتادين ومغامرين، ووكلاء تجاريين ومبشرين وتجاراً وجنوداً. ولكنهم لم يرسوا لبنائهم أساساً متيناً إلا في كندا. إذ إن رجال السياسة الفرنسيين كانوا يكون على الخرائط ويطلقون لأحلامهم العنان. وإنك لو اجد أحلامهم ماثلة في خريطتنا، في سلسلة القلاع المتسلسلة جنوباً، من البحيرات العظيمة، وشمالاً في أعلى المسيسيبي والأوهايو. وكان الكفاح بين فرنسا وبريطانيا كفاحاً شمل العالم أجمع. وقد فصل فيه في الهند وفي ألمانيا وعلى صفحة أعالي البحار^(١). ويصلح باريس (١٧٦٣) أعطى الفرنسيون كندا لإنجلترا، وتركوا لويزيانا لإسبانيا المتقوضة المشلولة اليدين. وكان معنى ذلك تخلي فرنسا تماماً عن أمريكا. وبزوال هذا الخطر الفرنسي أصبح المستعمرون أحراراً لا يعوقهم عائق عن مواجهة عدوهم الثالث المشترك: وهو تاج بلادهم الأصلية وحكومتها.

(١) أعالي البحار : High Seas أجزاء البحار الموجودة في عرض البحر والتي تقع خارج المياه الإقليمية لأي قطر من الأقطار التي عرضها كما ينص القانون الدولي ثلاثة أميال. (المترجم)

٣- الحرب الأهلية تفرض على المستعمرات فرضاً

لاحظنا في الفصل السابق كيف أن الطبقة الحاكمة في بريطانيا العظمى دأبت على وضع يدها على الأراضي والقضاء على حريات العامة طيلة القرن الثامن عشر، وعرفنا كيف تمخض جشعهم وطمعهم عن الثورة الصناعية^(١) الجديدة. كذلك لاحظنا كيف أن البرلمان البريطاني بسبب انحلال أساليب التمثيل النيابي لمجلس العموم، أصبح في كل من مجلسيه الأعلى والأدنى أي اللورد والعموم، مجرد أداة للحكم عن طريق كبار أصحاب الأراضي. وكان كل من كبار الملاك هؤلاء والتاج ذا مصلحة عميقة في أمريكا - الأولى منهم بوصفهم مغامرين يحدون مصالحهم الخاصة، والأخير بوصفه ممثلاً لاستغلال ملوك أسرة اس نيوارد ومضاربهم من ناحية، وبوصفه ممثلاً للحكومة في بحثها عن موارد مالية للقيام بنفقات السياسة الخارجية من ناحية أخرى؛ وطبيعي أن اللورد والتاج لم يكن أحد منهم ينظر إلى التجار والزراعيين والعاملة في أرض المستعمرات نظرة فيها تقدير أكثر من نظرتهم إلى صغار المزارعين وصغار الزراعيين الملاك في أرض الوطن. والواقع أن مصالح الرجل العامي (العادي) في كل من بريطانيا العظمى وإرلندة وأمريكا كانت في صميمها واحدة لا اختلاف بينها. فإن كلا منهم كانت تعتصمه وتستغله نفس الهيئة الحاكمة، ولكن على حين كان العاصر والمعصور في إنجلترا متشابكين تشابكاً وثيقاً في نظام اجتماعي وطيد، فإن التاج والنيابتي الاستغلال في أمريكا كانا بعيدين، وكان في مكنة الرجال هنا أن يتخذوا وأن يطوروا في أنفسهم شعوراً بالجماعة ضد عدوهم المشترك.

هذا إلى أن المستوطن الأمريكي كانت له الميزة الهامة، ميزة امتلاكه لساناً وترجماناً منفصلاً قانونياً لمقاومة الحكومة البريطانية يتمثل في مجلس مستعمرته أو جمعيتها التشريعية، التي كانت ضد رورية لإدارة الشؤون المحلية. ولم يكن للرجل العامي في إنجلترا - وهو الذي تحرمه الجنتلمانية بما تستخدمه من ضروب الحيل والخداع من التمثيل الصحيح في مجلس العموم - أي لسان ناطق عنه ولا أي مركز للعمل والتعبير عن تضرره.

ولسوف يتضح للقارئ إذ يتذكر تنوع المستوطنات أن الوضع هنا كان يهيئ الفرص لسلسلة لا نهاية لها من المنازعات، وضروب العدوان وما يقابل ذلك من التدابير المضادة. وقصة تطوّر الانفعالات بين المستعمرات وبين بريطانيا قصة أشد تعقداً وأدق وأطول من أن تتسع لها خطة هذه 'المعالم'. وقد سبك أن المظالم كانت تقع تحت عناوين ثلاثة رئيسية هي: المحاولات المذبذبة لضمان حصول المغامر البريطاني أو الحكومة البريطانية على أرباح استغلال الأراضي الجديدة؛ والتضييقات المنظمة على التجارة بغية الاحتفاظ بتجارة المستعمرات الخارجية كلها في أيدي بريطانية، بمعنى أن جميع صادرات المستعمرة لم تكن لترسل إلا بطريق بريطانيا ولم يكن يستعمل في أمريكا سوى السلع البريطانية. وأخيراً تجيء محاولة فرض الضرائب بواسطة البرلمان البريطاني بوصفه السلطة العليا الفارقة للضرائب في الإمبراطورية. واضطر

(١) تسمى تلك النهضة الصناعية باسم الثورة الصناعية أو الانقلاب الصناعي. (المترجم)

المستوطنون الأمريكيون تحت ضغط هذا النظام الثلاثي من المضايقات، أن يقوموا بقدر جسيم من التفكير السياسي العميق. وشرع رجال من أمثال باتريك هنري وجيمس أوتس (Otis) في مناقشة الأفكار الأساسية التي تقوم عليها الحكومات والترابط السياسي على نحو شديد الشبه بمناقشتها في إنجلترا في الأيام العظام أيام دولة كرومويل الجمهورية. وأخذوا ينكرون كلا من الأصل المقدس للملكية والسياسة العليا للبرلمان البريطاني، وكان أن قال جيمس أوتس في ١٧٦٢ أشياء من أمثال التالي:

- "خلق الله الناس جميعاً متساوين متساوياً طبيعياً.
- والفكرات القائلة باستعلاء الإنسان على أخيه الإنسان فكرات تلقينية غير فطرية
- وقد خلق الملوك لخير الناس ولم تخلق الناس لهم
- وليس لأية حكومة أن تتخذ من رعاياها عبيداً
- ومع أن معظم الحكومات تعسفية في واقع الأمر
- وهي بناءً على ذلك لعنة وفضيحة للطبيعة الإنسانية.
- فما من واحدة منها تكون تعسفية قانوناً وشرعاً".
- وبعض هذه الأقوال تضرب في الموضوع بسهم بعيد المرمى.

وقد بدأ هذا التخمير في أفكار الأمريكيين السياسية بفضل خميرة بريطانية. فإن هناك كاتباً إنجليزياً عظيم التأثير هو جون لوك (١٦٤٢ - ١٧٠٤)، الذي يمكن أن يعد كتابه "مقالتان عن الحكومة المدنية" نقطة الارتحال الأساسية للفكرات الديمقراطية العصرية. كان أبوه جندياً من أتباع كرومويل، كلية وقد تعلم في 'كرايست تشرتش Christ Church' بأكسفورد إبان عظمة الجمهورية، وقضى بضع سنين مبعداً في هولندا، وتكون كتاباته جسراً يصل بين التفكير السياسي الجريء في تلك الأيام الجمهورية القديمة وبين الحركة الثورية في كل من أمريكا وفرنسا.

على أن الرجال لا يشرعون في العمل والتصرف على أساس النظريات. وإنما يحدو الناس إلى 'العمل' على الدوام شعورهم بوجود خطر ما حقيقي أو ضرورة ما عملية. ولن تستقيم للنظريات الأمور وتستقر في نصابها إلا بعد أن يكون العمل والتصرف قد صرح العلاقات القديمة كلها وأنتج أموراً جديدة محيرة. وعند ذلك توضع هذه النظرية في بوتقة الاختبار. فالخلاف على المصالح والفكرات، المستجرب بين المستوطنين تحول إلى قتال لما أبداه البرلمان البريطاني بعد صلح ١٧٦٣ من عنيد التصميم على فرض الضرائب على المستعمرات الأمريكية. وكانت بريطانيا ترفل في بحبوة السلم وتنهل عليها الرفاهية من كل جانب، فأحست أن أمامها فرصة بديعة لتصفية الحساب مع هؤلاء المستوطنين العصاة. ولكن كبار أصحاب الأملاك البريطانيين وجدوا إلى جوار قوتهم قوة تشاطرهم آراءهم نفسها، وإن اختلفت عنهم قليلاً في غاياتها - وهي قوة التاج المنتعش. ذلك بأن جورج الثالث الذي بدأ حكمه في ١٧٦٠، أصر على أن يكون في سلطانه ملكاً أكثر من سلفيه الألمانين. وكان يستطيع التكلم بالإنجليزية، وكان يدعي أنه 'مباهب' بأن يلقب

بريطونيا^(١)، وعندي أنه اسم لا بأس بأن يطلق على رجل لا تجري في عروقه قطرة واحدة معروفة من الدم الإنجليزي ولا الويلزي ولا الاسكتلندي!!! وكان يخيل إليه أن المستعمرات الأمريكية والممتلكات وراء البحار عامة بما لها من مراسيم غير محددة - (بل عساها بلا مراسيم مطلقاً) - أماكن قد يستطيع التاج فيها أن يدعي السلطان وأن يحصل على الموارد المالية والسلطات التي تنكرها عليه إنكاراً باتاً الأرسطراطية القوية الغيور على سلطانها في بريطانيا. فدفع هذا كثيراً من نبلاء الهويج (Whigs)^(٢) أن يعطفوا على المستوطنين عطفاً لم يكونوا ليظهروه لولا هذا الطرف. ذلك أنه لم يكن لديهم أي اعتراض على استغلال المستعمرات لصالح صاحب "المسعى الخاص"^(٣) البريطاني ولكن كانت لديهم اعتراضات قوية جداً على تقوي التاج بذلك الاستغلال تقوياً يجعله على الفور مستقلاً مستغنياً عنهم.

من أجل ذلك لم تكن الحرب التي نشبت حرباً بين بريطانيا والمستوطنين بل بين الحكومة البريطانية والمستوطنين، انحاز فيها قسم من نبلاء حزب الأحرار (الهويج) وقدر جسيم من الشعور العام في إنجلترا إلى صف هؤلاء المستوطنين. وهناك حركة مبكرة بعد (١٧٦٣) كانت ترمي إلى محاولة جمع الإيرادات لبريطانيا في المستعمرات بتحتميم دمج الصحف وأنواع مختلفة من الوثائق. ولقيت هذه المحاولة مقاومة عنيدة، وداخلت الرهبة قلب التاج البريطاني، فألغيت قوانين الدمغة (١٧٦٦). وقوبل إلغاؤها بمظاهرات رح صحبها شيء من الشغب في لندن؛ وتجلّى فيها من السرور القلبي ما لم يتجلّى في المستعمرات نفسها.

ولكن موضوع قانون الدمغة لم يكن إلا دوامة واحدة في سيل مضطرب يتدافع هاوياً نحو حرب أهلية. فكان ممثلو الحكومة البريطانية مستترين وراء عشرات من الحجج في أعلى الساحل وأسفله دائبين على تحقيق سلطاتهم وإبرازهم وجعل الحكومة البريطانية كلاً فادحاً لا يطاق. وكان إنزال الجذود في ضيافة المستوطنين كرهاً، من أفدح الأمور وطأة عليهم. وكانت رود أيلاند ناشطة بوجه خاص في تحديدها لقيود التجارة. فإن سكان رود أيلاند كانوا متجرين أحراراً - أي مهربين، وقد حدث أن سفينته حكومية تسمى جاسبي (Gaspee) شحطت على أرض بروفيانس؛ فباغتتها واعتلى ظهرها واستولى عليها رجال مسلحون في زوارق، ثم ما لبثوا أن أحرقوها. وفي (١٧٧٣) منح البرلمان البريطاني شركة الهند الشرقية ميزات خاصة في استيراد الشاي إلى أمريكا في استهانة تامة بنظام تجارة الشاي في المستعمرات. وصمم المستوطنون بعزم على رفض هذا الشاي ومقاطعته. ولما أن أظهر مستوردو الشاي في بوسطن إصداراً على إنزال بضائعهم إلى الشاطئ، صعد إلى سفن الشاي الثلاث عصابة من الرجال متتكرين في زي الهندود الحمر، وألقوا بالشاي في البحر على ملأ من جمهور عظيم من الناس (١٦ ديسمبر ١٧٧٣).

(١) بریطوني Briton: أي من سكان بريطانيا القدامى. (المترجم)

(٢) الهويج Whigs: حزب ظهر في القرن التاسع عشر ممثلاً لتجار الطبقة الوسطى مناهضاً لأصحاب الأملاك من حزب التوري (المحافظين أخيراً) تسمى فيما بعد باسم حزب الأحرار. (المترجم).

(٣) المسعى الخاص Private enterprise: الجهود أو المشروعات الخاصة التي يقوم بها فرد أو أفراد أو شركات. (المترجم).

وشغل الطرفان طيلة ١٧٧٤ بجمع الموارد والأموال استعدادًا للمعركة المقبلة. وقد قرر البرلمان البريطاني في ربيع (١٧٧٤) معاقبة بوسطن بإغلاق مينائها، واتجهت النية إلى القضاء على تجارتها ما لم تقبل ذلك الشاي. وكان ذلك مثالاً نموذجياً كاملاً لذلك "الحزم" الأحمق الذي يمزق الإمبراطوريات بدذا. ولكي يتم تنفيذ هذا التدبير بالقوة، احتشدت الجيوش البريطانية في بوسطن تحت قيادة الجنرال جاج (Gage) واتخذ المستوطنون تدابير مضادة لتلك. واتخذ أول (كونجرس) للمستوطنين بمدينة فيلادلفيا في سبتمبر، مثلت فيه اثنتا عشرة مستعمرة هي: ماساشوستس، وكونكتيكت، ونيوهمبشير، ورود آيلاند، ونيويورك، ونيوجرسي وبنسلفانيا، وماري لاند، وديلاوير، وفرجينيا، وكارولينا الشمالية والجنوبية، ولم تكن جورجيا حاضرة. وأصدر الكونجرس تمثيلاً مع خير التقاليد الإنجليزية وثيقة أبان فيها موقفه بأن أشهر "إعلان حقوق". والواقع أن هذا الكونجرس كان حكومة تمرد وعصيان، ولكن لم تضرب ضربة واحدة حتى ربيع (١٧٧٥). يوم جاء أول سفك للدماء.

فإن اثنين من الزعماء الأمريكيين هما هانكوك وصمويل آدامز، قد اتجهت نية الحكومة البريطانية إلى اعتقالهما، ومحاكمتهما بتهمة الخيانة، وكان معروفًا أنهما في لكسينجتون، على مبعده أحد عشر ميلاً تقريباً من بوسطن، وفي ليل ٨ إبريل ١٧٧٥ أصدر جاج أوامره بزحف قواته لاعتقالهما.

وكانت تلك الليلة من ليالي التاريخ العظيمة. فإن المستوطنين تنبهوا إلى حركة جيوش جاج، فرفعوا مصابيح الإشارة فوق برج كنيسة في بوسطن وأنسل رجالان هما داووز وبول ريفير في قارب عبر الخليج الخلفي حتى يستطيعا أن يحصلوا على جوادين لكي يُحذرا المنطقة الريفية. كذلك نُقل البريطانيون بالمعدية عبر الخليج؛ وفيما هم يزحفون تحت جناح الليل إلى لكسينجتون عند الفجر، شاهدوا مجموعة صغيرة من الرجال مصطفين في تشكيلة عسكرية. والظاهر أن البريطانيين كانوا البادئين بإطلاق النار. فانطلقت طلقة واحدة ثم سيل من الطلقات، وتراجعت التلة الصغيرة دون أن تجيب - فيما يظهر - على الطلقات تاركة في ظاهر القرية ثمانية من القتلى وتسعة من الجرحى.

وعند ذلك سار البريطانيون إلى قرية كونكورد، وهي وراء ذلك بعشرة أميال، فاحتلوا القرية وأوقفوا تلة من الجنود على الكوبري القائم في ذلك الموضع. وفشلت الحملة في هدفها وهو اعتقال هانكوك وآدامز، ويلوح أن القائد البريطاني تحير ماذا يفعل بعد ذلك. وفي نفس الوقت كان جند المستوطنين يتقاطرون من كل حذب وصوب وسرعان ما وجد الحرس المرابطون على الكوبري أنفسهم غرضاً لنيران متزايدة انتهت بهجوم. وتقرر التقهقر إلى بوسطن. ولكنه كان تقهقراً مدمراً. فقد هبت المنطقة كلها من خلفهم، وأخذ المستوطنون في التجمع طول الصباح. وعندئذ أصبح جانب الطريق مزدحمين برماة حذاق يطلقون النار من وراء الصخور والسيجات والمباني، وكثيراً ما حدث أنهم هجموا حتى غدوا على مسافة دانية بلغت مرمى السونكي. وكان الجنود في ثياب قرمزية وضاحة، ذات واجهات صفراء وتزلك وأربطة رقبة بيضاء، ولا بد أن هذه الألوان كانت تبدو وضاحة ساطعة بالقياس إلى الألوان الحادة في أخريات ربيع نيويورك، كان ذلك اليوم مشرق الضياء حاراً مترباً، وكان الرجال قد غلبهم الإعياء من جراء سُرهم طول الليل. وفي كل بضعة

ياردات يقع منهم رجل إما جريحاً أو قتيلاً. على حين يسير الباقيون ثقلاً أو يقفون ليطلقوا وابلاً من نار على غير جدوى. وكانت هناك في لكسينجتون أمداد بريطانية ومدفعان، وبعد استراحة وجيزة تواصل التقهقر في نظام أحسن. ولكن التعقب استمر حتى النهر، وبعد أن عبره البريطانيون قافلين إلى بوسطن، اتخذ جنود المستوطنين مراكزهم في كامبريدج وأعدوا أهبتهم لحصار المدينة.

٤- حرب الاستقلال

بذا ابتدأت الحرب، ولم تكن حرباً تبشر بنهاية حاسمة. فلم تكن للمستوطنين عاصمة واحدة يخشون عليها عطياً؛ بل كانوا منتشرين فوق ريف عظيم من خلفه بركة لا آخر لها، ولذا كانت لهم قوة مقاومة عظيمة. وكانوا في غالب أمرهم تعلموا فن الحرب عند الهنود. فكانوا يستطيعون أن يجيدوا القتال في نظام مكشوف وأن يشتتوا الجنود ويمزقوهم بحركاتهم. ولكن لم يكن لديهم جيش منظم يستطيع أن يلقي البريطانيين في معركة عظيمة، ولم يكن لديهم إلا القليل من العتاد الحربي؛ هذا إلى أن مجنديهم كاد يُلَم بهم نفاذ الصبر إذا طال بالحملة الأمد، وينزعون إلى العودة إلى مزارعهم. وكان لدى الإنجليز من الناحية الأخذ بـ جيش حسن التدريب، كما أعارتهم سيادتهم على البحر قدرة على نقل هجومهم شمالاً وجنوباً في ذلك الساحل الأطلسي الطويل. وكانوا في سلام مع العالم أجمع. ولكن الملك كان غيباً شراً في تدخله في إدارة الأمور، وكان القواد الذين يؤثرهم بعطفه إما رجالاً أغبياء "أقويا الشكيمة" أو طائشين من أبناء البيوتات والطبقة العالية. ولم يكن فؤاد إنجلترا محبداً لهذا الأمر. لذلك تركز جل اعتماد التاج على قدرته على توقيع الحصار البحري على المستوطنين والإغارة عليهم ومضايقتهم حتى يخضعوا، أكثر منه على الفتح والاحتلال النهائي للبلاد. ولكن الوسائل التي استعملت وبوجه خاص استخدام الجنود الألمانية المأجورة التي كانت لا تزال تحتفظ بتقاليد القادة المأثورة عن حرب الثلاثين، والجنود المساعدة الهندية الذين شتتوا مع كان المستوطنات المنعزلة - لم تضجر الأمريكيين من الحرب قدر ما أضجرتهم من البريطانيين. فأما الكونجرس فإنه اجتمع لثاني مرة في ١٧٧٥، وأقر التصرفات التي أتاها مستوطنو نيويورك، وعين جورج واشنطن قائداً عاماً للجيش الأمريكي. وفي ١٧٧٧ بينما الجنرال برجون يحاول أن يتحدر من كندا زاحفاً على نيويورك، إذ انهزم عند 'مزرعة فريمان' عند أعلى نهر الهدسون الأعلى، وأحيط به واضطر إلى التسليم في ساراتوجا ومعه جيشه كله. وشجعت هذه الكارثة الفرنسيين والإسبان على الدخول إلى الحلبة في صف المستوطنين. وقام الأسطول الفرنسي بالشيء الكثير في سبيل تقليل ميزة البريطانيين في البحار. وحصر الجنرال كونواليس في شبه جزيرة يوركتون بفرجينيا في ١٧٨١، فسلم بجيشه. وكانت موارد الحكومة البريطانية عند ذلك قد استنزفت، إذ كانت ترزح تحت عبء ثقل من الكفاح مع فرنسا وإسبانيا في أوروبا.

ويلوح أن المستوطنين عامة كانوا في البداية من قلة الميل إلى نبذ الملكية والمطالبة بالامتلاك التام بحيث ماثلوا حالة الهولنديين أثناء الدور الأول من اضطهادات فيليب الثاني وحمقاته. وأطلق اسم الم رايديكاليين على دعاة الانفصال^(١)؛ وكانوا قوماً يغلب عليهم التطرف في الديمقراطية، كما قد نزل في إنجلترا في أيامنا هذه، وأدخلت آراؤهم التقدمية شيئاً من الخوف إلى قلوب كثير من المستوطنين الأكثر رزانة وثراء، الذين كان لامتيازات الطبقات ومكانتها سحر عظيم في أعينهم. ولكن إنجليزياً مقتدرًا قوي

(١) الراديكاليون: كانت كلمة الراديكاليين تطلق في إنجلترا في ذلك الزمان على أنصار الديمقراطية والإصلاح البرلماني (المترجم)

الحجة هوثوماس بين Paine نشر في زمن مبكر من (١٧٧٦) بحثًا بفيلاذلفيا تحت عنوان 'حسن التصرف'، كان لها أثر هائل في الرأي العام. كان أسلوبها أسلوبًا بيانياً بليغاً إذا قيس بالمعايير العصرية. 'إن دماء القتلى وصوت الطبيعة الباكي تصيح، أن قد حان وقت الاقتراق' وهلم جرا... ولكن آثارها كانت بالغة القوة. فإنه ما حولت الآلاف إلى فكرة ضرورة الانفصال. وما كاد انقلاب الرأي يبدأ حتى أخذ يهدر مسرعًا.

ولم يتخذ الكونجرس إلا في صيف (١٧٧٦) الخطوة التي لا مرد لها: بإعلان طلب الانفصال 'وإعلان الاستقلال'، وهو مثال آخر من تلك الوثائق النموذجية التي يعود الفضل في إنتاجها للبشرية للإنجليز بخاصة. وقد سطره توماس جفرسون. وما لبث بعد أن أدخلت عليه تصميمات وتعديلات متنوعة، أن جُعِل الوثيقة الأساسية للولايات المتحدة الأمريكية. وأدخل تعديلان جذريان بالذكر على مسودة جفرسون. فإنه شملت عنيقة على تجارة الرقيق، وأُنحى باللائمة على حكومة أرض الوطن بإنجلترا لحيلولتها دون المحاولات التي بذلتها المستقرات (المستوطنات) لإيقاف تلك التجارة. فحذفت هذه الفقرة وكذلك حذفت جملة أخرى عن البريطانيين تقول: 'يجب أن نحاول أن ننسى حينا السابق لهم.. فقد كنا نستطيع أن نكون مجتمعين شعبًا حرًا عظيمًا'.

وفي قريب من نهاية (١٧٨٢) وقعت في باريس البنود الأولية في المعاهدة التي اعترفت فيها بريطانيا بالاستقلال التام للولايات المتحدة. وأعلن انتهاء الحرب في ١٩ أبريل (١٧٨٣) أي بعد ثماني سنين بالاضبط من انطلاق بول ريفير بجواده وارتداد رجال جاج (Gage) من كونكورد إلى بوسطن. ووقعت معاهدة الصلح نهائيًا بباريس في سبتمبر.

٥- دستور الولايات المتحدة

إن الطريقة التي أصبحت بها الولايات الثلاث عشرة مستقلة، كانت من وجهة نظر التاريخ الإنساني، أقل شأنًا بكثير من استقلالها الفعلي نفسه. وظهر في العالم بتوطيد استقلالها ذلك، نوع من المجتمع مع جدي د. وكأنني به شيئاً فقت عنه بيضة. كان حضارة أوربية غريبة انفصلت وتدرجت من آثارها إلى الإمبراطورية والمسيحية؛ ولم يكن بها أي أثر للملكية ولا دين رسمي للدولة. وما كان بها دوقات ولا أمراء ولا كونتا، ولا أي ضرب من حملة الألقاب المدعين سمو القدر والرفعة بوصفها حقوقاً. بل إن وحدتها نفسها لم تكن آنذاك إلا اتحاداً بقصد الدفاع والحرية. فكانت من هذه الوجوه بداية نظيفة في التنظيم السياسي لم يدر العالم من قبل لها نظيراً. وإن غيبة أية رابطة دينية تربطهم بعضهم إلى بعض لجديرة بالتبويه وبوجه خاص. فقد كان بها أكثر من واحد من أشكال المسيحية، ولا مجال للشك في أن روحها كانت مسيحية. ولكن الأمر كان كما صرحت بذلك وثيقة رسمية في (١٧٩٦) تصريحاً لا لبس فيه "إن حكومة الولايات المتحدة ليست بأي حال مؤسسة على الديانة المسيحية"^(١). فإن المجتمع الجديد قد توغل بالفعل والواقع حتى بلغ أصل الجماعة الإنسانية العادية المجردة. وكان يبني نوعاً جديداً من الجماعة الإنسانية ونوعاً جديداً من الدولة على تلك الأصول.

هنا كان يعيش ما يقرب من أربعة ملايين من الناس متناثرين فوق منطقة مترامية الأطراف ليس بينها من وسائل الاتصال إلا كل صعب شديد الصعوبة بطيء عظيم البطء، وهم قوم لما يبرحوا فقراء، وإن كان أمامهم إمكانات تبشر بثروة لا نهاية لها. وقد نشطوا يعملون في واقع الحقيقة على معيار ضد عدم الأإنشائية جبلية مثل تلك التي قام بها بالخيال والنظر الفلاسفة الأثينيون قبل ذلك باثنين وعشرين قرناً.

وهذا الموقف يشير إلى مرحلة محددة في فكاك الإنسان من السابقة والعرف، وخطوة محددة إلى الأمام تتجه نحو إعادته بناء ظروفه إعادة واعية متعمدة حتى تتلاءم وحاجاته وغاياته. كانت طريقة جديدة أخذت تصبح شيئاً عملياً في الشؤون الإنسانية. فإن دول أوروبا العصرية تطورت عما سبقها من أشياء، نظاماً في إثر نظام، وعلى مهل وبطء، بلا خطة مرسومة. فأما الولايات المتحدة فإنها بالخطوات تخطيطاً واحدة طنعت اصطناعاً.

ومع ذلك فإن حرية الشعب الجديد الخلاقة، كانت محددة تحديداً خطيراً جداً من ناحية واحدة. فلم يكن هذا النوع الجديد من الدولة مبنياً على موقع مهد موطأ. بل إن تكوينه الاصطناعي لم يبلغ في صراحته مبلغ بعض المستعمرات الأثينية المتأخرة التي انطلقت عن المدينة الأم لتخطط وتبني دول مدن جديدة تماماً ذات دساتير جديدة تماماً أيضاً. فكان لكل من المستعمرات الثلاث عشرة في نهاية الحرب دستوراً الخاص، وهو إما مثل دساتير كونكتيكت ورود أيلاند، التي يرجع تاريخها إلى أوان مراسيمها الأصلية (١٦٦٢) وإما أعيد تكوينه أثناء النضال، شأن دساتير سائر الولايات، حيث كان حاكم بريطاني يلعب دوراً عظيماً في

(١) نقلاً عن معاهدة تريبولي، انظر تشاننج السفر الثالث، الفصل الثامن عشر.

الإدارة. على أننا نستطيع أن نعد هذه التجديدات محاولات لها فاضل الإسلام وتجاهل في المجهود الإنشائي العام.

وهناك فكرات معينة كانت تبرز بروزاً واضحاً جداً من فوق هذا المجهود. فمن هذه الأفكار فكرات المساواة السياسية والاجتماعية. فهذه الفكرة التي رأيناها وهي تولد في العالم بوصفها فكرة متطرفة لا يكاد يصدقها عقل في العصر المحصور بين بوذا ويسوع الناصري، قد توكدت الآن في أخريات القرن الثامن عشر بوصفها معياراً عملياً للعلاقات الإنسانية. يقول البيان الأساسي في فرجينيا: "وإن كل الناس خلقوا بالفطرة أحراراً مستقلين"، ثم هو يمضي في سرد "حقوقهم" والتوكيد بأن كل المأمورين والمحافظين ليسوا إلا 'مؤتمنين على المصلحة العامة وخداماً لها'. ولكل الناس الحق المتساوي في ممارسة الديانة بملاء حريتهم. فأما الملك بحكم الحق، والأرستقراطي، والعبد الطبيعي، والملك الرب، والله، فقد اخفقت كلها من هذه الخطة السياسية الأمريكية - بقدر ما تذهب إليه هذه التصريحات. وقدمت معظم الولايات لنظام الحكم فيها بمقدمات شبيهة بهذه. وقال إعلان الاستقلال إن "كل الرجال قد ولدتهم أمهاتهم سواسية". وإنك لترى في كل مكان تأكيدات مصوغة في عبارات القرن الثامن عشر تقول بأن المجتمع الجديد سوف يكون - إذا استخدمنا التعبيرات التي أوردناها في فصل سابق⁽¹⁾ - "مجتمع إرادة وليس مجتمع طاعة". غير أن مفكر ذلك الزمان، كانت لهم في صوغ عبارة ذلك الموضوع طريقة كادت أن تبلغ حد السماجة والغلط، فإنهم تصوروا أن المواطنة تنطوي على ضرب من الاختيار الفردي والقبول، لم يحدث قط في واقع الأمر، وهو الشيء المسمى باسم العقد الاجتماعي. ألا ترى إلى الديباجة التمهيدية في دستور ماساشوسيتس مثلاً، كيف تذكر أن الدولة ترابط اختياري، "به تعاهد الشعب بأجمعه مع كل مواطن، وكل مواطن مع الشعب بأجمعه بأن يحكم الجميع بقوانين معينة ترمي إلى الخير المشترك".

ولسوف يتضح الآن أن معظم هذه البيانات الأساسية تقبل المناقشة. فالرجال لا يولدون سواسية، ولا هم يولدون أحراراً، بل هم يولدون حشداً أشد ما يكون تنوعاً، وينشئون خليطاً متورطاً في شبكة اجتماعية عتيقة معقدة. ثم أين ذلك الرجل الذي يدعى للتوقيع على أي عقد؟ فإن فاتته ذلك وجب عليه أن يهجر العالم وحيداً. فلو فسرت هذه البيانات تفسيراً حرفياً، لبلغت من الزيف والخطأ الظاهر، حداً يجعل من المستحيل الاعتقاد بأن الناس الذين وضعوها، كانوا يقصدون منها أن تفسر حرفياً. وإنما هم أنشئوها للتعبير عن فكرات معينة خداعة ولكنها مهمة أعمق الأهمية - وهي فكرات أصبح العالم بعد انقضاء قرن ونصف من التفكير فيها، في وضع يستطيع فيه أن يعبر عنها تعبيراً أحسن. والمدينة كما أوضحت هذه "المعالم" نشأت بوصفها مجتمع طاعة، وكانت بالضرورة مجتمع طاعة. وكان الكهنة والحكام قد أساءوا إلى الروح جيلاً بعد جيل. ثم

(1) انظر ص ص ٩٥٧ - ٩٦٣ م المعالم ج ٣ ط ٢. ومجتمع الإرادة والطاعة من أهم النقاط التي يعنى المؤلف أيماءاً عنها بإيرازها في كل أجزاء "المعالم". (المترجم).

حدث انثيال متواصل من الإرادة القوية جاء منحدرًا من الغابات والغياض والسهوب⁽¹⁾. ذلك أن الروح الإنسانية ثارت في نهاية الأمر ثورة تامة على الطاعات العمياء في الحياة المشتركة. كانت تبغي - وكان ذلك بطريقة سمجة جدًا في بداية الأمر - الحصول على طراز جديد من الحضارة أحدث جدة وأحسن صنعًا، يكون في نفس الوقت "مجتمع إرادة". وكان من الضروري للوصول إلى تلك الغاية أن يُعْمَلَ كلُّ إنسان بوصفه سلطانًا على نفسه؛ وكان لا بد أن يكون مركزه مركز الزمالة لا العبودية. وكان فائدتُه الحقيقية وأهميته الحقيقية تعتمد على صفته الفردية. والطريقة التي حاول بها هؤلاء الخالقون لأمريكا السياسية أن يحصلوا على 'مجتمع الإرادة' ذلك، كانت طريقة مفروطة في بساطتها وفجاعتها. فقد منحوا الناس شيئًا كان بالنسبة إلى الزمان وبالنظر إلى الأحوال الأمريكية، حتى اقتراع واسع المجال جدًا. ولكن الأذى والكانت تختلف بين ولاية وأخرى، وكان أوسع حق للاقتراع في بنسلفانيا، حيث كان كل دافع ضرائب بالغ ذكر له الحق في التصويت، ولكن إذا قورن الحال ببريطانيا، لتبين أن الولايات المتحدة بأجمعها كانت أقرب ما تكون من منح حق التصويت لكل من بلغ مبلغ الرجال عند نهاية القرن الثامن عشر. وبذل مؤسسو أمريكا الجهد - وكانت جسيمة بالقياس إلى زمانهم طفيفة بالقياس إلى زماننا - للوصول إلى "تعليم" بسيط واسع الانتشار. فأما 'إعلام' المواطنين بخبر ما يجري داخل بلادهم وخارجها، فأمر تركوه للاجتماعات العامة والمطبوعة الخاصة التي يملكها أي فرد، دون أن تخالجهم - فيما يظهر - وخزة ارتياب في هذين العاملين.

وقصة دساتير الولايات المختلفة ودستور الولايات المتحدة على وجه العموم، قصة معقدة جدًا، لا سنا بمستطيعين أن نعالجها هنا إلا كأشد ما تكون المعالجة إجمالاً واقتضاباً. وأجدر الأمور بالذكر من وجهة النظر العصرية هي إغفال النساء بوصفهن مادنات (مواطنات). وكان المجتمع الأمريكي مجتمعاً بسيطاً زراعياً في كبير أمره. وكانت معظم النساء متزوجات؛ فلا غرو إذن أن يمثلن بعولتهن. على أن نيوجرسي سمحت لعدد قليل من النساء أن يعطين أصواتهن على أساس من المؤهلات العقارية. وهذا ما كان نقطة أخرى ذات أهمية عظيمة، هي القرار الذي كاد أن يكون إجماعياً بأن يتولى الحكم في البلاد مجلسان يقر كل منهما الآخر أو يكبحه على غرار مجلسي اللورد والعموم في بريطانيا. وكان لبنسلفانيا دون غيرها مجلس نيابي واحد، الأمر الذي كان الناس يشعرون من أجله بأن تلك حالة شديدة الخطر مغالية في ديمقراطيتها. وعندني أنه فيما عدا الدفع الجدلي بأن التشريع يجب أن يكون بطيئاً كما يجب أن يتسم بالتمكن والتثبت، فإن من العسير أن يجد المرء ضرورة لهذه الثنائية في المجالس. ويلوح أن المسألة كانت تقليدًا جديدًا أو (موضة) انتشرت لدى مؤسسي الدساتير في القرن الثامن عشر أكثر منها حاجة ملحة معقولة. فإن الازدواج البريطاني كان تقسيمًا قديمًا. فمجلس اللورد وهو البرلمان أصلاً، كان جميعه من "الكبراء" وأعظم زعماء المملكة؛ ثم جاء مجلس العموم بوصفه عاملاً جديداً، وبوصف أعضائه الفئة المنتجة المتحدثة بلسان سكان المدن وأصحاب الملكيات الزراعية الصغيرة. وكان مفروضاً في شيء من التعجل في القرن الثامن عشر أن العامة

(1) الغياض (Parklands): مصطلح جغرافي معناه الغابات الحقيقة المتباعدة الأشجار. والسهوب (Steppes): هي السهول الفسيحة. الجافة الخالية من الأشجار وإن نبتت بها الأعشاب ومعظمها في جنوب شرقي أوروبا وجنوب غربي آسيا. (المترجم)

ميالة إلى الاندفاع وراء الدوافع الضاربة وأنها محتاجة ولا ريب إلى من يشكها؛ وكان الرأي متجهًا إلى الأخذ بالديمقراطية على أن تكون ديمقراطية عليها دائماً شكائكم^(١) قوية سواء أكانت منطلقة إلى أعلى الجبل أو منحدره إلى أسفل. وكانت فكرة النخبة المنتقاة هالة تحيط بتلك المجالس العليا؛ فإنهم كانوا ينتخبون على أساس من الاقتراع أضيق حدوداً. وهذه الفكرة الداعية إلى إنشاء مجلس أعلى يكون معقلاً يصب فيه ذوق القيمة من الرجال لا تروق المفكرين العصريين بنفس القوة التي كانت تروق بها أمثالهم في القرن الثامن عشر. ولكن فكرة المجلس الثنائي مكوناً على صورة ما أخرى، لا تزال ولها أنصارها. فإنهم يرون به أن المجتمع يجوز له - مع رجوع ذلك بالخير عليه - أن ينظر في شؤنه من زاويتي نظر - فينظر بواسطة أعين هيئة منتخبة لتمثل الحرف والصناعات والمهن والخدمات العامة وما إلى ذلك، وهي هيئة تمثل الوظيفة، كما ينظر من خلال أعين هيئة ثانية تنتخبها الجهات المحلية لتمثل تلك المجتمعات. فلانتخاب أعضاء الهيئة الأولى يعطي الرجل صوته على أساس مهنته. وللثانية على أساس الحي الذي يسكنه. وهم يشيرون إلى مجلس اللوردات البريطاني إنما هو في الواقع ممثل للوظيفة، تمثل فيه الأرض والقانون والكنيسة تمثيلاً غير متناسب مطلقاً، على أن أصحاب الصناعات فيه وأرباب الأموال وكبار رجال الخدمات العامة وأهل الفنون والعلوم والطب يجدون مكانهم كذلك؛ وأن مجلس العموم البريطاني جغرافي بحث في أصوله. بل لقد اقترح بعضهم في بريطانيا أنه يجب أن يكون هناك "تلاء من العمال" ينتخبون من بين زعماء نقابات العمال العظيمة. على أن هذه تأملات تخرج عن نطاقنا الحالي.

وكانت الحكومة المركزية للولايات المتحدة هيئة واهنة القوة جداً بادئ الأمر، مكونة من ك ونجرس ينتظم ممثلي الولايات الثلاث عشرة، التي تضمها بعضها إلى بعض عناصر اتحاد احتلافي^(٢) (كونفدرالي) بعينها. ولم يكن هذا الكونجرس إلا مجرد مؤتمر من مندوبين لولايات مستقلة ذات سيادة؛ إذ لم يكن في يده مثلاً أي هيمنة على التجارة الخارجية في كل ولاية على حدة، ولا كان بالمستطيع أن يسك النقود ويجمع الضرائب بناء على سلطانه هو. وقد حدث عندما ذهب جون آدمز أول وزير للولايات المتحدة في إنجلترا لمناقشة معاهدة تجارية مع وزير الخارجية البريطاني أن قوبل بطلب ثلاثة عشر مندوباً، يمثل كل واحد منهم ولايته المختصة. ثم اضطر أن يعترف بعدم قدرته على اتخاذ إجراءات ترتبط بها بلاده كلها. وعند ذلك شرع البريطانيون يتعاملون مع كل ولاية على حدة متخطين الكونجرس، واحتفظوا بملكية عدد من المواقع على الأراضي الأمريكية حول البحيرات العظيمة بسبب عدم مقدرة الكونجرس على الاحتفاظ بتلك الأقباليم احتفاظاً فعالاً. وأثبت الكونجرس على نفسه الضعف أيضاً في مسألة أخرى مستعجلة خطيرة. إذ إنه تمتد إلى الغرب من الولايات الثلاث عشرة أراض لا نهاية لها كان المستوطنون يتخذون سبيلهم إليها في أعداد

(١) شكائكم: فرامل. (المترجم)

(٢) الاتحاد الاحتلافي أو الكونفدرالي: أطلقنا هذه الكلمة للدلالة على معنى Confederation وهو الاتحاد بين الولايات اتحاداً مفككاً تحتفظ فيه كل منها بسماتها والشيء الكثير من استقلالها وذلك تمييزاً لها من كلمة الاتحاد الوحدوي أو الفدرالي التي تدل على الاتحاد التام بين الولايات. (المترجم)

متكاثرة أبداً. وكانت لكل من الولايات مدعيات غير محصورة للتوسع غرباً. فكان من الواضح لكل من رجاء بعيد النظر، أن احتكاك هذه المدعيات مؤد على طول الزمان إلى الحرب، ما لم تستطع الحكومة المركزية أن تتولى توزيع الأنصبة. وبلغ الضعف بالحكومة المركزية وحاجاتها إلى التركيز، حداً أصبح معه أمراً مزعجاً وخطراً بادياً، حتى لقد جرت بعض مباحثات سرية ترمي إلى إنشاء نظام ملكي في البلاد، وكل فنانين مال جورهام نائب ماساشوسيتس ورئيس الكونجرس من يفتح الأمير هنري البروسي شقيق فردريك الأكبر في هذا الصدد. وأخيراً دعي مؤتمر دستوري للاجتماع في (١٧٩٧) بفيلاذلفيا، وهناك وضعت الأسس الإجمالية للدستور الحالي للولايات المتحدة. ذلك أنه حدث أثناء السنوات الأخيرة تغير عظيم في الروح، إذ فشلت في الناس جميعاً شعور بضرورة الوحدة.

وعندما وضعت مواد دستور الاتحاد الاحتلافي (الكونفدرالي)، كان الناس يفكرون في فرجينيا وشعب ماساشوسيتس وشعب رود أيلاند وما إلى ذلك؛ فأما الآن فتظهر إلى الوجود فكرة جديدة، هي 'شعب الولايات المتحدة'. وصدر بيان أعلن أن الحكومة الجديدة بما لها من رئيس تنفيذي وأعضاء بمجلس شيوخ ورجاء الكونجرس ومحكمة عليا (التي أنشئت عند ذاك)، إنما هي حكومة 'شعب الولايات المتحدة'. كانت هيئة مندمجة ولم تكن مجرد جمعية متجمعة. وكانت تقول 'نحن الشعب' وليس 'نحن الولايات'، كما اشتكى ذلك به رارة 'لي' الفرجينى. إذ تقرر أن تكون حكومة اتحاد فدرالي Federal لا حكومة اتحاد احتلافي Confederate. وأقرت الدستور الجديد ولاية بعد ولاية، وفي ربيع ١٧٨٨ اجتمع بنىويورك أول كونجرس قام على الأسس الجديدة، تحت رئاسة جورج واشنطن، الذي كان القائد الأعلى الوطني طوال حرب الاستقلال. وعند ذلك مر الدستور في طور من المراجعة جسيم، وبنيت مدينة واشنطن على نهر البوتوماك لتكون عاصمة الاتحاد.

٦- المظاهر البدائية لدستور الولايات المتحدة

أسلفنا إليك في فصل سابق وصفنا للجمهورية الرومانية، وخليطها الجامع بين المظاهر العصرية المشوبة بالخرافات القاتمة والسمة الوحشية البدائية - بأنها الصورة النياندرتالية التي تؤذن بالدولة العصرية. وربما جاء وقت يعد فيه الناس مستحدثات الدستور الأمريكي وأجهزته العديل السياسي للأدوات والمستحدثات التي كانت لإنسان العصر الحجري الحديث. على أنها أدت الغرض المطلوب منها أداءاً حسناً، ونما شعب الولايات في ظل حمايتها حتى أصبح من أعظم المجتمعات التي ظهرت في العالم إلى الآن ومن أشدها قوة وحضارة؛ على أنه ليس في ذلك ما يدعو إلى اعتبار الدستور الأمريكي شيئاً أقرب إلى الغاية النهائية وأبعد من قبول التغيير من طراز سكك حديد الشوارع التي تعلو كثيراً من طرقات نيويورك العامة، أو ذلك الطراز الممتاز البسيط من عمارة المنازل الذي ما يزال يعم فيلادلفيا. فإن هذه الأشياء أيضاً أدت الغرض منها أداءاً حسناً، وفيها عيوبها على أن في الإمكان إصلاحها وتحسينها. فإن مستحدثاتنا السياسية شأن من مستحدثاتنا المنزلية والآلية بالضبط، في حاجة إلى أن تمتد إليها يد التعديل المتواصل كلما نما العرفان والتفهم.

ومنذ أن رسمت خطة الدستور، تعرضت فكرتنا عن التاريخ ومعرفتنا بسيكولوجيا الجماعة لتطوّر جسيم جداً. فإننا أخذنا نرى في معضلة الحكم والحكومة أشياء كثيرة كان رجال القرن الثامن عشر عنها عامين؛ وإذ إنهم كانوا شجعاناً شجاعة تتجلى في نزعتهم الإنسانية لتقاء أي تكوين سياسي سابق لهم، فإن تلك النزعة الإنسانية قصرت كثيراً عن حد تلك الجرأة التي تدرك الحاجة إليها في هذه الأيام للوصول إلى حل لهذه المسألة الإنسانية العظيمة، مسألة إنشاء "مجتمع إرادة" ممدن. فإنهم سلموا بأشياء كثيرة نعرف اليوم أنها بحاجة أن تكون موضع أشد الدراسات العلمية تدقيقاً وأن تلقى أشد ألوان الإحكام والتعديل. ذلك أنهم كانوا يظنون أن كل ما عليهم هو أن يقيموا المدارس والكلبات، مع منحها منحة من الأرض للقيام بنفقاتها، وأنه من الجائز عند ذاك أن تترك وشأنها. ولكن التعليم ليس عشياً يثبت بقوة في أية تربية، وإنما هو موصول ضروري رقيق قد يذبل في سهولة ويضوي. وإنما لنعلم في هذا العصر أن النقص في تطور الأجهزة الجامعية والتعليمية، يشبه شيئاً من نقص التطور للمخ والأعصاب، الذي يعوق نمو الكيان الاجتماعي كله. وإذا قيس مستوى التعليم العادي في أمريكا بالمعايير الأوروبية وبمعيار أية دولة ظهرت حتى الآن، تجلّى أنه من مستوى عال؛ ولكن إذا قيس إلى ما يمكن أن يكون عليه حاله، فإن أمريكا تعد دولة غير متعلمة. كذلك أي ضمائرهم آباء أمريكا هؤلاء أنه ليس عليهم إلا أن يتركوا "الصحافة" حرة، وعند ذلك يعيش كل إنسان في أسطع نور. فلم يدركوا أن في إمكان الصحافة الحرة أن تطور نوعاً من الارتشاء والفساد الدستوري بسبب علاقته بأصحاب الإعلانات، وأن في مستطاع أصحاب الصحف الكبيرة أن يكونوا قراصنة ينقلبون كل رأي ومحطمين فاقدون الشعور للبدائيات الحسنة. ويجيء في آخر الأمر أنه لم يكن لمؤسسي أمريكا أي معرفة بتعقيدات التلاعب بالأصوات. فإن "علم الانتخابات" بأجمعه كان أبعد أن يتناوله وهمهم، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن الحاجة إلى الصوت القابل للنقل لمنع طبع الانتخابات بواسطة المنظمات المتخصصة، وكانت نتيجة الطرائق الصلبة التي كانوا يستعملونها - أن أصبح نظامهم السياسي فريسة محققة لأجهزة الحزب الكبير التي

سلبت الديمقراطية الأمريكية نصف حريتها ومعظم روحها السياسية. وأصبحت السياسة حرفاً، وحرفة وضيفة جداً. وانسحب كرام الرجال ومقتدروهم، بعد الفترة العظيمة الأولى تاركين ميدان السياسة إلى الأعمال، وانحطت روح الشعور بالدولة. وتحكم "المسعى الخاص" في كثير من الشؤون العامة، لأن الفساد السياسي جعل "المسعى الجماعي" أمراً مستحيلاً.

على أن نقائص النظام السياسي العظيم الذي خلفه أمريكيو فترة الثورة، لم تظهر على الفور. فإِنَّ تاريخ الولايات المتحدة لبث أجيالاً عدة، تاريخ اتساع سريع وقدر من الحرية، وسعادة ساذجة وعمل ناشط، على حال لا نظير لها جميعاً في تاريخ العالم. وبالرغم من حدوث انحرافات كثيرة وندوء دم المساواة وبالرغم من الكثير من قلة الخبرة والكثير من الأخطاء، فإن تاريخ أمريكا مع ذلك في المائة والخمسين السنة الأخيرة قصة تعادل في نصاعتها وشرفها قصة أي شعب معاصر آخر.

ولم يتهياً لنا في هذا البيان الموجز الذي كتبناه عن إنشاء الولايات المتحدة الأمريكية أن نتجاوز إلا قليلاً مجرد الإشارة إلى أسماء جماعة العظماء الذين بدءوا هذه البداية الجديدة في التاريخ الإنساني. وقد ذكرنا أسماءهم عرضاً، أو قل إننا حتى لم نذكر رجالاً من أمثال توماس بين وبنيدامين فرانكلين وباتريك هنري وتوماس جفرسون وأبناء العم من أسرة آدامز ومايسون الكسندر هاملتون وجورج واشنطن. ومن العسير على المرء أن يقيس رجال فترة ما من التاريخ برجال فترة أخرى. وقد يتأثر بعض الكتاب حتى الأمريكيين منهم بالأبهة المصطنعة التي تجلت في البلاطات الملكية الأوروبية بالأعمال المدمرة المليئة بالبهرج والزيف التي قام بها أشخاص مثل فردريك الأكبر أو كاترين العظيمة، فيبدون إزاء مؤسسي أمريكا هؤلاء ضرباً مما قد يبديه محدثو النعمة من خجل إزاء شيء مصنوع بالمنزل. فإنهم يشعرون أن بنيدامين فرانكلين إنما يبدو في بلاط لويس السادس عشر في شعره الطويل وثيابه البسيطة وخلق له الماكر شخصاً ينقصه الامتياز الأرستقراطي نقصاً محزناً. ولكنهم إن جردوا حتى بدت شخصياتهم، لم يكد لويس السادس عشر يبلغ من المواهب ولا من نبيل العقل الحد الكافي لجعله وصيفاً لفرانكلين. فإذا كانت العظمة الإنسية سانية تقاس بالمستوى والمعياري والبريق، فلا شك إن أن الإسكندر الأكبر يتبوأ من العظمة الإنسانية ذروتها. ولكن هل العظمة هي ذلك الأمر؟ ألا يكاد الرجل العظيم أن يكون من إذا تولى منصباً عظيماً أو تهيأت له فرص عظيمة - وما المواهب العظيمة إلا فرص عظيمة - خدم الله وخدم إخوانه بقلب ملؤه التواضع؟ ولا ريب أنه يبدو أن عدداً جماً من أمريكيي الزمن الثوري أولئك، قد أظهروا الشيء الكثير من الإخلاص والتجرد من الأغراض. كانوا لا جرم رجالاً محدودين، رجالاً غير معصومين من الزلل، ولكنهم يبدون في جملتهم وكأنما كانوا يعنون بالحكم الشعبي المتحرر الذي يخلقون، يعنون به في حد ذاته أكثر من عنايتهم به كغاية شخصية أو غرور شخصي. ومن المستحيل علينا ألا نخولهم عظمة ذهنية ممتازة.

ولا ننكر أنهم كانوا محدودي المعارف ضيق أفق النظر إلى الأمور؛ إذ كاد يحدهم محدودية فهمهم وقبوره. كانوا - شأننا جميعاً - رجالاً تتنازعهم دوافع مختلفة؛ قد نشأت في أذهانهم حوافز طيبة وسرت في أجسادهم أفكار عظيمة. ومن الجائز كذلك أن تتداخلهم نزعات الغيرة أو الكسل أو العناد أو الشر. فلو قدر

للمرء أن يكتب تاريخاً حقيقياً كاملاً مدققاً لتكوين الولايات المتحدة، لوجب أن يكتب في روح من الـ سماحة والجدل كما تُكتب ملهارة فاخرة ترتفع إلى أنبل الغايات. ولسنا نعثر على الروح الإبداعية الجزلة الملتوية المتجلية في القصة الأمريكية، قدر ما نعثر عليها ممتازة رائعة إزاء تجارة الرقيق. وإذا نحن راعينا مسألة العمال بصفة عامة - وجدنا الرق خير محك لهذه الروح الجديدة في التاريخ العالمي وأعدى بها الـ الروح الأمريكية.

ابتدأت تجارة الرقيق في وقت مبكر جداً من تاريخ أمريكا الأوربي. وما من شعب أوربي ذهب إلى أمريكا مبمراً براءة تامة من وزر ذلك الأمر. ومن الإنصاف أن نلاحظ في وقت لما يزل فيه الألماني في أوروبا من الناحية الخلقية كالمعاقب بجريرة غيره - إن سجل الألمان هنا خير السجلات وأنظفها من هذه الوجهة. وتكاد أول الأقوال الصريحة ضد استرقاق الزوج تكون صادرة من مستوطنين ألمانيين في بنسلفانيا. ولكن المستوطن الألماني كان يشتغل بواسطة عمال أحرار فوق أرض معتدلة المناخ متوعدة كثيراً في الشمال عن منطقة المزارع الكبرى؛ فلم يكن واقعاً إذن تحت تأثير مغريات خطيرة في هذا الشأن. ابتدأت تجارة الرقيق الأمريكية باسترقاق الهنود لتشغيلهم في مناسر العمال بالمناجم وفي المزارع الكبرى. ومن عجب أن يلحظ الإنسان أن لاس كاساس وهو الرجل الذي حض على استيراد الزوج إلى أمريكا للحلول في العمل محل من تحت حمايته من الهنود المعذبين، كان بالفعل رجلاً طيباً جداً عطوفاً على الإنسانية. ذلك أن الحاجة إلى العمال الذين يشتغلون في المزارع الكبرى بجزر الهند الغربية وفي مناطق الجنوب كانت حاجة حتمية ملحة. وعندما ثبت أن الوارد من الأسرى الهنود غير كاف، شُخص المزارعون لا إلى الزوج فحسب بل إلى السجون وملجئ الفقراء في أوروبا لتزودهم بالعمال الكادحين. وسوف يعلم قارئ كتاب مول فلاندرز من تأليف دانيال ديفو، الرأي الذي كان يراه إنجليزي ذكي الفؤاد عند بواكير القرن الثامن عشر في عملية الرقيق الأبيض الفرجينية. على أن الزنجي جاء في وقت مبكر جداً فإن سنة ١٦٢٠ التي شهدتها الأبهاء الحجاج ينزلون إلى البر في لميموث بنيوإنجلند، شهدت غليوفاً هولنداً ينزل إلى البر أول شحنة من الزوج في جيمس تاون بفرجينيا. فكان عمر تجارة الرقيق الزوج يناهز عمر نيويإنجلند وكانت تلك التجارة نظاماً أمريكياً مضى عليه قبل حرب الاستقلال ما يربو على قرن ونصف من الزمان. وقد رها أن تواصل حياتها في كفاح مستمر الجزء الأكبر من قرن آخر.

على أن ضمائير المفكرين من رجال المستعمرات لم ترتح قط تمام الارتياح إلى هذه النقيصة، وكانت إحدى التهم التي وجهها توماس جفرسون لتاج بريطانيا العظمى ولوردتها، أن كل محاولة تبذل لتحسين الحال أو الوقوف في سبيل تجارة الرقيق من جانب المستعمرين كانت تحول دونها مصالح أصحاب الملكيات الكبرى في أرض الوطن الأم (أي إنجلترا). وفي سنة ١٧٧٦ كتب اللورد دارتموث إن المستوطنين لا يمكن أن يباح لهم أن يحولوا دون تجارة لها مثل ذلك النفع العميم على الشعب أو يبطئوها. وفقزت مسألة استرقاق الزوج إلى منزلة الصدارة من الضمير العام بفضل نشوء التخمر الأخلاقي الذي حدث إبان الثورة. وظهر التباين والتحاذ واضحاً وهاجاً لعين العقل. فإن قانون الحقوق الفرجيني يقول " كل الرجال بطبيعتهم

أحرار متساوون"، ومع ذلك فإذا خرج الإنسان إلى العراء وجد العبد الزنجي يكدح في ضياء الشمس تحت سوط "رئيس العمال"!!!.

ومما يشهد بالتغيير العظيم في الأفكار الإنسانية منذ أن انحلت النظام الإمبراطوري الروماني أمم هجمات البرابرة أن أصبح في الإمكان أن يقوم الناس بمثل هذا البحث في زوايا قلوبهم وخبايا ضمائرهم. فإن ظروف الصناعة والإنتاج وحتى ملكية الأراضي قد حالت زماناً طويلاً دون حدوث انتفاضة جديدة لنظام مناسر الأرقاء. ولكن الدورة ما لبثت أن دارت كرة أخرى، وكانت هناك مزايا مباشرة هائلة تصدها الطبقات المالكة والحاكمة من وراء انتعاش ذلك النظام القديم، في المناجم والضياع الكبرى والأشغال العامة الكبيرة. فبعث النظام ولكن قامت في وجهه معارضة عظيمة. وتعلت الأصوات منذ بداية ذلك الابتعاث باحتجاجات لم تبرح تتراد وتشتد. إذ كان استحياء تلك العادة مضاداً لضمير البشرية الجديد. وكان النظام الجديد لاسترقاق المناسر أسوأ في بعض مناحيه من أي شيء في العالم القديم. ومما كان فظيئاً مرعباً بوجه خاص ما كانت توجهه تلك التجارة من حروب لاصطياد الرقيق، وما كان يجري من طراد الإندسان في إفريقيا الغربية، ومن قساوات الرحلة الطويلة عبر المحيط الأطلسي. فإن هؤلاء المساكين كانوا يعيشون في السفن وليس معهم في غالب الأمر ما يكفيهم من الماء والطعام ودون الرعاية الصحية الواجبة ودون أدوية على الإطلاق. حتى لقد كان الكثيرون ممن يستطيعون أن يتسامحوا مع الاسترقاق على أرض الضياع الكبرى يرون تجارة الرقيق شيئاً لا تستطيع أن تسيغه أخلاقهم. وكانت شعوب أوربية ثلاثة مستغلة بوجه رئيسي بهذا العمل البشع، وهي بريطانيا وإسبانيا والبرتغال لأنها كانت أكبر ملاك الأراضي الجديدة في أمريكا فأما البراءة النسبية للشعوب الأوروبية الأخرى فترجع في الغالب إلى أن نصيبهم من المغريات كان أصغر. كانوا مجتمعات مماثلة لتلك، فلو أتيحت لها ظروف مماثلة لتصرفت تصرفاً مماثلاً.

وقد ألم بالنفوس هياج ناشط طوال الجزء الأوسط من القرن الثامن عشر ضد استرقاق الزنج في بريطانيا العظمى وفي الولايات على السواء. وقد عد الأرقاء في إنجلترا في سنة ١٧٧٠ بخمسة عشر ألف عبد استجلب أصحابهم معظمهم من جزر الهند الغربية وفرجينيا. وفي سنة ١٧٧١ وصل النزاع إلى امتحان نهائي في بريطانيا أمام اللورد مانسفيلد. فإن زنجياً اسمه جيمس سومرست أحضره سيده من فرجينيا إلى إنجلترا. ففر ثم قبض عليه وأخذ أخذاً عنيفاً إلى إحدى السفن لكي يعاد إلى فرجينيا. فاستخلص من السفينة بحكم نصر في 'قانون المثول Habeas Corpus'. وأعلن اللورد مانسفيلد أن الرق حالة لا يعرفها القانون الإنجليزي، وأنه حالة 'بغضة'؛ وعند ذلك خرج سومرست من المحكمة رجلاً حراً.

وكان دستور ١٧٨٠ لماساشوسيتس قد أعلن أن 'الناس جميعاً يولدون أحراراً ومتساويين'. وقام زنجي بعينه اسمه كواكو بوضع هذا النص تحت الاختبار في ١٧٨٣، وفي تلك السنة أصبحت أرض ماساشوسيتس مثل أرض بريطانيا لا تتسامح مع الرق؛ فكان مجرد الدخول إليها معناه الانتقال إلى الحرية. ولم تنح هذا النحو في ذلك الزمان ولاية أخرى من ولايات الاتحاد. وفي تعداد ١٧٩٠ كانت ماساشوسيتس هي الولاية الوحيدة التي لم تسجل وجود "عبد واحد بها".

وآراء الناس في فرجينيا جديرة بالملاحظة، لأنها تكشف القناع عن الصعوبات الخاصة التي كانت تواجه الولايات الجنوبية. فإن كبار رجال السياسة الفرجينيين من أمثال واشنطن وجيفرسون كانوا يطعنون في ذلك النظام، ومع هذا فإن واشنطن كان يمتلك العبيد إذ لم يكن هناك أي شكل آخر للخدمة المنزلية. ونشأ بفرجينيا حزب قوي يناصر إعناق الرقيق؛ على أنهم كانوا يطالبون بأن يغادر العبيد المعتقون الولاية في مدى سنة من الزمان وإلا اعتبروا خارجين على القانون. وكان من الطبيعي أن ينزعجوا من احتدام وجود مجتمع همجي حرّ من السود، الكثير من أفرادهم مولودون بأفريقيا ومتشبعون بتقاليد أكلة لحم البشر وشعائر دينية سرية مرعبة - يقوم إلى جوارهم على الأراضي الفرجينية. فلو أننا تأملنا وجهة النظر هذه استطعنا أن نفهم لماذا حدث أن عددًا كبيرًا من الفرجينيين مال إلى الاحتفاظ بكتلة السود في البلاد تحت الرقابة بوصفهم عبيدًا، على حين كانوا في نفس الوقت يعارضون تجارة الرقيق واستيراد أي دم جديد من أفريقيا معارضة مريضة. ومن اليسير على الإنسان أن يدرك أن السود الأحرار قد يصبحون بسهولة شوكة مضايقة؛ والواقع أن ولاية ماساشوستس الحرة أغلقت للوقت حدودها في وجههم.

ومن هنا يتضح أن مسألة الرق التي لم تكن في العالم القديم سوى مسألة "حالة" أو وضع لأفراد بينهم مماثلة عنصرية^(١)، قد انغمرت في أمريكا مع مسألة مخالفة لها وأشد منها عمقاً هي مسألة العلاقات بين عنصرين من السلالة الإنسانية على طرفي نقيض، كما أنهما على أشد التباين في التقاليد والثقافة. فلأن الرجل الأسود كان أبيض، فلا مجال للشك في أن استرقاق الزوج كان يتمتع من الولايات المتحدة في مدى جيل واحد من ساعة إعلان الاستقلال بوصفه نتيجة طبيعية للبيانات الواردة في ذلك الإعلان.

(١) عنصرية (Racial): تقوم على العنصر الإنساني وفوارقه أو تماثلاته. (المترجم)

٧- الفكرة الثورية في فرنسا

تكلما عن حرب استقلال أمريكا ووصفناها بأنها أول انفصال عظيم عن نظام الملوك الأوربيين ووزارات الخارجية الأوربية، وبأنها رفض مجتمع جديد لصناعة السياسة الميكيفاللية بوصفها الصورة المدبرة للشؤون الإنسانية. وما انقضت عشر سنوات حتى وافقت ثورة ثانية أشد من الأولى إيذاناً بالثورة قامت ضد هذه اللعبة العجيبة:

لعبة الدول العظمى، وأعني بذلك التفاعل المعقد بين البلاطات والسياسات الذي أشربت به عقلية أوروبا. على أنه لم يكن في هذه المرة حركة انفصال بعيدة الشقة. حدثت هذه الفترة الثانية في فرنسا مع الملكية العظمى وموطنها وقلب أوروبا ومركزها. وعلى النقيض من المستوطنين الأمريكيين الذين اكتفوا بمجرد نبذ الملك، قام الفرنسيون بقطع رأس ملكهم مترسمين خطى الثورة الإنجليزية. والثورة الفرنسية شأ أن الثورة البريطانية وشأن الثورة في الولايات المتحدة، يمكن تعقبها حتى مصادرها الأولى متمثلة في سخافات الملكية ومطامعها. فإن خطط التوسع وأغراض الملك الأعظم وتدابيراته، استلزمت من الإنفاق على عتاد الحرب في كل أرجاء أوروبا ما يتجاوز كل تناسب مع طاقة العصر في الضرائب. ناهيك بأن ترف الملكية ومظاهر بنخها كانت تتكلف نفقات باهظة بالقياس إلى الإنتاج في ذلك الوقت. وقد حدث في فرنسا كما حدث بال ضبط في بريطانيا وأمريكا أنه لم تكن المقاومة الأولى موجهة ضد الملك بوصفه ملكاً ولا ضد سياسته الخارجية بوصفها سياسة خارجية بل إلى ما يتسبب عنها من مضايقات وتكاليف تلم بحياة الأفراد، كذلك لم يميز الناس تمييزاً واضحاً أن أصل الشر ينحصر في تلك الأمور. وطاقة فرنسا الفعلية على دفع الضرائب كانت لا محالة أقل كثيراً نسبياً من طاقة إنجلترا بسبب الإعفاءات المتنوعة التي كان يستمتع بها النبلاء ورجال الكنيسة. ولذا كان العبء الملقى إلقاءً مباشراً على عاتق عامة الشعب أثقل وأفدح. وهذا الإغواء جعل الطبقات العليا أوعاناً للبلاط، بدل أن يناصروا البلاط العداء شأنهم في إنجلترا؛ وبذا ساعد على إطالة أمد الخراب؛ حتى إذا تناهى الأمر فعلاً إلى درجة الانفجار، كان الانفجار أشد عنفاً وتمزيقاً وتميراً.

ولم تكن هناك أثناء سنوات حرب الاستقلال الأمريكية إلا أمارات قليلة تؤذن بأن انفجاراً يوشك أن يحدث في فرنسا. أجل كانت التعاسة متفشية بين الطبقات الدنيا، وكان النقد ناشطاً والتهكم لداغاً. والتفكير المتحرر الصريح وفيراً، ولكن لم يبد هناك إلا أقل النذر بأن الوضع في مجمله وبكل ما فيه من عرف وعادات واختلافات مألوقة، قد لا يستمر في طريقه زماناً لا آخر له. كانت فرنسا تتجاوز في استهلاكها كل طاقة لها على الإنتاج. ولكن لم يكن هناك حتى ذلك الحين من يحس آلام الخوزة إلا الطبقات التي ليس لها لسان تنن به. وكان المؤرخ جيبون يعرف فرنسا خير المعرفة، فقد كان بصيراً بباريس بصره بلندن؛ ولكن أحداً لا يستطيع أن يحس منه في الفقرة التي اقتبسناها خلجة ارتياح تنبئ بأن أياماً من الاندلال السياسي والاجتماعي وشيكة دانية. ولا ريب في أن العالم كان يزخر بالسخافات والمظالم، ومع هذا فإنه من وجهة نظر المفكر العالم والجنتمان كان على درجة لا بأس بها من الرفاهية كما كان يلوح في حال لا بأس بها من الطمأنينة.

نعم ظهر في فرنسا في ذلك الزمان قدر كبير من التفكير الحر والخطابة الحرة والعاطفة الحرة. وقام في فرنسا في النصف الأول من القرن الثامن عشر، مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥) ضريباً لجون لوك في إنجلترا وإن تأخر عنه بعض الزمان. فوضع النظم الاجتماعية والسياسية والدينية تحت نفس القدر والتحليل الجوهرى وبخاصة في كتابه "روح القوانين".

وقد جرد الملكية المطلقة بفرنسا من هيبتها السحرية، وهو يقاسم لوك فضل إزالة كثير من الأفكار الخاطئة التي كانت حتى حينذاك تحول دون المحاولات الواعية المقصودة لإعادة بناء الجماعة الإنسانية. ولئن حدث في بداية الأمر أن أقيمت في الأرض البراح المتخلفة عن ذلك الهمم أكواخ هزيلة مفرطة في الضعف بالغة الغاية في عدم الاستقرار، فإن ذلك لم يكن راجعاً إلى خطئه هو. فإن الجيل الذي عقبه في أواسط القرن الثامن عشر وأخرياته، كان يفكر تفكيراً جريئاً فيما قام به ذهنياً وخلقياً من هدم وإزالة. وتألفت جماعة من أذكىء الكتاب هم "الموسوعيون" - ومعظمهم ذوو أرواح ثائرة ممن تخرجوا في مدارس اليسوعيين الممتازة - ونهضت تحت قيادة ديدروه (Diderot) لوضع الخطط لعالم جديد (١٧٦٦) بوساطة مجموعة من المؤلفات. ويقول ماليه (Mallet)، "إن مجد الموسوعيين ينحصر في كراهيتهم لكل جور وظلم وفي تشهيرهم بتجارة الرقيق، وعدم التسوية بين الناس في الضرائب، وفساد العدالة، والدمار الذي تجرّه الحروب... وفيما كانوا يلمنون به من التقدم الاجتماعي، وما كان يخالجه من عطف على 'دولة' الصناعة الناهضة التي شرعت تحول العالم تحويلاً". ويلوح أن غلظتهم الرئيسية تنحصر في مناصبتهم الأديان عداوة عمياء. فإنهم كانوا يعتقدون أن الإنسان عادل بطبعه كفاء من الناحية السياسية، على أن اندفاعه نحو الخدمة الاجتماعية ونكران الذات لا يتطور في العادة إلا بطريق تعليم يكون بالضرورة تعليمًا دينيًا، ولا يدعمه إلا جو من التعاون الشريف. فأما المبتكرات الإنسانية غير المنسقة فإنها لا تؤدي إلى شيء سوى الفوضى الاجتماعية.

وقامت إلى جانب الموسوعيين جماعة الاقتصاديين أو الفيزيوقراطيين، الذين كانوا يقومون بأبحاث جريئة فجة في شؤون إنتاج الطعام والبضائع وتوزيعها. وقد شهّر مؤلف "قانون الطبيعة" ^(١) بنظام الملكية الخاصة من الناحية الأخلاقية واقترح إنشاء تنظيم شيوعي للمجتمع. كان هو البشير المودون بظهور تلك المدرسة الكبيرة المتنوعة، مدرسة المفكرين الجماعيين ^(٢) أو الحشديين في القرن التاسع عشر وهم الذين يجمعهم الناس تحت اسم الاشتراكيين.

وكان كل من الموسوعيين ومختلف فرق الاقتصاديين أي الفيزيوقراطيين يطلبون من تلاميذهم قدرًا جسيمًا من التفكير الشديد العميق. وثمة زعيم ألبين معطفًا وأقرب إلى قلوب الناس هو روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨). أظهر مزيجًا عجيبيًا من الصلابة المنطقية والحماسة العاطفية. وكان يبشر بالمبدأ الجذاب القائل بأن

(١) قانون الطبيعة: Code de la Nature

(٢) الجماعيون: Collectivists. هم أنصار المذهب الجماعي المطابق للاشتراكية، لولا أنهم لا يدخلون الثورة في خططهم. ومذهبهم يقوم على الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج والتبادل تحت هيمنة الحكومة. (المترجم)

حالة الإنسان البدائية كانت حالة فضيلة وسعادة، انحدر عنها نتيجة لنشاط القساوسة والملوك والمحامين ومن إليهم نشاطاً لا يكاد يبدو له سبب يفسره. وكان تأثير روسو الذهني تأثيراً مفسداً للأخلاق على وجه العموم. إذ إنه لم يصب فقط بضرباته البناء الاجتماعي القائم بل مس كل تنظيمية اجتماعية؛ والظاهر أنه حين كتب عن 'العقد الاجتماعي' كان يلتزم المعايير لتقص ذلك العقد - الذي كتب عنه - أكثر مما يؤكد ضرورته.

والإنسان بعيد كل البعد عن الكمال حتى إنه يعلي قدر كاتب مناصر مناصرة ظاهرة رأياً قائلاً بأنه لا إثم ولا جناح على من ينكر ديونه ومن ينحرف في سلوكه الجنسي، ويهرب من أعباء تعليم نفسه وغيره ويتحاشى ما يكلفه ذلك التعليم من نفقات، ويقول إن ذلك السلوك ما هو إلا مظهر من مظاهر الفضيحة الطبيعية مع أن هذا هو الاتجاه الذي يكاد يكون عاماً للأهواء، والذي ينبغي علينا أن نحصى أنفسنا منذه ونقاومه، والإنسان كذلك بعيد عن الكمال حتى إن كاتباً كهذا يقدر له أن يكون صاحب مذهب يتبعه جمهور كبير من الناس من كل الطبقات التي تستطيع قراءة ما يكتبه. وقد ساعدت بدعة روسو الخطيرة مساعدة كبرى على إشاعة طريقة عاطفية وشديدة الجرأة والخروج في معالجة المسائل السياسية والاجتماعية.

وقد لاحظنا من قبل أنه لم يحدث حتى اليوم أن مجتمعاً إنسانياً واحداً بدأ يوماً عمله على أساس نظري. فلا بد من أن يحدث أولاً انهيار ما وحاجة إلى التوجيه تسمح للنظريات بأن تنبؤاً مكانها. ولا بد أن كتابات وأحاديث المفكرين الفرنسيين الجمهوريين والفضوية، كانت حتى ١٧٨٨ تلوح أموراً لا تأثير لها ولا قيمة من الناحية السياسية شأن اشتراكية ولیم موريس ^(١) الجمالية (الإسطيقية) في إنجلترا في نهاية القرن التاسع عشر. فهناك في فرنسا، كان النظام الاجتماعي والسياسي يسير في طريقه ثابتاً قوياً كأنما سيعيش أبداً، فكان الملك الفرنسي يخرج للقص أو يصلح ساعاته، وكان البلاط وعالم الطبقة الراقية يواصلان ملذاتهما، وكان المليون لا ينون عن تدبير وسائل التوسع لمشروعاتهم في الائتمان؛ وكانت الأعمال التجارية تتردى في الخطأ وهي تسير في سماجة على نفس امتداد طريقها القديم البالي، تبهظها الضرائب والمكس، وكان الفلاحون يحملون الهموم ويكدحون ويقاسون الويلات، وتمتلئ نفوسهم بكراهية يائسة لقصر النبيل. وكان الرجال يتكلمون ويحسنون أنهم يتكلمون دون جدوى. وكان في الإمكان أن يقال أي شيء إذ كان يبدو أن لن يحدث أي شيء.

(١) ولیم موريس (١٨٣٤ - ١٨٩٦): شاعر واشتراكي وفنان. تعلم في أكسفورد وتأثر براسكن. أنشأ مصنعاً للأثاث وورق الجدران وزخارف الكنائس وأصدر كتباً شعرية عديدة. (المترجم).

٨- ثورة سنة ١٧٨٩

وجاءت في ١٧٨٧ أول درجة أصابت هذا الاستمرار المطمئن للحياة في فرنسا. فإن لويس السادس عشر (١٧٧٤ - ١٧٩٣) كان ملكاً غيباً سيئ التعليم. وكان من سوء طالع أنه تزوج من امرأة حمقاء مبذرة، هي ماري أنطوانيت شقيقة إمبراطور النمسا. ومسألة اتصافها بالفضيلة والعفة من المسائل التي تثير اهتمام طراز معين من كتاب التاريخ، على أنا في غير حاجة إلى مناقشتها في هذا المكان. فكانت كما يقدرون ويرياث^(١) ' تعيش جنباً إلى جنب مع زوجها لا إلى جانبه". وهي تكاد تكون غليظة القسمة، ولكن وجهها لما لم يكن عادياً إلى حد يمنع أن تتخذ وضع الملكة الجميلة الرومانسية المختلة. فلما أن استنفدت موارد وزارة المالية في الحرب في أمريكا، وعندما كانت البلاد بأسرها تنقلب على جمر التدمير والقلق، قد صبت كل سلطانها لغل أيدي وزراء الملك عن أية محاولة للاقتصاد، ولتد شجيع كل نوع من أنواع الإسراف الأرستقراطي، ولإعادة الكنيسة والنبلاء إلى المركز الذي كانوا يتبعونه في الأيام العظيمة أيام لويس الرابع عشر. وكانوا يريدون أن يخلعوا من الجيش الضباط غير الأرستقراطيين؛ وأن يبسطوا من سلطة الكنيسة على الحياة الخاصة. وجدت في موظف من الطبقة العليا هو كالوني المثل الأعلى لوزير ماليته. فمذ ١٧٨٣ إلى ١٧٨٧ ظل هذا الرجل العجيب ينتج النقود بطريقة تشبه السحر، ثم تختفي هذه النقود ثانية بطريقة تشبه السحر أيضاً، ثم انهار في ١٧٨٧. وكان قد طبق القرض فوق القرض، وعند ذلك أعلن أن الملكية، أي الملكية العظيمة التي حكمت فرنسا منذ أيام لويس الرابع عشر - قد أفلست. ولم يعد في الطوق جمع أي نقود جديدة. ولا بد من عقد جمعية من ذوي الرأي والمكانة في المملكة للنظر في الموقف.

وقدّم كالوني إلى اجتماع ذوي المكانة ذلك، وهو جمعية من القادة والزعماء وجهت إليها الدعوة للانعقاد، مشروعاً بأخذ ضريبة مالية على كل عقار من الأرض. فأتار ذلك الأرستقراطيين إلى درجة من الغضب عظيمة. فطالبوا بدعوة هيئة تعادل على وجه التقريب البرلمان الإنجليزي - وهي 'مجلس الطبقات States General' الذي لم يجتمع منذ ١٦١٤. وأصر ذوو المكانة الفردسيون على طلبهم ذلك دون أن يتنبهوا إلى أنهم سينشئون بذلك لساناً يعبر عما يخالغ من دونهم من الطبقات من تدمير، لا يحفزهم على ذلك إلا محاربة الاقتراح القائل بأنهم يجب أن يتحملوا نصيباً من أثقال البلاد المالية. ومن ثم اجتمع مجلس الطبقات في مايو ١٧٨٩.

وكان ذلك المجلس جمعية تضم ممثلي هيئات ثلاث: النبلاء ورجال الدين والطبقة الثالثة أي العامة. وكان حق التصويت للطبقة الثالثة متسعاً جداً، إذ كاد أن يكون لكل دافع ضرائب بلغ الخامسة والعشرين صوت. (وكان قساوسة الأبرشيات يعطون أصواتهم بوصفهم من رجال الدين، والنبلاء الصغار بوصفهم نبلاء). وكان مجلس الطبقات هيئة ليس لإجراءاتها أي تقاليد ولا سوابق. وأرسلت الاستفسارات في هذا الصدد إلى الخبراء بالنشئون القديمة "بأكاديمية المخطوطات". ودارت مناقشاته الأولى حول مسألة هل له أن

(١) الموسوعة البريطانية مادة (France).

يجتمع كهينة واحدة أو كهينات ثلاث، يكون لكل طبقة فيها صوت معادل. ولما كان عدد رجال الدين ٣٠٨ والنبلاء ٨٥ والنواب ٦٢٢، فإن الترتيب الأول يضع الأغلبية المطلقة بين أيدي العامة، ويعطى لهم الترتيب الثاني صوتاً واحداً من ثلاثة. كذلك لم يكن لمجلس الطبقات مكان ينعقد فيه. فهل يجب أن يجتمع في باريس أو في إحدى مدن المقاطعات؟ واختيرت فرساي "بسبب الصيد". وواضح أن الملك والملكة كانا يقدرا أن يعالجا هذه الضجة المثارة حول المالية القومية معالجتهم لأي شيء ثقيل مزعج، وأن يسمحا للمجلس بالتدخل في نظامهما الاجتماعي بأقل قدر مستطاع. وإنا لنرى الاجتماعات تتواصل في قاعات مهمة ليس بأحد إليهما حاجة أو في صوبات البرتقال وملعب التنس وما إليها.

وكان أخذ الصوت، وهل هو بالطبقة أو بالشخص أمراً واضح الأهمية الحيوية. وتجادل القوم فيه مدة ستة أسابيع. حتى إذا اقتبست الطبقة الثالثة بضع صفحات من كتاب^(١) مجلس العموم الإنجليزي، راحت تعلن أنها وحدها هي الممثلة للشعب، وأنه ينبغي ألا تجب أية ضرائب من ذلك الحين إلا بعد إقرارها إياها. وعند ذلك أغلق الملك القاعة التي كان يجتمع فيها، وأعلن أنه يحسن بالنواب أن ينصرفوا إلى منازلهم. وبدلاً من ذلك اجتمع النواب في ملعب للتنس مناسب، وهناك أقسموا يميناً هو يمين ملعب التنس: - ألا يفرقوا حتى ينشئوا لفرنسا دستوراً. واتخذ الملك مظهر القوة وحاول أن يفرق الطبقة الثالثة عنوة. ولكن الجنود رفضوا أن يطيعوا. وعند ذلك خضع الملك بشكل فجائي خطر وقبل المبدأ القائل بأن الطبقات الثلاث يجب أن تتناقش كلها وتعطي صوتها بصفتها جمعية وطنية واحدة. وفي نفس الوقت نقلت إلى فرساي بتحرير شرط أهر من الملكة، فرق أجنبية تعمل في خدمة الجيش الفرنسي ويمكن أن يعتمد عليها في العمل ضد الشعب، إذ استقدمت تلك الفرق من الأقاليم تحت قيادة المارشال دي بروجلي، وأعد الملك العدة للتراجع في منتهى. وعندئذ تمردت باريس وفرنسا. وتردد بروجلي في إطلاق النار على الجماهير. وأقيمت حكومة مدنية مؤقتة في باريس وفي معظم المدن الكبيرة الأخيرة، وأنشأت تلك الحكومات البلدية قوة مسلحة جديدة هي الدرس الأهلي، وهي قوة معدة أولاً وبشكل ظاهر لمقاومة قوات العرش.

وكان عصيان شهر يولييه ١٧٨٩ هو في الحقيقة الثورة الفرنسية الفعلية. وأخذ شعب باريس عذوة سجن الباستيل الجهم لقاء مقاومة ضعيفة جداً. وانتشر التمرد سريعاً إلى كل أرجاء فرنسا. وأحرق الفلاحون في المقاطعات الشرقية والشمالية الغربية كثيراً من قصور النبلاء ودمروا صكوك ألقابهم، وقتلوا أصحاب القصور أو طردوهم منها. وانتشر العصيان في كل أرجاء فرنسا. ولم يمض شهر حتى كان نظام هيئة الأرستقراطية البالي القديم قد انهار. وفر إلى الخارج كثير من كبار الأمراء ورجال البلاط من حزب الملكة. ووجدت الجمعية الوطنية نفسها تدعى لإنشاء نظام جديد سياسي واجتماعي لعصر جديد.

(١) أعني أن الجمعية قلدته وحنّت حذوه. (المترجم).

٩- الجمهورية الفرنسية المتوجة

٨٩ - ٩١

كانت الجمعية الوطنية الفرنسية أقل توفيقاً بكثير في ظروف عملها من الكونجرس الأمريكي. فقد كان ذلك الكونجرس يجد بين يديه نصف قارة يتصرف فيه بملء حريته، وليس أمامه من خصم يعارضه إلا الحكومة البريطانية. وكانت منظماته الدينية والتعليمية متنوعة، وهي في مجموعها غير ذات قوة كبيرة ولكنها تنطوي في الجملة على الود والصداقة نحوه. وكانت الشقة نائية بينه وبين الملك جورج في إنجلترا، وقد أخذ ينحدر في بطن نحو حالة من البلاء. ولكن معالجة أحكام الدستور وجعله فعالاً اقتضت من الولايات المتحدة سنوات كثيرة. وكان الفرنسيون من الناحية الأخرى محوطين بجيران مبالغين إلى العدوان لهم فكريات ميكافيلية، ويجثم على صدورهم ملك وبلاط يصران على عمل الشر، وكانت الكنيسة هيئة موحدة عظيمة ترتبط بالنظام القديم ارتباطاً لا انفصام له. وكانت الملكة على ترأس متواتر مع الكونت دارتوا والدوق دي بربون والأمراء المبعدين الآخرين الذين كانوا يحاولون أن يحملوا النمسا وبروسيا على مهاجمة الشعب الفرنسي الجديد. هذا إلى أن فرنسا كانت من قبل ذلك قطراً مفلساً على حين كانت للولايات المتحدة موارد لا نهاية لها لم تمتد إليها يد التتمية بعد، وكانت الثورة بإقدامها على تغيير نظام ملكية الأراضي والعمل بالأسواق قد أنتجت اضطراباً اقتصادياً ليس له مثيل في حالة أمريكا.

تلك هي صعوبات الموقف التي لم يكن إلى تجنبها سبيل. ولكن الجمعية خلفت لنفسها بالإضغاط إلى ذلك صعوبات أخرى. فلم تكن هناك إجراءات منظمة. على حين كان لمجلس العموم الإنجليزي ما يربو على خمسة قرون من خبرته في عمله وعبثاً ما حاول ميرابو أحد كبار عظماء الثورة الأولى، أن يحمل إخوانه على اقتباس القواعد الإنجليزية المتبعة بمجلس العموم. ولكن شعور الزمان كان ميالاً بكليته إلى الصياح والمقاطعات الدرامية، وما شاكل ذلك من إظهار "الفضيلة الطبيعية". ولبت الفوضى اقتضت على أعضاء الجمعية وحدهم. فقد كانت هناك شرفة كبيرة للزوار - شرفة فاقت في كبرها كل حد مناسب، فمن ذا الذي يمنع المواطنين الأحرار من أن يكون لهم صوت في الرقابة القومية؟ ومن ثم كانت هذه الشرفة تغص بجمهور من الناس تواف إلى الاستمتاع "بمشاهدة التهاور والخصومات"، مستعد للتصفيق أو الصياح لإسكات الخطباء المتكلمين من تحته. اضطرت الخطباء الأوسع مقدرة أن يلعبوا لأصحاب الشرفة، وأن يسلکوا سبلاً عاطفية مثيرة للحواس. وكان من السهل إبان الأزمات أن يدخل كل من شاء جماعة من الغوغاء يقرضون على المناقشة.

على هذه الشاكلة شرعت الجمعية وهي مغلوطة الأيدي في القيام بواجبها الإنشائي. وفي اليوم الرابع من أغسطس أحرزت نجاحاً أخاذاً عظيماً فأصدرت - يقودها كثير من أحرار النبلاء - سلسلة من القرارات، تلغي نظم موالى الأرض (Serfs) والامتيازات والإعفاء من الضرائب، والعشور ومحاكم الإقطاع. (ومع هذا فإن هذه القرارات لم تدخل حيز التنفيذ في أجزاء كثيرة من البلاد إلا بعد ذلك بثلاث سنوات أو أربع).

وذهبت الألقاب فيما ذهب. وقبل أن تصبح فرنسا جمهورية يزمن مديد كان من الجرائر أن يوقع النبيل باسمه مقروناً بلقبه. وحسبت الجمعية نفسها طوال أسابيع ستة (استمتع فيها علم البيان بفرص ذهبية لا نهاية لها؟!)، على صوغ 'إعلان لحقوق الإنسان' على غرار قوانين الحقوق التي كانت هي التوطئة الإنجليزية الممهدة للتعديل المنظم. وشرع البلاط في نفس الوقت يدبر المؤامرات لإحداث انقلاب رجعي وشعر الناس أن البلاط ياتمر بهم. وتتعدّد القصص هنا في خطط فيليب دورليان ابن عم الملك وتدبيراته النذلة الخسيسة، وكان يأمل أن يستخدم الخلافات للحلول محل لويس على العرش الفرنسي. وفتحت حدائقه في الباليه رويال - Palais Royal للجمهور، وأصبحت مركزاً عظيماً للمناقشات المتطرفة. وفعل وكلاؤه الشيء الكثير لذلك. هذه شبهات الشعب نحو الملك. وبلغت الأمور حدّاً لا يطاق بسبب نقص في المواد الغذائية اعتبرت حكومة الملك مسئولة عنه.

وسرعان ما ظهرت بفرساي الفرقة الفلاندرية⁽¹⁾ الموالية للملك. وكانت العائلة الملكية تدبر التدابير لتزداد بعداً عن باريس - لكي تتحلل من كل شيء أبرم وتستعيد الاسباب والتبذير. فبانزعج الملكيون الدستوريون أمثال الجنرال لافاييت أيما انزعاج. وحدث في ذلك الوقت أن اندلع غضب الناس عامة لقلّة الطعام، وتحول في دور انتقال هين إلى غضبة قوية ضد ما يتهدد القوم من الحركة الرجعية الملكية. إذ كان الاعتقاد السائد أن قصر فرساي يضم قدرًا وفيرًا من المواد الغذائية؛ وأن الأطعمة كانت تختزن هناك بعيدة عن أيدي الجمهور. وكان الاضطراب قد غلب على عقول الجمهور بسبب شائعات لعلها كانت مبالغاً فيها، عن إقامة مأدبة حديقاً في فرساي، تجلى فيها العداء للشعب. وإليك بعض المقتطفات من وصف كارليل لهذه المأدبة الناعسة:

'سمح بقاعة الأوبرا. وسوف تصبح قاعة هرقل حجرة استقبال. ولم يقف الأمر عند حد ضباط فلاندر. بل تعداه إلى الضباط السويسريين، السويسريين المائة. كلاب ضباط الحرس الوطني بفرساي، فمن كان منهم يحمل في قلبه مسكة من الولاء يحضر المأدبة. وسوف تكون وليمة قل نظيرها.

'والآن هب أن هذه الوليمة أعني أن القسم الوقور منها قد تم؛ وأن الزجاجة الأولى قد احتسيت. وهب أن نخب الولاء المألوف قد شرب؛ فجاء نخب صحة الملك؛ ثم نخب الملكة في هتافات تصم الأذان؛ وأسطقت نخب الشعب أو قل نبذ... وافترض أن الشمبانيا تفيض أنهاراً، ويصحب ذلك خطب كل ما شجاعة وإقدام، ولكنه إقدام السكارى المخمورين، هذا إلى عزف آلات موسيقية؛ ويأخذ خفاف الأحلام في رفع عقيرتهم أكثر فأكثر، كل يطاول أخاه خفة ويطاوله ضجة وعججاً. فأما صاحبة الجلالة وهي تبدو الليلة محزونة ألف واد بشكل غير عادي (وصاحب الجلالة جالس قد ملأه القنص في طول يومه بالتبذل)، فهم يخبرونهما أن منظر الوليمة سيدخل إلى قواها السرور. انظروا إليها إنها تتخل هناك خارجة من حجراتها الفاخرة خروج القمر من بين أطباق الغمام، هذه الملكة الناعسة أبدع مليكة على عرش الأفتدة؛ يسير إلى جوارها الزوج الملكي،

(1) فلاندر Flanders هو الاسم الذي كان يطلق قديماً على المنطقة الشمالية الشرقية من فرنسا وعلى بعض أجزاء من بلجيكا وهولندا. (المترجم)

وولى العهد الصغير بين ذراعيها. وها هي ذي تنزل من المقاصير، بين مظاهر الروعة والفخامة والتهيل ل، وتسير حول المناضد سير الملكات؛ وهي تحني رأسها برشاقة؛ وتنتظر نظرات تتم عن الدزن والأسى، يخالطه مع ذلك معنى الشكران والإقدام، وعلى صدرها الأموي الحنون معقد رجاء فرنسا المنتظر. ثم تعزف الجوقة الموسيقية: يا ريكارد - يا - يا - ملكي، إن العالم يتخلى - عنك. فهل يستطيع الإنسان أن يفعل أكثر من أن تتعالى به العواطف إلى أقصى حد شفقةً وولاء وشجاعة؟ وهل يستطيع الضباط الشبان خفاف الأحلام إلا أن يظهروا بواسطة قبعاتهم البوربونية البيضاء، التي سلمتها إليهم الأنامل الجميلة؛ وبتلويح السيوف التي استلقت للقسم على صحة الملكة؛ والدوس على القبعات القومية بالأقدام؛ وبتسلق المقاصير التي قد يصدر منها أصوات تدخل أو احتجاج، وبالصياح بأنكر الأصوات وأشد الحنق وفقدان الرشد في الداخل والخارج - مبلغ الحالة الجوفاء العاصفة التي هم عليها أثناء تناولهم النخب؟.

'وليمة طبيعية؛ هي في الأوقات العادية أكلة لا ضير فيها ولكنها الآن قتالة.. فإن ماري أنطوانيت المسكينة قد تجمعت حولها فصحاء السوء، وحفلت بما في المرأة من حدة الطباع، وحرمت بعد نظر الملوك! فالأمر إذن طبيعي جداً وهو مع ذلك من الحماسة بكان. ففي اليوم التالي تصرح جلالتها في خطبة رسمية عامة أنها مبتهجة بيوم الخميس". ولنضع مقابل هذا تصوير كارليل لحالة الشعب.

'تستيقظ' الأمومة" في صبيحة الاثنين في طوابق السطوح القذرة، فسماع أطفالها سيكون طالبين الخبز. ولا بد للأمومة من الانطلاق إلى الشوارع وإلى صفوف (طوابير) باعة الخضر والخبز ازين. حيث تلتقي بأمومة قد أضرت بها الفمصة، وهي مليئة بالعطف عليها والإثارة لها. يا لنا من نساء تعسات! ولكن بدلاً من الوقوف في صفوف الخزائن لماذا لا نذهب إلى قصور الأرستقراطية التي هي الشر كله؟ هي لا بد ما Allons. ولنجتمع. هيا إلى دار البلدية.. وإلى فرساي..".

وحدث في باريس الشيء الكثير من الصياح والمجيء والذهاب، قبل أن تتحقق هذه الفكرة الأخيرة. وظهر فرد اسمه مايار له قدرة على التنظيم، واتخذ لنفسه نوعاً من الزعامة. وليس هناك أقل ريب في أن زعماء الثورة، والجنرال لافاييت بوجه خاص، قد استخدموا ونظموا هذا الانفجار للحصول على الملك، قبل أن يفلت من أيديهم - كما أفلت شارل الأول إلى أكسفورد - ليبدأ حرباً أهلية. وشرعت المظاهرة وقد تقدم الأصيل، تسير رحلتها المكونة من أحد عشر ميلاً، وها نحن نعود إلى الاقتباس من كارليل:

'كان مايار Maillard قد أوقف من يقودهم من المشردين المشعثين على قمة آخر تل؛ وعند ذلك تبدو لعين الرائي المتعجب فرساي وقصر فرساي وميراث الملكية المترامي الأطراف. ومن على بعد في الناحية اليمنى فوق مارلي (وسان جرمين إن لاي) حتى الناحية الأخرى نحو رامبوييه، إلى اليسار، من اظر كله ما جمال؛ وهي ترقد في رفق؛ كأنما يخيم عليها الحزن في أحضان ذاك الجو المعتم الرطب! وأمامنا تبدو عن كتب فرساي قديمها وجديدها. وبينهما ذلك الشارع العريض الظليل شارع فرساي، وهو شارع شجره فخم الاوراق رحيب يبلغ عرضه فيما يقدرون ثلاثمائة قدم، وقد امتدت به صفوفه الأربع من شجر الدرداء؛ ثم يبدو بعد ذلك قصر فرساي، منتهياً بجناات ملكية ومروج غناء وبرك صغيرة متلاكنة، وعرائش عظيمة دا

بيوت التيه (لابيرانت) ومجموعة وحوش ضارية والترايانون الكبير والصغير؛ ومساكن عالية الأبراج، وأماكن موزقة متمعة؛ يسكنها آلهة هذا العالم السفلي. ومع ذلك لا يمكن أن نستبعد منها ما لهم وم القائمة الشوهاة؛ وإليها كان الجوع المشرّد يتقدّم آنذاك، مسلحاً بالقضبان ذات الرعوس". وسقط المطر عندما خيم المساء.

فانظر تر الميدان كله وقد تغطت جميع جنباته الفسيحة، بجماعات من نساء قذرات يقترمنهن ماء المطر؛ ومن رجال من الدهماء الأسافل ناحلي الشعور وهم مسلحون بالبلط، والخوازيق الصدئة والقربينات القديمة، والهراوات ذات الحدائد (Batons ferres) والعصي التي تنتهي بسكاكين أو نصال سيوف، وذووع من الخطاطيف التي اصطنعوها بأيديهم ارتجالاً، وليس يبدو عليهم إلا أنهم عصاة جباح. وينهمر المطر والحرس الخاص ينتقل مختالاً بخيله وسط الجماهير التي تقح عليه كالأفعى؛ وتسخر منه وهو يهيج ويستثير من أمامه من الجماعات ما يتفرقها هنا لكي يتجمهر هناك.

'ويحيط عدد لا حصر له من النساء القذرات بالرئيس والوفد؛ ويصرون على الذهاب معه: ألم يرسّل جلالتة بنفسه بعد أن نظر من النافذة، من خرج ليسأل عما نريد؟ نريد الخبز. والكلام مع الملك، ذلك هو الجواب. ويضاف إلى الوفد بين الصخب الشديد والجلبة اثنتا عشرة امرأة؛ ثم يسرن معه مظفرات عبر الميدان. وبين جماعات متفرقة من الحشد، ورجال من الحرس الخاص، يتحركون بجيادهم تحت المطر المنهمر.'

'الخبز....، مع عدم الإكثار من الكلام!...' طلبات طبيعية.

ويتردد على الأسماع أيضاً أن العربات الملكية أخذت تشد إليها الخيول، كأنما هي ذاهبة إلى مدينة متز. وقد ظهرت بالفعل عند البوابة الخلفية عربات سواء أكانت ملكية أم لم تكن. بل إنه لم أب رزوا أو استشهدوا بأمر كتابي من بلدية فرساي - وهي بلدية ملكية وليست ديمقراطية. ومع هذا فإن دوريات فرساي أدخلتها ثانية، بأمر مشدد إليهم من ليكوانتر اليقظ... "وهكذا احلوكت أشباح الليل، بين العجيج والمطر؛ أصبحت كل الممرات معتمة مظلمة. وهي أعجب ليلة شوهدت في تلك الأماكن. وربما كان ذلك منذ ليلة بارثولوميو^(١) عند ما كانت فرساي - كما كتب ذلك باسومبيير - قصراً هزياً، "قأنى لنا بقيثارة أورفيوس^(٢) ليضطر بلمسة من أوتاره الشجية هاته الجماهير المجنونة إلى التزام النظام! إذ كان يبدو أن كل شيء هال هنا قد تشبّت وتبدد وخرج عن موضعه خروجاً بعيداً. وأخذ أعلى الناس قدراً في الدنيا - كأنما يجذبهم تيار إلى أسفل - يتصلون بأدنى الناس. أخذت دهماء فرنسا وزعانفها وأندالها تطيف بملكية فرنسا وأقيالها.

(١) بارثولوميو: يشير الكاتب هنا إلى مذبحه الهوجنوت التي حدثت بباريس في عيد القديس بارثولوميو في ٢٤ أغسطس ١٥٧٢ بأمر الملكة كاترين دي مدسيس. (المترجم)

(٢) أورفيوس: تمثله الأساطير في صورة أبرز شاعر قيل هو مر، وهو يحمل قيثارة كان يسبي بساحر أنغامها لا الكائنات الحية وحدها بل إن الأنهار والصخور كانت تطرب بشجي أنغامه وتخضع لأوامره. (المترجم)

ورفعت الهراوات ذوات الرعوس الحديدية حول التاج لغاية أخرى غير حراسته! وانطلقت مع السباب الموجه للحرس الخاص ترميه بالتعطش للدماء والمضادة للوطنية، مدممات قائمة ترمجر اسمًا لملكة.

"ويجتمع البلاط مرتعدًا لا يقدر على شيء. ويتقلب رأيًا مع تقلب أهواء الميدان، ومع تدويع آل وان الشائعات الآتية من باريس. شائعات تأتي متكاثفة تنبئ آونة عن السلم وأنا عن الدرب. ويد شاور نيك والوزراء كافة، فلا يخرجون بنتيجة. والقاعات تجتاحها عاصفة هوجاء من همسات: لسوف نفر إلى متز! بل لن نفر! وتحاول المركبات الملكية الخروج مرة ثانية.. وإن كان ذلك لمجرد المحاولة. على أنها تدفع إلى الداخل مرة ثانية، تدفعها دوريات ليكوانتر".

ولزام علينا أن نحيل القارئ إلى كارليل ليعلمه بقدم الحرس الوطني ليلاً تحت قيادة الجنرال لافاييت نفسه، وبالمساومة بين الجمعية والملك، واندلاع نار القتال في الصباح بين الحرس الخاص والمحاصرين الجياع، وكيف دخل الآخرون القصر عنوة وأوشكوا أن يعملوا في الأسر المالكه ذبذبا. وجاء لافاييت وجنوده في الوقت المناسب فحالوا دون ذلك. ووصلت للجمهور الجائع من باريس في الوقت الملائم عربات محملة بالخبز. وأخيرًا استقر الرأي على وجوب ذهاب الملك إلى باريس.

إن مسير المواكب الاحتفالية أمر لم يشهد عالمنا منه القليل؛ فهناك مواكب النصر والترحيب بالأبطال لدى الرومان، وهناك دق الصنوج الكابرية Cabiric⁽¹⁾ والمواكب الملكية والجنازات الأيرلندية؛ ولكن هذا الركب المنطلق بالملكية الفرنسية وهي تسير إلى مهدما أمر ينتظرنا لنشده. فعلى امتداد أميال عديدة بعرض يتلاشى في زوايا الغموض والإبهام - ذلك أن كل المنطقة المجاورة تتجهز لتطلع. يسير الجمع في بطء ويركد في مضيقه حتى ليكاد يأسن، كأنه بحيرة بلا شواطئ، ولها مع ذلك لجب ضجة تشبه ضجعة شلالات نياجرا، أو تشبه بابل وبدلام⁽²⁾. ويحدث ضرب بالأرجل في الماء ودوس بها على الأرض. ثم ارتداع أصوات بالهتاف والعجيج وإطلاق وابل من طلقات القرايبينات؛ إنها أصدق قطعة من الفوضى شوهدت في تلك العصور الأخيرة! حتى تصب نفسها رويدًا رويدًا ساعة عتمة الغسق المكاثفة، في باريس المنظرة، بين صف مزدوج من الوجوه يمتد من بأسى إلى دار البلدية.

تأمل هذا: مقدمة من جند الحرس الوطني، من خلفها أرتال من المدفعية؛ ورجال يحملون الرماح ونساء بالحرايب؛ يركبون المدافع والعربات والمركبات، أو يسيرون على الأقدام.. أرغفة قد رشقت على سن السونيكيات، وغصون خضراء قد رفعت في أنابيب البنادق. ثم يأتي بعد ذلك الموكب الرئيسي، خمسون عربية محملة بالقمح، أقرضت لهم من مخازن فرساي التماسًا للسلام. يسير من خلفها جماعة لا وجه لهم من رجال الحرس الخاص؛ وقد غلبت عليهم الذلة وهم في قبعات الحرس المشاة (الجرينادير). ومن خلف هؤلاء مباشرة تأتي المركبة الملكية. ثم تأتي مركبات ملكية. إن هناك مائة من النواب الوطنيين كذلك، يجلس من

(1) الكابري Cabiri: مجموعة من الآلهة كانت تعبد في الأزمنة القديمة بأسيا الصغرى وأجزاء من بلاد اليونان. وكانت قوى شيطانية في العالم السفلي كما كان يعتقد أنها المتحكم في الخصوبة. (المترجم).

(2) بدلام: أقدم مستشفى للمجانين بأوربا. (المترجم).

بينهم ميراو وهو لا يبدي أية ملحوظة. ثم يأتي خليط من الحابل والنابل يسرون كأنهم حرس المؤخرة، من الفلاندريين، والسويسريين والمائة سويسري وآخرون من الحرس الخاص وقطاع طرق وكل من لا يستطيع أن يتقدم إلى الأمام.

وفيما بين أطواء هذه الجموع تفيض بغير حدود أهالي حي سانت أنطوان وكتيبة التشرذمة السائية. ويسير النساء بوجه خاص حول المركبة الملكية.. متشحات بالألوان الثلاثة وهن يغنين أغاني كل ما لهن من اللمز، ويشرن بإيديهن إلى المركبة الملكية التي يقصدن بها ذلك اللمز، ويشرن باليد الأخري إلى عربات الأطعمة، وتعلن هذه الألفاظ: تشجعوا أيها الإخوان! فلن نحتاج بعد الآن إلى الخبر، إنا محضرون لكم الخباز والخبازة وابن الخباز..

'ويلوث المطر الألوان المثلثة، ولكن لهيب السرور متقد لا يستطيع إطفاءه أي شيء. ألم يصبك شيء الآن على ما يرام؟ قال بعض هؤلاء النساء القويات بعد ذلك ببضع أيام - آه يا مدام يا ملكتنا الطيبة، لا تعودى إلى الخيانة مرة أخرى حتى نحبك كلنا!'

كان ذلك هو يوم ٦ أكتوبر ١٧٨٩. وأقامت الأسرة المالكة في التويلري قرابة سنتين لم يكد صدقوها أثناءهما مكدرا. فلو أن البلاط حافظ على عهده العادي مع الشعب، فقل الملك كان يموت هناك وهو وبعد ملك. حافظت الثورة الأولى على كيانها من ١٧٨٩ إلى ١٧٩١، وأصبحت فرنسا ملكية مقيدة، واحتفظ الملك بسلطان منقوص في قصر التويلري، وطفقت الجمعية الوطنية تحكم قطراً شمله السلام. فلو أن القارئ رجع إلى خرائط بولندة التي قدمناها في الفصل السالف، لعرف ما كان يشغل روسيا وبروسيا والنمسا في ذلك الأوان. فعلى حين كانت فرنسا تنشئ التجارب في جمهورية متوجة في الغرب، كان يجري أخيراً تنظيم للجمهورية المتوجة^(١) في الشرق. وماذا لو أمهلت فرنسا قليلاً.

وإذا نحن تذكرنا عدم خبرة الجمعية، والظروف التي كانت تعمل في كنفها، والتغيرات المحيطة بكل شأنها، وجب علينا أن نسلم بأنها قامت بقدر جسيم جداً من العمل الإنشائي. وكان الشيء الكثير من ذلك العمل سليماً قوياً وما يزال باقياً إلى اليوم، وكان كثير منه تجريبياً. فهدم ونقض. وكان في بعضه الكوارث. فتمت تنقية قانون العقوبات؛ وألغى التعذيب، والحبس التعسفي، والاضطهادات الدينية. وأخلت مقاطعات فرنسا القديمة: نورمانديا وبورغندي وأشباههما مكانها لثمانين محافظة أو قسماً إدارياً وجعل باب الترقى إلى أقصى رتب الجيش مفتوحاً للرجال من كل الطبقات. وأقيم نظام بديع بسيط من المحاكم، ولكن أفسده كثيراً أن القضاة كانوا يعينون بانتخاب شعبي ولأجل قصير. فكان هذا الأمر يجعل من الجمهور نوعاً من محكمة استئناف نهائية، واضطر القضاة - شأن أعضاء الجمعية أن يمثلوا لأهل الشرفه^(٢). واستولت الدولة على جميع ما كان للكنيسة من أملاك هائلة وأخذت تديرها بنفسها. وقوضت كل المؤسسات الدينية التي لا تشغل بالتعليم أو الإحسان، وجعلت مرتبات رجال الدين فرضاً على الأمة. ولم يكن هذا في حد ذاته شيئاً تكرهه

(١) يريد بها المؤلف دولة بولندة التي اقتسمتها تلك الدول الثلاث. انظر المعالم ص ١١١٦ وما بعدها ج ٤ ط ٢. (المترجم).

(٢) وهو تعبير مجازي: معناه محاولة الحصول على الشعبية باسترضاء وممالة أنواق الدهماء وتحيزاتها وأهوائها. (المترجم).

الطبقة الدنيا من رجال الدين بفرنسا، الذين كانوا في غالب الأحيان يتناولون أجوراً بخسة ب شكل فاضح بالموازنة إلى رؤسائهم الأكثر ثروة. ولكن أضيف إلى ذلك أن وظائف القسيسين والأساقفة جعلت بالانتخاب، وهو أمر أصاب الفكرة الأساسية للكنيسة الكاثوليكية في الصميم، وهي التي كانت تركز كل شيء حول البابا، والتي تأتي فيها السلطة من أعلى إلى أسفل. والواقع العملي أن الجمعية الوطنية أرادت أن تجعل الكنيسة الفرنسية بروتستانتيية بضربة واحدة، بروتستانتيية في التنظيم إن لم يكن في المبادئ. وحدثت في كل مكان مناقشات ومنازعات بين قسوس الدولة الذين أنشأهم الجمعية العمومية وبين القسيسين المعاندين (الذين لا يحلفون اليمين)، الذين أخلصوا الولاء لروما.

وهناك شيء عجيب فعلته الجمعية الوطنية فكان من أثره أن أضعف من قبضتها على زمام الأمور؛ إذ إنها أصدرت مرسوماً يقضي بأن لا يكون أي عضو من أعضائها وزيراً تنفيذياً. وكان ذلك محاكمة منهم للدستور الأمريكي، حيث الوزراء هناك أيضاً منفصلون عن الهيئة التشريعية. وكانت الطريقة الإنجليزية تقضي بأن يكون كل الوزراء أعضاء في الهيئة التشريعية، وأن يكونوا على استعداد للإجابة على الأسئلة وتقديم الحساب عن تفسيرهم للقوانين وإدارتهم لشئون الشعب. فإذا كانت الهيئة التشريعية تمثل الشعب ذات السيادة، وجب إذن ولا شك أن يكون الوزراء على أوثق اتصال بسيدهم. وتسبب عن فصل الهيئة التشريعية عن التنفيذية بفرنسا حدوث كثير من سوء التفاهم وعدم الثقة. إذ كانت السلطة التشريعية تعوزها بالسيطرة والسلطة التنفيذية فقيرة في القوة المعنوية. فأفضى هذا إلى أن أصبحت الحكومة المركزية غير فعالة إلى حد أنه كانت تكتشف في كثير من النواحي في ذلك الزمان كومونات (أحياء) ومدن يتبين أنها مجتمعات تحكم نفسها بنفسها أو تكاد؛ فكانوا يقبلون أوامر باريس أو يرفضونها حسبما يمليه عليهم هواهم، ويأبون دفع الضرائب، ويقسمون أرض الكنيسة طبقاً لمشتبهاتهم المحلية.

١٠ - ثورة اليعاقبة

من المحتمل جدًا أنه لو أن الجمعية الوطنية حصلت على عون من التاج يتجلى فيه الإخلاص ووطنية يتبدى فيها التعقل من جانب النبلاء، فمضى أن كانت تلك الجمعية تتعثر في طريقها حتى تصل إلى شكل ثابت لحكومة برلمانية لفرنسا - بالرغم من شرفاتها العالية العجيب وبالرغم من غلبة روح روسو وعليه ما ومن ضئولة خبرتها - وكان لها في ميرابو رجل دولة له بصيرة نافذة باحتياجات العصر. وكان يعرف مواطن القوة والضعف في النظام البريطاني، وكان جليًا أنه قد نصب نفسه ليؤسس في فرنسا نظامًا سياسيًا مماثلاً للإنجليزي على أساس اقتراع أفسح مجالاً وأشد أمانة وشفافاً. حقاً إنه قد استمر نوعاً من الغزل الروماني (١) مع الملكة وكان يلقاها خفية، ويصرح عنها جاداً غير مازح أنها هي "الرجل الوحيد" حول الملك، ويكاد في هذا الأمر أن يصمم نفسه بالعباء والحماقة. على أن خططه كانت تقوم على نطاق أوسع كثيراً من نطاق سلام التويلري الخفية. ولا شك أن فرنسا فقدت بموته ١٧٩١ واحداً من أشد سياسيينها قدرة بناءة، وكذلك فقدت الجمعية الوطنية آخر فرصة للتعاون مع الملك. وحيثما وجد بلاط ملكي كان هناك في العادة التآمر، وكانت تدبيرات الملكيين وبث الملكيين للشر آخر قشة يضعونها في كفة الميزان ضد الجمعية الوطنية. ولا يمكن الملكيون يهتمون بميرابو ولا كانوا يهتمون بفرنسا؛ وكل ما كانوا يريدونه هو الرجوع وكفى إلى فردوس امتيازاتهم المفقود، وإلى صلفهم، وسرفهم الذي لا حد له. وخيل إليهم أنهم لو اس تطاعوا فقط أن يعقدوا الأمور على حكومة الجمعية الوطنية ليجعلوا إدارتها للشؤون أمراً مستحيلاً، فإن العظام الرميم النخرة عظام الدولة القديمة لا بد أن تبعث من جديد حية بمعجزة من المعجزات. ولم يخالفهم أي إدراك للاحتمال الآخر وهو هوة الجمهوريين المتطرفين التي كانت فاعرة فاهما تحت أقدامهم.

وفي إحدى ليالي شهر يونيه من ١٧٩١، حدث بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل، أن الملك والملكة وطفليهما انسلا متكرين من قصر التويلري ثم اخترقوا باريس وجلين، وداروا من شمال المدينة إلى الشرق، حتى وصلوا آخر الأمر إلى عربة سفر كانت معدة لنقلهم إلى شالون. كانوا يفرون لئلا تضام إلى جيش الشرق إذ كان جيش الشرق "موالياً" أي إن قائده وضباطه على الأقل كانوا على استعداد للتخفي عن فرنسا ولانضمام إلى الملك وبلاطه. وهكذا وصلنا آخر الأمر إلى المغامرات التي تروق فؤاد الملكة، ويستطيع الإنسان أن يتخيل ويفهم النشوة والسرور يعم الفئة الصغيرة والأميال تباعد بينها وبين باريس. وكان ينتظرهم فوق التلال البعيدة، التوقيير والانحناء العميق ولثم الأيدي ثم تأتي العودة إلى فرساي. وإطلاق يسير للنار على دهماء باريس وبعض طلقات من المدافع إذا استلزم الأمر وإعدام بعض الناس وإن لم يكونوا من ذوي المكانة. وعهد إرهاب أبيض (٢) يستمر أشهراً قللت. ثم يعود كل شيء فيصبح على خير ما يدبره. وربما عاد كالووني أيضاً ومعه تدبيرات مالية جديدة. وكان في ذلك الوقت مشغولاً بجمع المدمرين بين

(١) في ذلك إشارة إلى رواية سجين زندا التي عشق الملكة فيها نبيل إنجليزي عشقاً عذرياً. (المترجم).

(٢) كان اللون الأبيض شعار آل بوربون. (المترجم)

ظهراني الأمراء الألمان. وهناك عدد جم من القصور لا بد من إعادة بنائها، ولن يكاد يكون في م استطاع القوم الذين أحرقوها أن يتشكّوا إن وقع عبء إعادة بنائها ثقيلاً فادحاً نوعاً ما على أعناقهم الفترة.

على أن كل هذه الأمانى الزاهية المرجوة ما لبثت حتى تحطمت في تلك الليلة تحطماً قاسياً عند فارن. فإن صاحب دار خيل البريد عرف الملك في سانت مين هولد، وبينما الليل يرخى سدوله كان ينطلق في ج و الطرق المؤدية شرقاً وقع سنايك خيول الرسل وهم يوقظون البلايد ويداولون أن يقطعوا الطريق على الهاربين. وكانت هناك خيل أخرى على أهبة الانتظار في القرية العليا من فارن وكان الضابط الشاب المنوط بالنوبة قد انصرف عن الملك فترة الليل وأوى إلى فراشه - على حين ظل الملك المسكين مدة نصف ساعة في القرية السفلى وهو يتنازع مرتدياً ثياب الخدم - مع الحوذي والسواس الذين كانوا يتوقعون أن يجدوا أبدالهم في القرية السفلى ويرفضون أن يتقدموا بالعربة خطوة واحدة. وأخيراً رضوا أن يواصلوا المسير. ولكن رضاهم جاء بعد فوات الأوان. فإن الفئة القليلة وجدت هناك ناظر البريد بسانت مين هولد - بعد أن سبقها والسواس في لجأهم يجادلون - ومعه ثلة قد جمعها من الجمهوريين المحترمين في فارن؛ وانتظر بها عند الجسر الموصل بين جزئي المدينة. وأقيمت على الجسر المتاريس. وصوبت القرايبات إلى المركبة، وقيل لمن فيها: 'جواز سفركم!' عندئذ سلم الملك بدون مقاومة. وأخذت الفئة الصغيرة إلى منزل أحد موظفي القرية. قال الملك 'حسناً! ها أنا ذا بين أيديكم!' ثم ذكر كذلك أنه جوعان. وأثنى أثناء تناوله الطعام على النبيذ وقال 'نبيذ ممتاز جداً' ولم يسجل أحد لنا ما قالته الملكة. وكانت هناك جنود ملكية على مقربة من المكان ولكنهم لم يحاولوا أن ينقذوا الملك. وأخذ جرس الخطر يرق وأضاءت القرية نفسها تحرزاً من المباحة.

ومن ثم عاد إلى باريس حمل العربة الملكية مهيبضاً ذليلاً، وقابلته جماهير غفيرة في صمت وسكون. إذ سرى بين الجماهير النذير بأن من اجتراً على إهانة الملك جلد، ومن هتف له يقتل..

لم يحدث إلا بعد هذه المغامرة الحمقاء أن استولت فكرة الجمهورية على أذهان الفرنسيين. أجل كانت تخالجات الناس لا ريب قبل هذا الفرار إلى فارن عاطفة مبهمة نحو الجمهورية، ولكن لم يكن ذلك في فرنسا أحد من الناس يجهر برغبته في إلغاء الملكية. وقد حدث حتى في شهر يولييه يوم لم ينقض على الفرار إلا شهر واحد، حين عقد اجتماع عظيم في شأن دي مارس (Champ de Mars)، لتعصيد القيام بمس بعزل الملك - أن فرقت السلطات شمله، وقتل فيه خلق كثير، ولكن مظاهر الحزم هذه لم تحل بين الدرس المستفاد من ذلك الفرار وبين التغلغل إلى أذهان الرجال. وكما حدث في إنجلترا في أيام شارل الأول فكذلك حدث الآن في فرنسا، أن أدرك الناس أن الملك لم يكن ليؤتمن - وأنه مصدر خطر. وقويت شوكة اليقابة بسرعة. وشرع زعماءهم رويسبير ودانتون ومارا الذين كانوا يلوحون حتى آنذاك بملاحة مستحيلين، أن يتسلطوا على الشؤون الفرنسية.

وكان هؤلاء اليقابة نظير الراديكاليين الأمريكيين، وهم رجال نوو فكارات تقديمية ضاربة غير مروضة. وتقوم قوتهم على خلوهم مما يعوق الناس من مال أو سلطان وأن لهم مضاء واستقامة. كانوا رجالاً فقراء ليس لديهم ما يخشون فقده. وكان حزب: "الاعتدال" والتفاهم مع بقايا النظام القديم يقوده رجال من

ذوي المكانة الوطيدة أمثال الجنرال لافاييت، الذي ميز نفسه في شبابه بقتاله متطوعاً في صفوف المستوطنين الأمريكيين، وميرابو وهو أرسقراطي كان على استعداد أن يصوغ نفسه على غرار أرسقراطية الإنجليز الأغنياء الواسعي النفوذ. بيد أن روبسبير كان محامياً شاباً فقيراً ذكياً من أراس، كان أثنى ما يملكه هو إيمانه بروسو؛ وكان دانتون محامياً هو الآخر بباريس، ولكنه لا يكاد يفوقه ثراء، وكان شخصاً ضخماً كثير الإشارة ببلغ العبارة ميالاً إلى الأسلوب الخطابي، فأما مارا فكان رجلاً أسنّ منها وكان سويسرياً على شيء من الامتياز العلمي وإن عادلها في انطلاق سراحه من كل ما يكبل الناس من الأموال والممتلكات. قضى سنوات عديدة في إنجلترا وكان يحمل شهادة الدكتوراة الفخرية في الطب من جامعة سانت أندروز، وله في علم الطب بعض مقالات قيمة نشرها بالإنجليزية. وكان كتابه في علم الفوزيقي موضع إعجاب كليل من بنيامين فرانكلين وجيته. فهذا هو الذي يسميه كارليل "الكلب الكلب" و "القطيع" و "القدر" و "مطبخ الطلاب". ولعل هذه الكنية الأخيرة جاءت من قبيل الاعتراف بفضل علمه!!

دعت الثورة مارا أن يخوض غمار السياسة، وكانت أقدم ثمار قريحته التي أدلى بها في معمران جدلها العظيم تمتاز بالسداد وسلامة التفكير. وكانت تنتشر في فرنسا فكرة خاطئة تقول بأن إنجلترا أرض حرة. ولكن مقالته التي جعل عنوانها "عيوب الدستور الإنجليزي" تبين حقيقة الأوضاع الإنجليزية. وقد جن جنونه في سنيه الأخيرة لإصابته بمرض جلدي لا يكاد يطاق انتقل إليه عندما كان مختبئاً إبان الثورة في مجاري باريس فراراً من عواقب اتهامه الملك ووصفه إياه بالخيانة بعد فراره إلى فارن. ولم يكن يستطيع أن يجمع شوارده لذهنه للكتابة إلا وهو جالس في حمام حار. لقد لقي معاملة شديدة وقاسى الآلام، فأصبح شديداً قاسياً الفؤاد، ومع هذا فإنه يبرز في التاريخ بوصفه رجلاً ذا نزاهة ممتازة. ويلوح أن فقره بوجه خاص كان يستثير سخرية كارليل منه.

'يا لطول الطريق الذي قطعه!!' وما هو الآن يجلس عند قرابة الساعة السابعة والنصف، وهو يسلق نفسه في حمامه، متفرح الجسد؛ مصاباً بالسقام، مريضاً بحمى الثورة.. رجلاً عليلًا مضنى مفرطاً في العلة والضعف، فقيراً مملقاً معه من النقود ما يعادل بالضبط أربعة قروش وستة مليمات من العملة الورقية؛ مع حمام على صورة حذاء، ونضد للكتابة متين بثلاثة أرجل، ومتاعب، ومعه غسالة قذرة تقوم بمرافق بيته... ذلك هو مسكنه ومثواه في شارع مدرسة الطب. وإلى هذا المكان دون أي مكان آخر اقتاده سبيله... أنصت! فإن هناك طرقاتاً ثانياً، وإن هناك لصوتاً موسيقياً لامراً، وهي تأبى أن تحرم الدخول: إنها هي المواطنة التي تريد أن تؤدي لفرنسا خدمة. وإذ يسمع مارا الحوار من الداخل، يصيح أن أدخلها. ويؤذن لشارلوت كورداي بالدخول".

وقد عرضت البطلة الشابة أن تقدم إليه بعض المعلومات الضرورية حول الثورة التي قامت ضدهم في كايين، وبينما هو مشغول في تدوين ما أدلت به من حقائق، طعنته بسكين كبيرة ذات غمد (١٧٩٢).

تلك صفة معظم زعماء حزب اليقافية. فإنهم كانوا رجالاً لا أملاك لهم، رجالاً لا قيد من دنس يغزل أيديهم. وكانوا أقل ترابطاً ببعضهم البعض وأقرب إلى الطبيعة الآلية من أي حزب آخر. وكانوا على استعداد

أن يدفعوا بفكرات الحرية والمساواة إلى غاية متطرفة منطقية. وكانت معايير الفضيلة الوطنية عندهم عالية وخشنة وكان هناك شيء غير إنساني حتى في حميتهم لحب الخير. وكانوا ممتعزين مما يرون من ميل المعتدلين إلى تلطيف الأمور وتسكينها، وإلى إبقاء العامة في حالة احتياج هونا ما وإلزامهم احترام للغير شيئاً ما، وأن يجعلوا الملكية (وذوي الاعتبار من الرجال) موقرين قليلاً ما، وقد أعمتهم عبارات مذهب روسو عن الحقيقة التاريخية القائلة بأن الإنسان يكون بطبعه إما ظالماً أو مظلوماً، وأن الناس لن يجعلوا سعداء أحد راراً إلا ببطء بواسطة القانون والتعليم وروح المحبة في العالم.

وبينما حدث في أمريكا أن صيغ ديمقراطية القرن الثامن عشر كانت في جملتها مستهضة للناس معينة لهم، لأنها كانت بالفعل أرض المساواة العملية في الهواء الطلق ما اختص الأمر بالبيض من الرجال، فقد أنتجت هذه المبادئ في فرنسا خليطاً جنونياً خطراً على سكان المدن لأن أجزاء جسيمة من مدن فرنسا كانت أحياء فقيرة مليئة بأقوام ممن جردوا من أملاكهم وانحلت أخلاقهم وانحطت مرتبتهم وتم ررت أرواحهم. وكانت جماهير باريس بوجه خاص في حالة يأس خطيرة، لأن صناعات باريس كانت في معظمها صناعات ترف. وكان الشيء الكثير من أعمالها من النوع الطفيلي الذي يعيش على نقائص الطبقة الراقية وراثته. والآن وقد ولى عالم أهل النعيم وذهب إلى ما وراء الحدود، وصار الحال إلى التضيق على المسافرين، وداخل الاضطراب الأعمال، أصبحت المدينة مليئة بأقوام عاطلين غاضبين. ولكن الملكيين بدل أن يدركوا حقيقة هؤلاء اليعاقبة وما هم عليه من أمانة خطيرة وما لهم من سلطان خطر على خيال الدهماء، قد بلغ من اغترارهم بأنفسهم أنهم ظنوا أن في إمكانهم أن يتخذوا منهم أداة يعملون بها. وكان موعد إدلال الجمعية التشريعية محل الجمعية الوطنية تطبيقاً للدستور الجديد قد قرب أوانه، وعندما اقترح اليعاقبة بقصد تمزيق شمل المعتدلين ألا يكون لأحد من أعضاء الجمعية الوطنية الحق في عضوية الجمعية التشريعية، انضم إليهم الملكيون في جدل عظيم وأنفذوا الاقتراح. ذلك أنهم أدركوا أن الجمعية التشريعية وقد اجتثت منها على تلك الشاكلة كل خبرة وتجربة، سوف تكون ولا مزية هيئة ذات كفاية من الناحية السياسية. وعند ذلك يعود عليهم الإفراط في الشر بالخير العميم"، وعند ذلك تعود فرنسا فتهدى صريعة لامين لها في أيدي ساداتها الشرعيين. هكذا دبوا وقدروا. بل لقد فعل الملكيون أكثر من هذا. فإنهم ناصروا انتخاب أحد اليعاقبة عمدة باريس. وكأنني بهذا التصرف في نكاء من يجتلب إلى منزله نمرًا جائعًا ليقتنع زوجته بحاجتها إليه. وهي هيئة أخرى تقف مستعدة عن كثب وإن لم يحسب هؤلاء الملكيون حسابها، وكانت أحسن عمدة من البلاط وأقدر على التقدم أمامًا والحلول محل جمعية تشريعية غير فعالة، تلك هي كوميون باريس (أي هيئتها البلدية) القوي وهي هيئة قوية النزعات اليعقوبية مقرها دار البلدية.

وكانت فرنسا لا تزال حتى ذلك الحين تستظل السلام. فلم يهاجمها أحد من جيرانها، لما بدا لهم من إضعافها نفسها بانقساماتها الداخلية. فأما الضحية التي قاست الآلام من جراء ارتباك الحالة في فرنسا فهي بولندة. ولكن لم يكن لدى جيرانها مانع يحول دون إهانتها وتهديدها وتمهيد السبيل لاقتسام تام عند ما يحطو بهم ذلك. واجتمع ملك بروسيا وإمبراطور النمسا في بلنيتز Pilnitz ١٧٩١، وأصدرا تصريحاً يقول إن

إعادة النظام والملكية في فرنسا أمر له أهميته لدى كل الملوك. وسد مح الجيش من المهجرين وبلاء الفرنسيين وسراهم وهو جيش يتكون في معظمه من الضباط - بالتجمع على مسافة دانية من الحدود.

وكانت فرنسا هي البائدة بإعلان الحرب على النمسا. وكانت الدوافع التي خالجت نفوس من ناصد روا هذه الحركة دوافع متنازعة. فإن كثيرًا من الجمهوريين كانوا يرغبون في ذلك لأنهم كانوا يشتهون أن يروا ذوي قرباهم سكان بلجيكا وقد تحرروا من النير النمساوي. وكان كثير من الملكيين يرغبون فيها لأنهم كانوا يرون في الحرب احتمالاً لإعادة هيبة الملكية وسلطانها. وعارضها مارا معارضة مريرة في صحيفته صديق الشعب (L'Ami du Peuple) لأنه لم يكن يرغب أن تتحول الحماسة للجمهورية إلى حمى حرب. وقد دحرته غريزته من نابليون. وفي ٢٠ إبريل ١٧٩٢ جاء الملك إلى الجمعية واقترح بين مظاهر الاستدسان العظيم إعلان الحرب.

وابدأت الحرب بكارثة. فإن جيوشاً فرنسية ثلاثة دخلت بلاد البلجيكي؛ فهزم اثنا منها هزيمة منكرة، وتراجع الثالث وكان بقيادة لافاييت. وعند ذلك أعلنت بروسيا الحرب مؤازرة منها للنمسا، واستعدت الجيوش المتحالفة لغزو فرنسا تحت قيادة الدوق برنزيوك. وأصدر الدوق إعلاناً من أشد إعلانات التاريخ نزقاً؛ فإنه قال إنه يغزو فرنسا ليعيد سلطان الملكية إلى نصابه. وإن أية إهانة أخرى تلحق بالعرش الفرنسي سينقم لها من الجمعية التشريعية وباريس "بالإعدام العسكري رمياً بالرصاص". وكان هذا كافياً لتحويل أشد الفرنسيين ملكية إلى المذهب الجمهوري - لمدة الحرب على الأقل.

وكان الدور الجديد من أدوار الثورة، وهو الثورة العنقوبية، هو الثمرة المباشرة لهذا الإعلان. ذلك أنه جعل من المحال استمرار جهود الجمعية التشريعية، التي كان يتسلط عليها الجمهوريون والنظاميون (الجيرونديون) والملكيون، كما جعل من المحال بقاء الحكومة التي أخدمت ذلك الاجتماع الجمهوري في الشأن دي مارس وتعقبت مارا حتى اختبأ بالمجاري. واجتمع العصاة في دار البلدية، وفي ١٠ أغسطس قامت بلدية (كوميون) باريس بهجوم على قصر التويلري.

وتصرف الملك بغباء سمج، وبذلك الاستخفاف بالغير الذي هو من امتيازات الملوك. وكان معه حرس سويسري مكون من ألف رجل كما كان معه حرس أهلي ولاؤه غير مضمون. فصمد صموداً مبهمًا حتى ابتدأ إطلاق النار، ثم انتقل إلى دار الجمعية وهي المجاورة له ليضع نفسه وعائلته تحت حمايتها، تاركاً حرسه السويسري يقاتل. ولا شك أنه كان يطمع في إلقاء الشقاق بين الجمعية وكوميون باريس، ولكن لم يكن لدى الجمعية ذرة من روح المقاومة التي كانت تستمع بها دار البلدية. ووضع اللاجئون الملكييون في مقصورة (لوج) معدة للصحفيين (وكانت تتصل بها حجرة صغيرة)، وهناك ظلوا ستة عشر ساعة بينما كانت الجمعية تتناقش في مصيرهم. وكانت تعلق في الخارج أصوات معركة ضخمة؛ وكان يحدث بين الآونة والأخرى أن تنكسر إحدى النوافذ. وكان السويسريون التعساء يقاتلون وظهورهم إلى الجدران، إذ لم يكن أمامهم من سبيل إلى غير ذلك.

ولم تجرؤ الجمعية على مناصرة الحكومة في تكرار ما عملته في شأن دي مارس في شهر يوليو هـ. إذ كانت قوة الكوميون الشرسة تتسلط عليها. ولم يجد الملك في الجمعية أية راحة لقواده فإنها عنفته وتناقت في إيقافه عن العمل'. وقاتل السويسريون حتى تلقوا من الملك أمراً بالكف عن القتال. وعند ذلك أعمل ل الجمهور فيهم قتلًا حتى قضى على معظمهم، أن كان الغضب قد بلغ به حتى التوحش من إجراء سفك الدماء الذي لا ضرورة له، وأن كان جنونه قد جن إلى حد لم يعد معه إلى ضبطه سبيل.

وكانت المحاولة الطويلة المملة لصوغ لويس في الغالب "الميروفنجي" ^(١) ولاستخراج جمهوري شريف متوج من ملك مطلق غبي غير قابل للتكيف، - قد قاربت آنذاك خاتمته المحزنة. فإن كوميون باريس كان قد تسلم بالفعل مقاليد السلطان في فرنسا. وأصدرت الجمعية التشريعية التي لحقها تغير ظاهر في شجاعتها، مرسومًا يقضي بإيقاف الملك عن القيام بمهام عمله؛ وأودعته المعبد، واستبدلت به لجنة تنفيذية ودعت مؤتمرًا وطنيًا لإنشاء دستور جديد.

وعندئذ أخذ توتر فرنسا الوطنية والجمهورية يصبح شيئًا لا يطاق. وكان كل ما تمتلك من جيوش يتحرج منهزمًا على الطريق المؤدية إلى باريس في حالة بأس واستسلام (الخريطة ١٨٥). وسقطت لونجزي (Longwy)، وعقبها قلعة فردان العظيمة، ولم يكن يبدو هناك أي احتمال لإيقاف تقدم الحلفاء على العاصمة. وارتفع الإحساس بالخيانة الملكية إلى حد ملأ الناس بقساوة الرعب. وكان لابد على كل حال من إسكات الملكيين وغل أيديهم وإرهابهم حتى يختفوا عن الأنظار. ونصب كوميون باريس نفسه لمطاردة كل ملكي يمكن العثور عليه، حتى اكتظت بهم سجون باريس. ورأى مارا شبح المذبحة مقبلاً. فحاول أن يفوز بإنشاء محاكم الطوارئ قبل أن يفوت الأوان بقصد تمييز البريء من المذنب في هذا الخطيئة العظيم من المتأمرين، والمشتبه فيهم والسراة غير المذنبين. ولكنهم تجاهلوه، وحدثت في أوائل سبتمبر المذبحة التي لا بد منها.

ابتدأ الأمر على حين فجأة بأن عصابة من الرجال كانت تستولي على أحد السجون ثم على الآخر وهكذا. ثم تشكل ضرب من المحاكم المرتجلة الفجة. على حين يتجمع في الخارج صنف من الدهماء الضارية مسلحًا بالسيوف والخوازيق والبلط. وكان السجناء يقتادون من زناناتهم واحدًا بعد الآخر لافرق في ذلك بين رجل وامرأة، ثم يستجوبون استجوابًا وجيزًا، ويعفى عنهم بصيحة "لتحيى الأمة" Vive La "Nation" أو يقذف بهم إلى الدهماء على الأبواب. وهناك كان الجمهور يتدافع ويتقاتل ليحدث في الضحية جرحًا أو يصيبها بطعنة. وكان المحكوم عليهم يطعنون، ويمزقون إربًا ويضربون حتى يقضوا نحبهم، وكانت رؤوسهم تحتز وترفع على الخوازيق وتحمل في أرجاء المدينة وتلقى أجسادهم الممزقة جانبًا. وهكذا فيمن قتل الأميرة دي لا مبال التي تركها الملك والملكة في قصر التويلري. وحملت رأسها على رمح إلى المعبد لترأها الملكة.

(١) أي ملكا بلا سلطان كملوك الميروفنجيين الذين كان يتولى السلطة الفعلية دونهم ناظر القصر. (انظر المعالم ص ٣٠٠ ط ٢). (المترجم)

وكان في زنازاة الملكة اثنان من الحرس الوطني، رغب أحدهما في أن يجعلها تنظر من النافذة لتبصر هذا المشهد الفظيع، ولم يرغب زميله رحمة بها أن يسمح لها بفعل ذلك.

وفي نفس هذا الوقت الذي كانت هذه المأساة الدموية تجري فيه في باريس، كان الجنرال الفرديسي دومورييه يهرع بأحد الجيوش مسرعاً من فلاندر إلى غابة الأرجون، ويرد جيوش الحلفاء إلى ما وراء فردان. وحدثت عند فالمي في ٢٠ سبتمبر معركة انطوت في الغالب على تبادل إطلاق المدافع. وأوقف تقدم بروسي لم يكن مصحوباً بالعزم، وثبتت المشاة الفرنسية في مكانها، مذ كانت مدفعيتهم خيراً من مدفعي الحلفاء. وظل دوق برونزويك بعد ذلك عشرة أيام وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، ثم أخذ ينسحب إلى الراين. وكانت أعقاب شامبانيا الحامضة قد نشرت الدوسنتاريا في الجيش البروسي. ومعركة فالمي هذه - ولم تكن لتعدو كثيراً تبادل إطلاق المدافع - إحدى معارك التاريخ الفاصلة. وتم إنقاذ الثورة.

والتأم المؤتمر الوطني في ٢١ سبتمبر ١٧٩٢، وأعلن من فوره الجمهورية. ولم تكن تلك الأحداث تنتهي حتى تمت محاكمة الملك وإعدامه كنوع من الضرورة المنطقية. مات الملك بوصفه رمزاً لا بوصفه رجلاً. إذ لم يجدوا أمامهم غير ذلك شيئاً يفعلونه به، يا له من مسكين، فإنه كان يسد مسالك الأرض. ولم تكن فرنسا لتستطيع أن تدعه يذهب ليشجع المهاجرين، ولا هي بمستطاعة أن تمنعه من إحداث الشر في بلاده؛ فكان وجوده مصدر تهديد لها. وكان مارا قد حض في غير هواة على القيام بهذه المحاكمة قبل أن يوقع الدستور، لأنه يكون قبل ذلك ملكاً فعلياً، ويكون فوق القانون وبذا لا يمكن أن يكون غير شرعي. كذلك لم يكن مارا ليقبل السماح بالطعن في محامي الملك... والواقع أن مارا قد لعب في الموضوع من أوله إلى آخره دوراً مريزاً غير أنه دور عادل في الغالب؛ كان رجلاً عظيماً، ذا ذكاء لطيف ممتاز، في إهاب من نار؛ يعصف به ذلك البغض العضوي المستقر في الدم، والذي ليس من ثمار العقل بل الجسد.

وقطعت رأس لويس في يناير ١٧٩٣. احتزت بالمقصلة لأن المقصلة (الجيل وتين) أصد بحث منذ أغسطس السابق أداة الإعدام الرسمية في فرنسا. وكان دانتون فيما اتخذ لنفسه من دور الأسد ممتازاً جداً في هذه المناسبة. فلقد زار بأجهر صوت قائلاً: "يريد ملوك أوروبا أن يتحدثونا، وها نحن أولاء نلقي إليهم رأس أحد الملوك".

١١- جمهورية اليعاقبة ١٧٩٢ - ١٧٩٤

ثم جاء بعد ذلك دور غريب في تاريخ الشعب الفرنسي. فقد توقد وميض لهب عظيم من التحمس لفرنسا والجمهورية. وانعقدت العزائم على وضع حد لروح المسالمة داخل فرنسا وخارجها، ففي الداخل أزمع القوم القضاء على الملكيين وكل شكل من أشكال عدم الولاء؛ وفي الخارج، صمموا أن تكون فرنسا حامية كل الثوريين ومعينتهم. ولا بد أن تصبح أوروبا كلها بل الدنيا كلها جمهورية في تكوينها. وانتال شباب فرنسا إلى الجيوش الجمهورية انثيالاً. وانتشرت في كل أرجاء البلاد أغنية جديدة مدهشة وهي أغنية لا تزال تعمل في إحماء الدم فعل الصهباء هي "المارسييليز". وتندرجت إلى اللواء الجيوش الأجنبية تلقاء هذه الأنشودة وطوابير الوثابيين من حملة السونكي الفرنسيين ومدافعهم المنطلقة في حماسة. وقبل أن تأتي خاتمة ١٧٩٢ كانت الجيوش الفرنسية قد بلغت مدى تجاوز كل ما أحرزه الملك لويس الرابع عشر؛ وإذا هم يطؤون في كل مكان أرضاً أجنبية. كانوا في بروكسل وكانوا اجتاحتوا سافويا، وأغاروا حتى ماينس Mayence، واستولوا من هولندة على الشلد. وعند ذلك فعلت الحكومة الفرنسية فعلة خرقاء. إذ كان أسخطها طرد ممثلها من إنجلترا عند إعدام لويس، فأعلنت الحرب على إنجلترا. كانت فعلة خرقاء لأن الثورة التي أعطت فرنسا مشاة جديدة متحمسة ومدفعية زاكية متحررة من ضباطها الأرستقراطيين ومن كثير من التقاليد الموقوفة، قد أفسدت نظام بحريتها وكان للإنجليز السيادة في البحر. ووجد هذا الاستفزاز كلمة إنجلترا كلها ضد فرنسا، بعد أن كان هناك في بداية الأمر حركة متحررة كبيرة تعطف على الجمهورية.

ولسنا بمستطيعين أن ننبتك في أي تفصيل حديث القتال الذي قامت به فرنسا في السنوات القليلة التالية ضد تحالف أوربي. فأزاحت النموسيين إلى الأبد من بلجيكا، وحولت هولندة إلى جمهورية. وسلم الأسطول الهولندي وقد تجمد حوله الماء في نهر التكنسل، لحفنة من الفرسان دون أن يطلق من مدافعه قذيفة واحدة. وتوقفت هجمات الفرنسيين نحو إيطاليا ربحاً من الزمان، ولم يحدث إلا في عام ١٧٩٦ أن جنرالاً جديداً هو نابليون بونابرت، اقتاد الجيوش الجمهورية المهلهلة الثياب مظفرة عبر بيدمونت إلى مانتو وفيرونا. ولا يستطيع كتاب معالم تاريخية أن يصور لك الحملات بدقة؛ غير أنه ملزم أن يلحظ الصفة الجديدة التي ظهرت في الحرب. كانت الجيوش المحترفة القديمة تحارب لا غاية لها إلا القتال ذاته، وتسعى في بطء و تراخ، كالعمال الذين يشتغلون بالساعة؛ وكانت هذه الجيوش المدمشة الجديدة تحارب من أجل النصر - وإن كان جائعة ظمئة. وكان أعداؤهم يسمونهم "الفرنسيين الجدد". يقول س. ف. أتكسون^(١): "كان أشد دماراً أدهش الحلفاء هو عدد هؤلاء الجمهوريين وسرعتهم. فالواقع أنه ما كان ليعوق هذه الجيوش المرتجلة أي عائق. فكان من المتعذر الحصول على الخيام بسبب انعدام المال. وكان في غير الإمكان نقلها بسبب العدد الهائل من العربات التي لا مفر عندئذ من الاحتياج إليها، وكانت كذلك غير ضرورية لأن المتاعب التي طالمها سببت تسلل الجند زرافات لوأذاً من الجيوش المحترفة، كان يتحملها رجال ١٧٩٣ - ١٧٩٤ مسرورين مغتبطين.

(١) في مقالته "الحروب الفرنسية الثورية" بالموسوعة البريطانية الطبعة الثانية عشرة.

كما أن المدد لهذه الجيوش التي لم يسمع الناس حتى ذلك الحين بمثل حجمها لم يكن من المستطاع حمله في قوافل، وسرعان ما تعلم الفرنسيون "فكرة العيش على حساب البلاد". وبذا شهدت ١٧٩٣ مولد طريقة الحرب العصرية: سرعة الحركة والتطور الكامل القوة الوطنية، والهجوم^(١) في العراء والاعتماد في الميمنة على البلد المقهور وحشد القوات وإجبار الأهالي على تقديم ما يلزم للجيش؛ وذلك كله مقابل المداورات الدخيرة، والجيوش الصغيرة المحترفة، والخيام والجرايات الكاملة والألعاب النارية. وكان الأولون يمثلون روح الحسم في الأمور، ويمثل الآخرون روح الخطار بالقليل للحصول على القليل.

وبينما كانت هذه الجيوش (العمرم) المتحمسة في أسماها البالية تشد "المارسيليز" وتقاتل من أجل فرنسا، دون أن يتضح لها تمام الوضوح فيما يبدو، هل كانت تنتهب الأقطار التي انثأوا إليها أو تحررها، كانت الحماسة الجمهورية في باريس تبذل نفسها بطريقة أقل مجداً وكرامة بكثير. وكان ماراوه و الرجل الوحيد ذو الذكاء القاهر بين اليعاقبة قد أصابه الجنون بسبب دانه العضال، وسرعان ما قتل. وكان دانتون سلسلة من الصواعق الوطنية؛ فلم يبق عندئذ غير روبسبير وتعصبه الراسخ الوطيد، فتسيطر على الموقف. ومن العسير أن يفضي الإنسان في هذا الرجل برأي، كان رجلاً ضعيف البنية خوفاً بطبعه مغروراً صلفاً. ولكن كان فيه ألزم مواهب القوة وهي الإيمان. كان يعتقد لا في رب يألفه الناس، بل في كائن عاقل بعيد، وكان يرى روسو نبياً لذلك الكائن. فصب نفسه لإنقاذ الجمهورية على الشاكلة التي يراها، وكان يتوهم أنه ليس في مستطاع أحد إلا إياه أن ينقذها. وبذا أصبح يعتقد أن بقاءه في دست الحكم إنقاذ للجمهورية. وكان يشير إلى أن الروح الحية في الجمهورية قد نشأت عن مذبة الملكيين وعن إعدام الملك. وقد دثت ورات كثيرة: شبت واحدة منها في الغرب في محافظة لافانديه، حيث ثار الأهالي ضد التجنيد وضد طرد رجال الدين الأصليين من ممتلكاتهم، وكان يقودهم فيها بعض النبلاء والقسيسين؛ وأخرى في الجنوب حيث ثارت ليون ومارسيليا وسمح ملكيو طولون لحامية إنجليزية وإسبانية بالنزول فيها. وكأنما ليس هناك أي جواب فعال على هذه الثورات إلا مواصلة قتل الملكيين. ولم يكن هناك شيء أحب من هذا إلى قساوة أفئدة سكان أحياء باريس الوضيعة. وأخذت محكمة الثورة تعمل بجهد، وابتدأت عملية نهب متواصلة.

وقد نفذ حكم الإعدام في مدة الثلاثة عشر شهراً السابقة على يونيه ١٧٩٦ في ١٢٢٠ شخصاً؛ ونفذ الإعدام في الأسابيع السبعة التالية في ١٣٧٦ شخصاً. وجاء اختراع المقصلة في أنسب الأوقات لهذه الحالة التي ألفت بمزاج الناس. وقضت المقصلة على الملكة، وكذلك قضت المقصلة على معظم خصوم روبسبير، وقضت المقصلة!!! على الملحنين الذين أنكروا وجود أي كائن عليّ أسمي؛ وقضت المقصلة على دانتون لأنه رأى أن قد بولغ في استعمال المقصلة!!!.. وكانت هذه الآلة الجديدة الجهنمية تدز يوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد أسبوع، الرعوس ثم المزيد من الرعوس ثم المزيد فالزبد، كما يتطلب مدمن الأفيون المزيد منه فالزبد!!!!....

(١) الهجوم: أي مبيت الجنود على الأرض دون خيام ولا لوازم معسكرات. (المترجم)

وكان دانتون ما يزال هو دانتون، إذ كان غضنفرًا فوق المقصلة وكان موقفه عليها مثاليًا. قال لا ضعف يا دانتون!"

وأعجب شيء وأدعاه إلى الضحك أن روبسبير كان شريفًا شرفًا لا يتطرق إليه الشك. بل لقد كان أشرف بكثير من أي فرد من جماعة الرجال الذين خلفوه وكان يطيف به إلهام يبيت فيه رغبة حارة في إنشاء نظام جديد للحياة الإنسانية. وأخذت لجنة الأمن العام وهي حكومة الاثنا عشر للطوارئ وهي التي كانت عند ذاك دفعت بالمؤتمر جانبًا، تقوم بعمل إنشائي بالقدر الذي استطاع أن يستنبطه لها روبسبير. وكان المعيار الذي حاولت أن تقيم عليه عملها البناء هائلًا ضخماً. فإن كل المسائل المعقدة التي لا بد لنا اليوم من الكفاح وإياها قوبلت بحلول سريعة سطحية ضحلة وبذلت محاولات للتسوية بين الناس في العقار. قال القديس جوست "الثراء شناعة". فضربت الضرائب على أملاك الأغنياء أو صودرت لتقسيمها بين الفقراء. وكان لابد من أن يحصل كل رجل على منزل آمن ومورد رزق وزوجة وأولاد. وكان العامل جديرًا بأجره، ولكن ليس له الحق في الحصول على منفعة من المنافع. وجرت محاولة لإلغاء الربح إلغاء تامًا، وهو الدافع الخشن الفج لمعظم أعمال التجارة بين الناس منذ ابتداء الجماعة الإنسانية. والربح هو اللغز الاقتصادي الذي ما يزال يشكل علينا إلى اليوم. وصدرت قوانين عنيقة ضد الاستغلال بالسوق السوداء بفرنسا في ١٧٩٣. ووجد دير بالذكر أن إنجلترا وجدت نفسها في ١٩١٩ مضطرة أن تصدر قوانين أشبه ما تكون بتلك. ولم يقد صر هـ م حكومة اليعاقبة فقط على مجرد إعادة تخطيط النظام الاقتصادي - في معالم صريحة - بل تجاوزته إلى النظام الاجتماعي كذلك. فجعل الطلاق في نفس سهولة الزواج، وألغى التمييز بين الأطفال الشرعيين وغير الشرعيين. واستحدث تقويم جديد، مع أسماء جديدة للشهور وأسابيع مكونة من عشرة أيام وما إلى ذلك - وقد أزيل كل ذلك منذ زمن بعيد؛ وكذلك أخلت العملة السمجة والموازين والمقاييس المعقدة بفرنسا القديمة مكانها - للطريقة العشرية البسيطة الواضحة التي لا تزال موجودة... وتقدمت بعض الفئات المتطرفة تقترح إلغاء 'الله' فيما يلغى من النظم الأخرى تمام الإلغاء، واستبدال عبادة العقل به. وأقيمت بالفعل حفلة للعقل بكانترائية نوتردام اتخذت فيها إحدى حسان الممثلات ربة للعقل. ولكن روبسبير وقف في وجه هذه الحركة إذ إنه لم يكن ملحدًا. قال 'إنما الإلحاد نزعة أرستقراطية' فأما الفكرة القائلة بذلك الكائن العلي الذي يراقب البشري المظلوم ويكلؤه ويعاقب المجرم الظافر، إنما هي بالضرورة فكرة الشعب". ولذا قضى بالمقصلة على هيبي ر Hebert، الذي احتفل بعيد العقل. كما قضى على كل أفراد جماعته.

وألّم بروبسبير مع تقدم صيف ١٧٩٤ شيء ملحوظ من الاضطراب الذهني. كان مهتمًا أعمق الاهتمام بديانته. (وكان اعتقال المشتبه فيهم وإعدامهم يجري آنذاك على أتم نشاط. فكان 'الإرهاب' يجلب في شوارع باريس في كل يوم بعرباته المليئة بالمحكوم عليهم). وقد حمل روبسبير المؤتمر أن يصدر مرسوماً بأن فرنسا تؤمن بكائن علي أسمى، كما تؤمن بذلك المبدأ الباعث الطمأنينة في النفوس: مبدأ خلود الروح. وفي يونيه أقام عيدًا عظيمًا هو عيد كائنه الأسمى. وسار إلى الشأن دي مارس موكب ترأسه وهو في ثياب زاهية يحمل باقة عظيمة من الأزهار وسنابل القمح. وأحرقت في مشهد وقور رهيب تماثيل من مادة قابلة للاحتراق

تمثل الإلحاد والزذلية؛ ثم نهض في مكانها بطريقة آلية ماهرة وبشيء قليل من الصرير، تمثال للحكمة غير قابل للاحتراق. وألقيت الخطب - وألقى منها روبسبيرر أهمها - ولكن ظاهر أنه لم تجر أية عبادة...

ومنذ ذلك الحين بدت على روبسبيرر بوادر الرغبة في التأمل بمعزل عن شؤون العالم. فظل شهوراً كاملاً بمنأة من المؤتمر. وحدث في أحد أيام شهر يولييه أنه حضر وألقى خطبة عجيبة أذرت بشكل واضح بقرب حدوث محاكمات جديدة. قال: "إني وقد شخصت ببصري متفكراً في مجموع تلك الرذائل التي قوضها سيل الثورة الجارف، كانت في بعض الأحيان تأخذني رعدة الخوف من أن أتنس من جيرة الشريرين النجسة... وإني لأعرف أن من السهل على عصبة الطغاة في العالم أن يتكاثروا على فرد بمفرده، غير أنني أعرف كذلك ما هو واجب الرجل الذي يقدر أن يموت دفاعاً عن الإنسانية".

وهكذا استطرد حتى وصل إلى عبارات مبهمة كان يبدو أنها تهدد كل إنسان.

واستمع المؤتمر هذه الخطبة في صمت وسكوت، ثم حدث عندما قدم اقتراح بطبعها وتوزيعها، أن جأر بصياح الغضب وأبى السماح بذلك وخرج روبسبيرر في استياء مرير وذهب إلى نادي أنصاره، وأعاد تلاوة خطبته عليهم! وامتألت تلك الليلة بالكلام والمقابلات والاستعداد للغد؛ وفي اليوم التالي انقلب المؤتمر على روبسبيرر، وهدده شخص اسمه تاليان بخنجره. ولما حاول أن يتكلم صاح به الأعضاء حتى أسكتوه، ودق الرئيس الجرس في وجهه. وقال روبسبيرر: "يا رئيس السفاحين إني أطلب الكلمة!" وأبيت عليه الكلمة. وخانه صوته. فأخذ يسعل ويصخب وصاح بعضهم "إن دم دانتون يخنقه". فوجهت إليه التهمة. واعتقل هناك للوقت ومعه أهم أعوانه شائناً.

وعند ذلك ثارت ضد المؤتمر نائرة دار البلدية وكانت لا تزال قوية النزعة اليقوبية. وأخذ روبسبيرر ورفقاؤه عنوة من أيدي أسريهم. ومرت ليلة حدث فيها التجمع والزحف ثم الزحف المضاد، وأخذت القراية الساعة الثالثة قوات المؤتمر بقوات بلدية باريس خارج دار البلدية.

وكان هنريو، قائد اليقابة يردد مخموراً في الطابق الأعلى إثر يوم قضاه منهماً في العمل؛ وعقب ذلك مفاوضات، ثم انحازت جنود الكوميون بعد تردد قليل إلى صف الحكومة. وتصاحب القوم في أنفع مال وطني وأطل أحدهم من نافذة بدار البلدية. ووجد روبسبيرر وآخر من بقي معه من إخوانه أن جنودهم انفضوا من حولهم وخانوهم وأوقعوهم في الفخ. وألقى اثنان أو ثلاثة من هؤلاء الرجال بأنفسهم من إحدى النوافذ، وأحدثوا بأنفسهم إصابات مروعة على الأسوار الحديدية دون أن يقتلوا أنفسهم. وحاول آخرون الانتدبار. والظاهر أن أحد الجنود أصاب روبسبيرر برصاصة في الفك الأسفل فقد وجده يحملق بعيد بين شاخصتين وسط وجه شاحب كان نصفه الأسفل من الدم.

وأعقب ذلك سبع عشرة ساعة قضاها في الأكم المبرح قبل أن تحين نهايته. ولم ينس بكلمة طوال تلك المدة، إذ كان فكه مربوطاً ربطاً خشناً بقطعة قذرة من القماش، واقتيد هو ورفاقه، والأجسام المشمة المحتضرة لأولئك الرجال الذين قفزوا من النوافذ - وكانوا في مجموعهم اثنين وعشرين رجلاً - إلى المصقلة بدل الذين قضى بإعدامهم في ذلك اليوم. وكانت عيناه مغمضتين معظم الوقت، ويقول كارليل إنه

فتحهما فرأى السكين العظيمة ترتفع من فوقه وأخذ يقاوم ويتملص. كذلك حدث فيما يظهر أنه صرخ عند دما
رفع الجلاذ عنه ضمادته. ثم هوت السكين سريعة رحمة. وانتهى عهد الإرهاب. ومنذ البداية حتى النهاية
كان عدد المحكوم عليهم والمعدومين أربعة آلاف إنسان.

١٢ - حكومة الإدارة

مما يشهد بالحبوية الهائلة والخير العميم في طوفان المثل العليا والمقاصد الجديدة التي أطلقت الثورة الفرنسية أسرارها إلى عالم الجهود العملية، أنها كانت لا تزال تستطيع أن تفيض بسيل خلاق بعد أن رأى الناس لها صورة ممسوخة وسخروا منها حين تمثلت في شخصية روبسبير وحياته العجيبتين المضحكتين. وروبسبير صاحب الفضل في الكشف عن أعرق أفكارها، وهو الذي أبدى المتوقع من طرائقه ما وشارها، خلال العدسات الغريبة المشوهة التي صيغت منها كبريائه وأنانيته الخارجة عن كل معقول؛ وهو الذي سود ولطخ بالدم والرعب كل آمالها وما ينتظر منها؛ ومع ذلك فإن قوة هذه الفكرات لم تتدمر. إذ إنها ما تحملت الاختبارات القاسية التي ألمت بها أثناء عرضها على تلك الصورة المضحكة البشعة. وظلت الجمهورية بعد سقوطه تحكم حرة لا يهاجمها مهاجم منيعة لا ينال منها أحد منالاً. ولكن لم يكن لها من زعيم يقودها، وذلك أن خلفاءه كانوا جماعات من رجال مكررة أو عاديين، وواصلت الجمهورية الأوربية كفاحها مدة من الزمان، ثم لم تلبث حتى سقطت ثم نهضت ثانية، ثم سقطت ونهضت ولا تزال تكافح، وهي ترتطم بالعراقيل وتشتبك في الأحابيل غير أنها منيعة لا تقهر.

ومن الخير أن نذكر القارئ في هذا المقام بالحجم الحقيقي لدور الإرهاب هذا، الذي يروع الأخيلة أيماء ترويع، والذي بولغ فيه بناءً على هذا مبالغة هائلة بالقياس إلى بقية الثورة. فمنذ ١٧٨٩ إلى أخريات ١٧٩١ كانت الثورة الفرنسية عملية منتظمة، ومنذ صيف ١٧٩٤ كانت الجمهورية دولة منتظمة مظفرة. ولم يكن الإرهاب من عمل البلاد بأجمعها، بل مما جنته أيدي رعا ع المدينة الذين كانوا مدينين بوجودهم وود شيتهم إلى سوء الحكم والظلم الاجتماعي في الدولة البائدة؛ وما كان انفجار حكم الإرهاب ليدخل ولا إصدار الملكيين على خيانتهم وعدم ولائهم، إصراراً أثار المتطرفين إلى درجة الجنون، وحمل كتلة الجمهوريين المعتدلين على عدم التدخل. وكان خيرة الرجال مشغولين بقتال النموسيين والملكيين على الحدود. وينبغي لنا أن نتذكر أن مجموع من قتلوا في حكم الإرهاب وصل في غاية جملته إلى بضع آلاف قليلة، وكان بين هؤلاء الأعداد ولا ريب عدد كبير من خصوم الجمهورية العاملين، الذين كان يحق لها أن تقتلهم قياساً على معايير ذلك الزمان. وكان من بينهم من الخونة وصناع الشر أمثال فيليب دوق أورليان، صاحب قصر 'الباليه رويال' الذي أعطى صوته محبداً موت لويس السادس عشر.

ولقد ضاع من الأرواح على يد القواد الإنجليز وحدهم في يوم افتتاح ما يسمى باسم هجوم السوم في يولييه ١٩١٦، أكثر مما ضاع في الثورة الفرنسية كلها منذ بدايتها إلى خاتمتها.

وإننا لنسمع كثيراً عن شهداء حكم الإرهاب لأنهم كانوا قومًا من ذوي المكانة والمصاهرة والقرابة الطيبة، ولأنه أثر ضرب من الدعاية حول ما قاسوا من عذاب. ولكن علينا أن نوازن في أذهاننا بين ذلك وبين ما كان يجري في سجون العالم عامة في ذلك الزمان. فعندما كانت مقاليد الحكم في فرنسا بيد الإرهاب، كان يقتل في إنجلترا وأمريكا لجرائر ارتكبت ضد الممتلكات - وغالبًا ما كانت جرائر تافهة جدًا - عدد يفوق كثيراً عدد من حكمت عليهم محاكم الثورة في فرنسا بسبب الخيانة للدولة. وبدهي أنهم كانوا في الواقع

أناسًا عاديين جدًا، ولكنهم قاسوا آلامًا على طريقتهم الخشنة. فقد حدث مرة أن شنت فتاة في ماساشوس ستس ١٧٨٩ لأنها أخذت بالإكراه قبعة وحذاء وشمباك من فتاة أخرى لقيتها في الطريق. كذلك وجد هوارد مد ب الإنسانية (قراءة ١٧٧٣) عددًا من الأفراد الأبرياء محجوزين في السجون الإنجليزية بعد أن حوكموا وحك م ببراءتهم ولكنهم لم يستطيعوا أن يدفعوا أجرة السجن. وكانت تلك السجون أماكن قادرة لا تخضع لأية رقابة فعالة. وكان التعذيب لا يزال يستعمل في الممتلكات الهانوفرية لصاحب الجلالة البريطانية الملك جورج الثالث. وظل يستخدم في فرنسا حتى عهد الجمعية الوطنية. فالحق أن هذه الأمور كلها تشير إلى مستوى العصر عامة.

وليس فيما سجل ما يدل على أن أي امرئ قد عذبه عمدًا رجال الثورة الفرنسية أثناء حكم الإرهاب. فإن هؤلاء المئات القلائل من السراة الفرنسيين قد تردوا في حفرة كان يطيب معظمهم من نفسًا بأن تحفر للآخرين. كان الأمر فاجعًا لا جرم، ولكن لم يكن فيه فاجعة عظيمة إذا قيس بمعيار التاريخ العام. فإن الرجل العامي في فرنسا كان أوسع حرية وأوسع رزقًا، وأشد سعادة إبان حكم "الإرهاب" مما كان في ١٧٨٧.

وإذا استعرضنا قصة الجمهورية بعد صيف ١٧٩٤ وجدناها قصة معقدة لمجموعة من الطوائف السياسية التي اتخذت لنفسها برامج وأهدافًا لا حصر لها، منها ما هو جمهوري راديكالي ومنها ما هو ملكي رجعي، غير أنها كانت تظللها رغبة عامة في إقامة نظام ما محدد فعال وإن كلفها ذلك قدرًا كبيرًا من الإذعان والتساهل. وأحدث اليعاقبة والملكيون سلسلة من الفتن، إذ يلوح أنه كان هناك في باريس ما عسانا أن نسميه اليوم باسم طبقة مشاغبي الشوارع، وهي على أتم الاستعداد للخروج للقتال والنهب في صف أي من الطرفين. ومع هذا فإن المؤتمر أنتج حكومة، هي حكومة الإدارة المكونة من خمسة أعضاء، والتي حافظت لفرنسا على تماسكها أمد خمس سنوات. وقضى على آخر فتنة وأشدّها خطرًا في أكتوبر ١٧٩٥، بمهارة فائقة وحزم نافذ عن يد جنرال شاب ناهض هو نابليون بونابرت.

كانت الإدارة مظفرة في الخارج، غير أنها كانت خاملة غير خلاقة في الداخل، إذ كان أعضاؤها أحصر على الاستمساك بحلاوة الوظيفة وأمجادها، من أن يعدوا دستورًا يخليهم من العمل ويحذل غيرهم محلهم، وكانوا أخون من أن يسلموا لغيرهم مقاليد عملية إعادة الإنشاء الاقتصادية والمالية التي تتطلبها حالة فرنسا. ولسنا بحاجة أن نذكر إلا اسمي رجلين منهم - أحدهما كارنوت (Carnot) الذي كان جمهوريًا شريفًا؛ وبارا (Barras) الذي كان لصًا بشكل ملحوظ. وقد كون حكمهم هذا الممتد خمس سنوات قصة عجيبة مثّلت بين فصول هذا التاريخ الحافل بالتغييرات العظيمة.. فإنهم تناولوا الأمور كما وجدوها. ولعبت حماسة الدعاة للثورة دورًا عظيمًا في حمل الجيوش الفرنسية إلى هولندا وبلجيكا، وسويسرا وجنوب ألمانيا، وشمال إيطاليا. كان الملوك يطردون في كل مكان وتقام في أماكنهم الجمهوريات.

ولكن حماسة تلك الدعاية التي أثارها حكومة الإدارة لم تحل دون انتهاب كنوز الشعوب المحررة بغية تخفيف ما تلقاه الحكومة الفرنسية من الاضطراب والعسر المالي. وأخذت حروبهم تتحدّر رويدًا رويدًا عن صفتها كحرب حرية مقدسة، وتقرب أكثر فأكثر من حروب الحكم البائد العدوانية. وكانت السياسة الخارجية

آخر ما كانت فرنسا ترغب في التجرد منه من مظاهر الملكية العظمى. وإنا لنه نستطيع أن نتبين أن تلك السياسة ظلت على نفس قوتها الأولى أثناء حكم حكومة الإدارة كأنما لم يحدث هناك أية ثورة.

١٣ - توقف التعمير وفجر الاشتراكية العصرية

لقد اقتربت الآن ساعة انحسار هذا الفيض الدافق من الثورة في العالم؛ ذلك الفيض الذي خلق جمهورية أمريكا العظيمة وهدد بأن يغمر بطوفانه كل الملكيات الأوربية. وكان شيئاً قد اندفع إلى أعلى من دون سطح الشئون الإنسانية؛ وبذل جهداً جباراً، ثم ما لبث أن تلاشى بدداً إلى حين. وجرف أمامه كثيراً من الأشياء المهجورة والضارة، ولكن بقيت من بعده أمور كثيرة ضارة غير عادلة. نعم إنه حل مسائل كثيرة، ولكنه ترك الرغبة في الزمالة والنظام تواجه مسائل أكثر ضخامة لم يبد عليه أنه تجاوز حد تلك السתר عنها. وذهبت أشكال معينة من الامتيازات، كما ذهب الكثير من ألوان الاستبداد والاضطهاد الديني. وعندما اختفت أشياء الحكم البائد هذه، بدت كأنما لم تكن لها أبداً أية أهمية، وكل ما كان يهم فعلاً هو أن الرجل العادي من بالرغم من تمتعهم بالأصوات الانتخابية وحق الاقتراع، وبالرغم من كل دفعات نفوسهم وجودهم، كانوا ما يزالون لا هم بالأحرار ولا هم بالمستمتعين بقسط متعادل من السعادة، وأن الوعد الهائل الموعود والأمل في تفريق أكناف عالم جديد وهما الأمران اللذان جاءت الثورة بهما، ظلا وهما لا ظل لهما من الحقيقة.

ومع هذا فإن موجة الثورة هذه قد حققت تقريباً كل شيء فكر فيه الناس تفكيراً واضحاً قبل مجيئها. ولم تكن تفشل الآن بسبب امتناع الدافع، بل بسبب امتناع الأفكار المدروسة المصقولة. فقد جرفت إلى الأبد كثير من الأشياء التي طالما أوقعت الظلم بالإنسانية. والآن وقد جرفت وانتهى أمرها، بات واضحاً لكل ذي عينين، كم كان الرجال غير متأهبين لتلقي النهازات الخلاقة التي أتاحتها لهم هذه الإزالة. وما فترات الثورة إلا فترات عمل؛ وفيها يحصد الرجال ثمار الأفكار التي نمت أثناء أدوار فترات الهدوء بين الذورات. إنه ما لتترك الحقول نظيفة مستعدة لموسم جديد من مواسم النماء، ولكنها لا تستطيع أن تنتج على الفجاءة أفكار جديدة منضجة لتقابل بها لغزاً غير متوقع.

وكان طرد الملك والنبي، والقسيس وقاضي محكمة النفثيس، وصاحب الأراضي وجابي الضرائب وملاحظ الأشغال، قد غادر كتلة الناس يواجهون لأول مرة بعض نواحي معينة جوهرية جذاً للتركيب الاجتماعي، وهي العلاقات التي سلموا بها من قبل ولم يدركوا البتة ضرورة التفكير الشديد وإطالة النظر فيها. وظهر أن النظم التي كانت تبدو قطعة من طبيعة الأشياء، والأمور التي كان يبدو أنها تحدث نتيجة لذلك النوع من الضرورة التي تطلع الفجر وتأتي بالربيع - ظهر أنها كانت أموراً اصطناعية يمكن ضد بطها والتحكم فيها، لولا ما هي عليه من التعقيد المربك، كما ظهر أنها الآن وقد أُلغيت الروتينيات القديمة وتخلص الناس منها، أصبحت في أمس الحاجة إلى يد تضبطها وتهيمن عليها. ووجد النظام الجديد نفسه تلقاءً أغماز ثلاثة، كان غير مستعد مطلقاً لحلها: وهي الملكية والعملة والعلاقات الدولية.

وستتناول هذه المسائل الثلاثة بالترتيب، ونسأل عن ماهيتها وكيف نشأت في الشئون الإنسانية؟ فإن كل حياة إنسانية تتصل بها اتصالاً عميقاً، كما أن حلها يمسهاماً مباشراً. والحق إن البقية الباقية من هذا التاريخ ستصبح من الآن بشكل واضح يتزايد وضوحاً كل يوم، تطوراً للمجهودات المبذولة لحل هذه المسائل، أو بمعنى آخر: إن هذا التاريخ سيصبح من الآن جهداً غايته "تفسير الملكية، وتأسيس العملة، وإدارة دولاب

العلاقات الدولية، على شاكلة تجعل في الإمكان إنشاء "مجتمع من الإرادة على أن يكون سعيداً وتقدمياً، يعم العالم أجمع. فهن الأغاز الثلاثة التي يرمز لها صمت "أبي هول" القدر، والتي يجب على الدولة الإنسانية أن تجد لها جواباً وإلا كان مآلها الهلاك.

وتنشأ فكرة الملكية من غرائز المقاتلة في النوع البشري. فقبل أن يكون الإنسان إنساناً بزمان مديد كان القرد الجد مالكاً. والملكية البدائية هي ما يقاقل الوحش من أجله. فالكلب والعظمة، والبيرة ووجارها، والغزال الهادر وسربه، كل هذه ملكيات يتوهج أوارها. وليس شمة تعبير أسخف في علم الاجتماع من عبارة 'الشيوعية البدائية'. فإن الرجل المسن في قبيلة العائلة في الأزمان المبكرة من العصر الحجري القديم (الباليوليثي) كان يصير على ملكيته في زوجاته وبناته وأدواته ولعالمه المرئي المحيط به. فلو دخل أي رجل إلى عالمه المرئي المحيط به لقاتله، ولنذبحه إن استطاع. ونمت القبيلة على مر العصور، كما بين ذلك أتكسنون تيباناً مقنعاً في كتابه 'القانون البدائي' ⁽¹⁾. وكان نموها نتيجة للتسامح التدريجي الذي أبداه الرجل المسن نحو وجود الشبان الأصغر منه سناً، ونحو ملكيتهم للزوجات اللاتي يؤسرن من خارج القبيلة، والآلات والحلي التي كانوا يصنعونها والصيد الذي كانوا يقتلون. ونمت الجماعة الإنسانية بفضل التوفيق بين ملكية هذا الفرد وملكية ذلك. كان ذلك التوفيق في أكبر شأنه توفيقاً وتحالفاً اضطر الرجال إليه اضطراراً بسبب ضرورة دفع قبيلة أخرى إلى خارج عالمهم المرئي المحيط بهم. فلئن لم تكن التلال والغابات والأنهار أرضك أو أرضي، فذلك لأنه كان لزاماً أن تكون أرضنا. وإن كلاً منا ليؤثر لو أنها كانت 'أرضه هو'، ولكن هذا لا يمكن العمل به. ففي تلك الحالة يقوم الرجال الآخرون بتدميرنا. فكان الجماعة الإنسانية إذن، إنما هي منذ بدايتها تخفيف لغواء الملكية. والملكية في الوحش الضاري وفي المتوحش البدائي كانت أشد حدة منها في العالم المتمدن اليوم. فهي في غرائزنا أقوى مغرساً منها في عقولنا.

وليس هناك اليوم تحديد لنطاق الملكية عند المتوحش الفطري ولا الرجل غير المتعلم. ومن الخير لنا أن نتذكر دوماً أنه ما من إنسان يزيد بعده اليوم على أربعمئة جيل من جده المتوحش البدائي وكل ما تستطيع أن تقاقل من أجله إنما هو شيء أنت قادر على امتلاكه: من النساء وممن تبقى عليهم من الأسرى ومن الضواري المصيدة. ومن مسالك الغابة ومن مأخذ الحجر إلى غير ذلك. ومع نمو المجتمع، وتوَلَّى ضد رب بدائي من القانون الحد من القتال الفتاك، طور الناس طرائق خشنة وسريعة لإقامة الملكية. فصار الرجل يقدر أن يملك ما كان أول من صنعه أو وضع يده عليه أو ادعاه. وكان يبدو طبيعياً أن كل مدين لا يستطيع تسديد دينه لا بد أن يغدو ملكاً لدائته. ويعادل هذا في جريانه على الطبيعة أن الرجل بعد ادعائه امتلاك رقعة من الأرض، لا بد له من تحثيم دفعات مالية على كل رجل آخر يريد استعمالها. ولم يحدث إلا مع البطء الشديد، ومع بزوغ فجر احتمالات الحياة المنظمة وظهور بوادرها على الناس، أن ابتدأ الناس يرون في هذه الملكية غير المحدودة لأي شيء كان - مصدر إزعاج ومضايقة لهم. وألقى الرجال أنفسهم يولون إلى عالم مملوك كله ومدعى ملكيته كله - لا بل وجدوا أنفسهم مملوكين أو مدعى ملكيتهم. ومن العسير الآن علينا أن نفقه و

(1) Atkinson Primal Law

أثر الكفاحات الاجتماعية في المدنيات الأشد قديمًا، غير أن التاريخ الذي حدثناك به عن الجمهورية الرومانية يكشف لك مجتمعًا يستيقظ على فكرة أنه ربما غدا الذين مضايقة عامة، ولا بد عند ذاك من إنكاره والامتناع عن أدائه، وأن الملكية غير المحدودة للأرض إنما هي كذلك مضايقة من المضايقات. وإنا نجد أن مملكة بابل (بابلونيا) عمدت في عهدها المتأخر إلى تحديد حقوق الفرد في امتلاك الأرقاء تحديداً شديداً. وأخيراً نجد في رسالة ذلك الثوري العظيم، يسوع الناصري، هجومًا وطعنًا في الملكية لم يوجد مثله قبل ذلك أبدًا. قال: 'أيسر أن يمر الجمل من ثقب الإبرة من أن يدخل غني (مالك العقارات العظيمة) ملكوت السموات'.

ويلوح أن العالم ظل طوال الخمسة والعشرين أو الثلاثين قرنًا الأخيرة يواجه سهام النقد بلا انقطاع للمقدار الذي يمكن السماح به من الملكية. وما نحن بعد انقضاء تسع عشرة مائة من القرنين على يسوع الناصري، نجد كل العالم المستنقل بالتعاليم المسيحية مقتنعًا بأن الملكية في الأشخاص أمر لا يمكن أن يكون، إذ حدث من ناحية هذا الأمر انقلاب في الضمير العام. وكذلك الفكرة القائلة 'بأن الرجل يستطيع أن يفعل ما يشاء فيما يملك' قد هُزئت هزأً واضحًا كبيرًا وضعفت ضعفًا ملموسًا بالعلاقة إلى أنواع أخرى من الملكية. على أن هذا العالم الذي نشهده في نهاية القرن الثامن عشر، لم يبلغ بعد في هذه المسألة إلا مرحلة الشك والاستفسار. ذلك أنه لم يكن لديه شيء واضح وضوحًا كافيًا يستطيع أن يتخذه أساسًا يعمل عليه، فضلًا عن شيء مستقر استقرارًا كافيًا. وكان من أوائل دوافعه حفظ الممتلكات من أن يعيث بها جشع الملوك وتبذيرهم وحمايتهم من استغلال النبلاء المغامرين. وقد شبت الثورة من أجل الحفاظ على الملكية الخاصة. ولكن مبادئ المساواة التي أخذت، دفعت بها في غمرات النقد والتجريح للملكية التي نهضت لحمايتها. إذ كيف يستطيع الرجال أن يكونوا أحرارًا متساوين بينما العدد الجرم منهم ليس لديهم أرض يعيشون عليها ولا شيء يطعمونه، كما أن الملاك لا يرضون بإطعامهم ولا ببايواتهم ما لم يكسبوا كدحًا شديدًا مسرفًا - تلك هي شكوى الفقراء.

وكان رد البيعاقبة على ذلك اللغز أن أكبوا على 'التقسيم'. فأنهم أرادوا أن يشدوا أزر الملكية ويعمموها. وكان هناك من قبل في القرن الثامن عشر قوم يرمون إلى نفس الغاية وإن كان ذلك بطريق آخر، هم جماعة بدائية بعينها من الاشتراكيين - أو بمعنى أدق من الشيوعيين - كانوا يريدون أن يلغوا الملكية الخاصة إلغاءً تامًا. وكان على الدولة في رأيهم أن تملك كل الممتلكات. ولم يشرع الناس إلا بعد مضي فترة كبيرة من القرن التاسع عشر، يدركون أن الممتلكات ليست شيئًا واحدًا بسيطًا. بل هي مركب عظيم من الملكيات ذات القيم والأهميات والدرجات المختلفة. وأن كثيرًا من الأشياء (من أمثال بدن الإنسان وأدوات الفنان والخباز وفرش الأسنان) إنما هي ممتلكات شخصية بصورة عميقة جدًا ولا علاج لها أبدًا. وأن هناك نطاقًا عظيمًا من الأشياء أمثال السكك الحديدية والآلات ذات الأنواع المختلفة والمنازل والحدائق المزروعة وزوارق المتعة وكل منها بحاجة أن تلقى منا تأملًا خاصًا جدًا لنقدر إلى أي درجة وتحت أي حدود يمكن وضعها تحت اسم الملكية الخاصة، وإلى أي مدى تقع في نطاق الملكية العامة ويمكن أن تديرها وتؤجرها للدولة خدمة للمصلحة الجماعية. ونحن نمتاز اليوم على الجيل الثوري الأول بنظر كبير من الأبحاث التي دارت في مدى السنوات المائة والثلاثين الأخيرة، ولكن حتى هذا 'الألب' المسطر في الملكية والنقد الموجه إليها لا يزال إلى اليوم اختمارًا هائلًا حامي الوطيس أكثر منه علمًا مقررًا. وكان من المستحيل والحالة هذه أن تستطيع فرنسا

القرن الثامن عشر أن تنتج أي مشهد آخر عدا تلك الحركات الشعبية الغامضة المربكة الراغبة في حرم بان الملاك من أملاكهم، وعدا مشهد طبقات من الملاك الصغار والكبار الذين يستمسكون بما لديهم استمساك الغاضب المتجه مطالبين قبل كل شيء بضمان الملكية.

ومما يتصل أو وثق اتصال بغموض فكرة الملكية في أذهان الناس غموض فكراتهم عن 'العملة'. فإن كلا من الجمهوريتين الأمريكية والفرنسية أصيبت من جراء هذا الأمر بمناعب خطيرة. وإنا لنعالج هنا أيضًا أمرًا ليس بالهين اليسير، بل هو غمرة من العرف المتبع والأوضاع التقليدية والقوانين والعادات العقلية الفاشية، التي تنشأ عنها مسائل تسمح بأي حل يقوم على أسس بسيطة، والتي هي مع ذلك صاحبة أهمية حيوية في حياة المجتمع اليومية. وصحة الاعتراف الذي يتناوله الرجل مقابل اشتغاله يوميًا، ذات أهمية أولية تمامًا، كما هو بَيِّن، في عمل الجهاز الاجتماعي. وهناك نوعان من النمو تمامًا بالتدرج على كثر التاريخ الإنساني، هما نمو الثقة في المعادن النفيسة ونمو العملة نموًا اقتنع به الناس عمليًا أن العملة الجيدة يمكن الاطمئنان إلى امتلاكها قوتها الشرائية في أي مكان.

ولما كان استقرار ذلك الاطمئنان متوسطًا، فإنه تعرض لتأزمات وارتباكات جسيمة جدًا، نتجت عما كانت تعمد إليه الحكومات من خفض العملة ومن استبدال النقود المعدنية الفعلية بالعود الورقية بالدفع. فما كادت تحدث زلازل سياسية واجتماعية خطيرة، حتى أخذ نظام النقود يعمل بصورة متأزمة غير مضبوطة.

وقد ابتدأت كل من الولايات المتحدة والجمهورية الفرنسية حياتها في دور عسر مالي. وكانت كل من الحكومتين تقترض النقود وتصدر وعودًا ورقية بدفع الفوائد، وهي فوائد تفوق ما كانتا تستطيعان جبايته في غير مشقة. وأفضت كل من الثورتين إلى الشيء الكثير من الإنفاق والاقتراض العام المستيسر، وأدت في نفس الوقت إلى انقطاع في عملية الزراعة والإنتاج زاد في إنقاص الثروة الحقيقية التي يستطيع فرض الضرائب عليها. وإذا إن كلا من الحكومتين لم تستطع أن تواصل الدفع بالذهب، فقد لجأت إلى إصدار العملة الورقية (البنكنوت)، التي تعد فيها بأن تدفع بضمان الأراضي غير المتطورة (في أمريكا) أو أراضي الكنيسة المصادرة حديثًا (فرنسا). وتجاوز القدر الصادر في كل من الحالتين حد ثقة الناس في الضمان الجديد تجاوزًا بعيدًا. وهرب الذهب من الأسواق حيث أخفاه مكره الناس، أو أرسل إلى الخارج تـ سديدًا لأثم إن الب ضائع المستوردة، ووجد الناس أنفسهم يحملون أنواعًا مختلفة من الصكوك وورق البنكنوت بدل العملة وكلها ذات قيمة متناقصة غير محققة.

ومهما يكن شأن أصول العملة من التعقيد، فإن آثارها العملية والغاية التي لا بد لها من خدمتها في المجتمع يمكن أن تذكر هنا بطريقة إجمالية. فإن النقود التي يتلقاها الرجل عن عمله (عقليًا كان أم جسديًا)، أو عن التخلي عن ملكيته مقابل منفعة استهلاكية لا بد أن تستطيع في النهاية أن تشتري له ولاستعماله قدرًا يعادل ذلك بالتقريب من السلع المستهلكة. (ولفظه "السلع المستهلكة" عبارة نحب أن نفهم على أوسع معانيها بحيث تمثل حتى إحدى الرحلات، أو الاستماع إلى محاضرة أو حضور إحدى المسرحيات أو السكن أو الاستشارة الطبية وما إليها من الأشياء). فإذا ضمن كل فرد من المجتمع توفر هذه الأشياء له، وضد من أن

النقد لن تحتط قوتها الشرائية - فإن العملة وتوزيع البضائع بالتجارة تكون عندئذ في حالة سليمة مرضية. فعند ذلك، وعند ذلك فقط، يشتغل الرجال مسرورين راضين.

والحاجة الحتمية إلى ذلك الاستقرار وذلك الضمان في العملة، إنما تقوم بناءً على هذ في الحقائق الثابتة (Datum) التي منها يجب أن تبدأ الدراسة العملية للعملة والرقابة عليها. ولكن لابد دائماً من وجود التقلبات في قيمة العملة ولو في ظلال أثبت الأحوال وأرسخها. فإن صافي جملة السلع القابلة للاشتراك والاستهلاك في العالم وفي أقطار متنوعة، تختلف من سنة إلى أخرى ومن فصل إلى فصل؛ ولعل الخريف زمن خبرات ووفرة بالموازنة إلى الربيع؛ فإذا حدثت زيادة في السلع التي يمكن الحصول عليها في العالم تزداد القوة الشرائية للعملة، ما لم يرافق ذلك زيادة في مقدار العملة، فإن كان هناك من الناحية الأخرى نقص في إنتاج السلع الاستهلاكية أو تدمير عظيم غير مربح في السلع الاستهلاكية، شأن ما يحدث في الدروب، نقص نصيب جملة السلع الاستهلاكية ممثلاً في مبلغ من المال، ثم تعلق لا محالة الأسعار والأجور. فربما ما حدث في الحروب العصرية أن انفجار قنبلة كبيرة واحدة، وإن لم تصب شيئاً، يستهلك من العمل والمواد ما يعادل لدى أحد الرجال بالتقريب أجره منزل ريفي ظريف أو نفقة عطلة سنوية. فإن أصابت القنبلة شيئاً ما، وجبت إضافة ذلك التدمير الآخر إلى النقص في السلع الاستهلاكية. ولقد كانت كل قنبلة تنفجر في الدروب العظمى تنقص جزءاً يسيراً من القوة الشرائية لكل عملة في العالم بأجمعه. فإن كان هناك أيضاً زيادة في العملة أثناء فترة تستنفد فيها السلع الاستهلاكية ولا تستبدل بها غيرها تمام الاستبدال - وضرورات الحكومة الثورية والعاملة على الحرب تكاد تتطلب ذلك على الدوام - تكون الزيادة عند ذلك في الأسعار والهبوط في قيمة العملة المدفوعة أجوراً، أكبر وأكبر.

وقد جرت العادة كذلك بأن الحكومات تضطر مدفوعة بتلك الشدائد إلى اقتراض المال، أعذ في أنها تصدر أوراقاً تحمل الفائدة بضمان رغبة المجتمع العام ومقدرته على تحمل الضرائب.

وتكون مثل هذه العمليات على درجة كبيرة من الصعوبة إن كان من يقوم بها رجالاً على تمام الشرف يقومون بها في صراحة، تحت كامل ضياء العلانية والمعرفة العلمية. ولكن هذا الأمر لم يحدث البتة حتى يومنا هذا، ففي كل آن ومكان تجد الأثاني البارح أي الصنف الشرير من الرجل الغني، يحاول أن يندرف بالأمور قليلاً نحو مصلحته الخاصة. كذلك يجد الإنسان في كل مكان الأثاني الغني، على أهبة الاستعداد للتشرب بالخوف والتخاذل دعراً. ومن ثم تتكشف لنا الدولة على الفور وقد فندحتها وفرة في العملة، التي هي في واقع الأمر بمثابة دين لا يدفع الفوائد، كما يبهظها كذلك عبء فوائد القروض. ويبدأ كل من الائتمان Credit والعملة في التمايح والتقلب الشديد مع تبخر (تناقص) الثقة العامة. وقد نستطيع أن نقول عنهم ما عندئذ إنهما في حالة انحلال معنوي خلقي.

والعاقبة النهائية لعملة أصيبت بتمام الانحلال المعنوي هي إيقاف كل عمل وكل تجارة لا يستطيع مواصلتها بالدفع عيناً أو مقايضة. فإن الرجال يرفضون عند ذلك أن يعملوا، اللهم إلا مقابل الطعام والثياب والسكن والدفع عيناً. والنتيجة المباشرة لعملة منحلة انحلالاً معنوياً جزئياً هي رفع الأسعار وجعل التجارة

أمرًا مخيفًا مخطرًا، وملء نفوس العمال بالرَّيب والشكوك والتهيب للهياج. ففي مثل هذه الظروف يميل الرجل النكي إلى إبقاء النقود في حوزته إلى أقصر أمد ممكن؛ فهو يطلب أقصى ما يستطيع في مقابل حقيقته التي بين يديه، ويشترى مرة ثانية حقيقة أخرى بأسرع مستطاعه لكي يباعد ما بينه وبين تلك المادة القابلة للهلاك، وأعني بها العملة الورقية. ويكابد كل أرباب الدخل الثابت والرصيد المتخز ويقاسون من غلاء الأس عار، ويجد الأجراء ولهب غضبهم يزداد في كل أن أوارا، أن القيمة الحقيقية لأجورهم في تناقص مطرد.

ومن الواضح أن تلك حالة يحتم فيها الواجب على كل شخص نكي أن يبذل العون ويقوم بجهده في سبيل إعادة الأمور إلى نصابها وبث الطمأنينة في نفوس الناس. على أن كل تقاليد المسعى الخاص، وكل فكرات الجزء الأخير من القرن الثامن عشر، اتجهت إلى تبرير أعمال نوي الذكاء الشديد والمهرة من الناس الذين نصبوا أنفسهم لتجميع الادعاءات، والألقاب والأملك المحسوسة في ظل العواصف والتزلزلات والتقلبات التي تحدث أثناء انهيار هذه العملة. ومن عجب أن الرجال المدركين للحقائق في العالم والذين كانوا ينصبون أنفسهم في إخلاص وبساطة لإعادة ما للعملة والائتمان من أحوال شريفة يمكن التعامل في ظلها، كانوا رجالاً قليلي العدد، عديمي الأثر. فإن معظم رجال المال والمضاربات في ذلك الزمان كانوا يلعبون دور رجال كورنوال⁽¹⁾ دون وعي منهم إلى ما في ذلك من قلة الشرف، بل يفعلونه فيما يبدو بأنهم أنواع الاستحسان الذاتي وأكمل مظاهر رضا زملائهم. لقد كان هدف كل شخص نكي ماهر أن يجمع أكثر ما يستطيع من الثروة القابلة للتداول، وعند ذلك، وعند ذلك فقط، يعتمد إلى تدبير وسيلة تؤدي إلى التوطيد السياسي، وتغادر له ملكية ما جمع أعود ما تكون عليه نفعاً. فهذه هي عوامل جوقة صادي رديء مليء بالشكوك والعصبية المحمومة والجشع والمضاربات...

فأما الاتجاه الثالث الذي اتجهته الثورة دون أن تستعد له بفكرات نيرة واضحة، وهو مسألة العلاقات الدولية، فقد قدر عليها فيه تطورات تفاعلت أسوأ التفاعل وأجلبه للكوارث مع هذه الحالة، حالة المغامرة المالية والاقتصادية وهذا التخاطف والارتباك واشغال بالهم بما أصاب ملكيتهم الخاصة ومركزهم النقدي في بلادهم، من انزلاق محير للعقول. فقد وجدت الجمهورية نفسها يوم ميلادها مشتبكة في حرب. وقد ظل المجندون الجدد ردحاً من الزمن يخوضون غمار هذه الحرب بوطنية وحماسة لم ير العالم لهما في تاريخه نظيراً. ولكن لم يكن في الإمكان أن يستمر هذا الحال إلى الأبد. ووجدت حكومة الإدارة نفسها على رأس بلاد فاتحة، ولكنها كانت من الناحية الداخلية في عسر مالي واضطراب لا يطاقان، ووجدت نفسها تحت أراضي أجنبية غنية مليئة بثروة يمكن الاستيلاء عليها، عامرة بالقرص المادية المالية. ويحمل كل هذا في طياته طبيعة مزدوجة. ويلوح أن الفرنسيين بوجه خاص قد تطوروا بشكل منطقي متناسق (سيميترى) في حمل كلتا الطبيعتين. فقد جاءت فرنسا إلى هذه الأقاليم المغزوة مُحَرَّرًا ومعلمًا وكانت أستاذة الإنسانيات في الروح الجمهورية. ومن ثم أصبحت هولندا وبلجيكا تسميان الجمهورية الباتافية، وأصبحت جنوا وملحقتهما

(1) يشير الكاتب هنا إلى ما كان يفعله سكان كورنوال بغرب إنجلترا؛ إذ يسترجون السفن ويخدعونها بالأنوار لتتدمر على شاطئهم فينهبوا. (المترجم)

الرفييرا الجمهورية الليجورية، وغدا شمال إيطاليا الجمهورية السيزالينية، وغير اسم سويسرا إلى الجمهورية الهلفاتية (Helvetian Republic)، وسميت روما وميلوز (Mulhausen) ونبولي جمهوريات. ف إذا تجمعت هذه الجمهوريات حول فرنسا فإنها كانت على أن تكون مجموعة من كواكب الحرية اللوامع تقود العالم وتهديه. تلك هي الناحية المثالية في الموضوع. وفي نفس الوقت تقدمت الحكومة الفرنسية، والأف راد الفرنسيون مجتمعين مع الحكومة للقيام باستغلال كامل استنفادي لموارد تلك البلاد المحررة.

وبذا تبدأ فرنسا الجديدة في مدى عشر سنوات من اجتماع مجلس الطبقات أن تتخذ لها شهياً عجيباً ما بفرنسا القديمة. بل هي أشد عنفواناً وأنشط قوة؛ وهي ترتدي فوق رأسها قلنسوة الحرية في مكان التاج؛ ولديها جيش جديد غير أن لديها أسطولاً محطماً؛ وإن فيها لأناساً أغنياء جداً مكان الأغنياء القدماء، وفيها فلاحون جدد يكادون يكسبون أكثر من سابقهم ويدفعون ضرائب أفدح؛ وفيها سياسة خارجية جديدة عجيبة الشبه بالسياسة الخارجية القديمة الملغاة؛ ولم يظهر فيها العهد الذهبي عهد المسيح المنتظر.

الفصل السادس والثلاثون

سيرة نابليون بونابرت

- ١- أسرة بونابرت في كورسيكا.
- ٢- بونابرت قائداً جمهورياً.
- ٣- نابليون قنصلاً أول ١٧٩٩ - ١٨٠٤.
- ٤- نابليون الأول إمبراطوراً من ١٨٠٤ - ١٨١٤.
- ٥- المائة يوم.
- ٦- خريطة أوروبا في ١٨١٥.
- ٧- طراز الإمبراطورية.

١ - أسرة بونايرت في كورسيكا

ها نحن أولاء نصل الآن إلى شخصية من أشد شخصيات التاريخ إشراقاً وسطوعاً، هي شخصية مغامر مُحطَّم، يبدو أن قصته تظهر في نضاعة خارقة للعادة النضال العام الخفي الدقيق بين الأنايعة والكبرياء والشخصية، وبين مرعيات المصلحة المشتركة الأشد ضعفاً والأكثر اتساعاً. وإنك لتلحظ قبالة هذه الخلفية المكونة من الارتباك والمحنة والأمل، أي قبالة هذه القارة الأوربية والدولة الفردسية المنهكتين اللاهتتين، وهذا الفجر العاصف الضخم، ظهور هذه الشخصية الضئيلة القديمة الطراز بما لها من الصلابة والتماسك والكفاية وعدم الاستمسك بمبادئ الشرف مع الميل إلى التقليد والسوقية المتقنة. ولد في ١٧٦٩ بجزيرة كورسيكا التي كانت لا تزال نصف مهجبة. وكان ابناً لرجل غير ذي شأن تقريباً، وهو محام كان في بادئ أمره وطنياً يناضل الملكية الفرنسية، التي كانت تحاول أن تخضع كورسيكا، ثم انقلب عند مولده على وطنه وانضم إلى صف المغير الغاصب. وكانت أمه ذات طبيعة أقوى، محتدمة الوطنية ولها قوة شديدة ومقدرة في الكياسة وتدبير الأمور. (كانت تضرب أولادها بالمقرعة، حتى لقد ضربت نابليون ذات مرة وهو في السادسة عشرة). وكان هناك إخوة وأخوات كثير، وظلت العائلة تلاحق الحكومة الفرنسية بالإلحاف في طلب المكافآت والوظائف. وفيما عدا نابليون فإن العائلة تبدو عائلة "جائعة" عادية تماماً. كان ماهراً ذكياً سيئ الخلق متكبراً غطريساً. اكتسب من أمه وطنية (رومانسية) كورسيكية.

حصل بفضل رعاية محافظ كورسيكا الفرنسي على تعليم ابتدأ بمدرسة بريين Brienne العسكرية ثم بالمدرسة الحربية بباريس، ومنها انتقل إلى المدفعية في ١٧٨٥. كان دارساً مجتهداً لكل من الرياضيات والتاريخ، وكانت ذاكرته قوية قوة خارقة، وكان يدون ملحوظاته في دفاتر ضخمة لا تزال موجودة. ودفأتر المذكرات تلك لا تظهر فيه أي ذكاء استثنائي، كما أنها تحتوي كذلك على قطع صغيرة من الإنشاء الأصيل - حول الانتحار وما يماثله من موضوعات المراهقين. وقد وقع في حبائل سحر روسو منذ زمن مبكر؛ ثم تزايدت حساسيته رهنفاً وتطور في نفسه الاحتقار لمفاسد المدنية. وكتب في ١٧٨٦ نشرة ضد قسيس سويسري هاجم روسو. وكان يحلم بكورسيكا المستقلة المتحررة من نير الفرنسيين. ثم أصدبح مع شوبنر الثورة جمهورياً متحمساً ونصيراً للنظام الجديد في كورسيكا. وظل يعقوبياً بضع سنوات حتى سقوط روبسبير.

٢ - بونابرت قائداً جمهورياً

وسرعان ما دأب صيته بأنه ضابط نافع مقتدر، وقد استطاع بوساطة شقيق روبرت سبيري الأصغر أن يحصل على أول فرصة يبرز بها أقرانه في طولون. وكان الملكيون قد سلموا طولون للبريطانيين والإسبان، واحتل أسطول متحالف ميناءها. وأعطيت لبونابرت قيادة المدفعية، واستطاع الفرنسيون بقيادته أن يرغموا الحلفاء على مغادرة الميناء والمدينة.

ثم عين بعد ذلك قائداً للمدفعية في إيطاليا، ولكنه قبل أن يتسلم مقاليد عمله اكفهر الجو وبدأ في الأفق أن موت روبسبير قد يجبر مصرعه أيضاً؛ فوضع تحت الاعتقال بوصفه يعقوبياً، وظل خطر المقصلة محدقاً برقبته رداً من الزمان. ثم انقشع ذلك الخطر. وعين قائداً للمدفعية في غارة على كورسيكا لم تأت بفائدة، ثم ذهب إلى باريس (١٧٩٥) وهو في حال رثة. وتصف مدام جونو في مذكراتها وجهه الهزيل ومظهره الرث في ذلك الزمان، وشعره "الأشعث سيئ التنزير يتدلى فوق معطفه الرمادي"، ويديه العاطلتين عن الفقاير وحذاء السيئ الدهان. كان ذلك زمان إجهاد وانتكاس أعقابا قساوات الجمهورية اليعقوبية. يقول هولاند دروز: كان نجم الحرية قد أخذ يأفل في باريس تلقاء إشراق عطارد (Meieury) والمريخ (Mars) والزهرة (Venus) أي المالية والثياب العسكرية والبهاء الاجتماعي. وكان خيرة الرجال العاديين يعملون في الجيوش وراء الحدود. ولقد سبق أن ذكرنا من قبل آخر ثورة للملكيين في ١٧٩٥. ومن حسن طالع نابليون أنه كان في باريس في ذلك اليوم، فلقي في هذه المسألة نهزته الثانية. فأنقذ جمهورية الإدارة.

وأثرت كفايته في كارنو أيما تأثير، وهو أشد المديرين استقامة فأعجب به. زد على ذلك أنه تزوج من أرملة شابة حسنة، هي مدام جوزفين دي بوهارنية، وكان لها سلطان عظيم على باراه (Barras). والراجح أن هذين الأمرين هما اللذان ساعدها على الحصول على القيادة في إيطاليا.

وليس أمامنا هنا متسع لقصة حملاته الزاكية في إيطاليا (١٧٩٦ - ١٧٩٧)، ولكن لابد لنا من كلمة أو اثنتين عن الروح التي تمت بها تلك الحملات على إيطاليا؛ لأنها تبين أنصع تبيان، تلك الروح المزدوجة لفرنسا ونابليون، وكيف أخذت الفكرة المثالية الجمهورية في الشحوب تلقاء الظروف العملية القاهرة. فإنه أعلن على الإيطاليين أن الفرنسيين إنما يقدمون لتحطيم أغلالهم - وكانوا عند قولهم؟! - على أنه يكتب إلى حكومة الإدارة يقول: "سوف نجبي عشرين مليوناً من الفرنكات، نحتم على الأهالي دفعها في هذه البلاد؛ فإنها من أغنى بلاد العالم". فأما جنوده فإنه خاطبهم بقوله: "إنكم جياح وتكادون تكونون عراة.. وإني لأفودكم إلى أخصب سهل في العالم. ولسوف تجدون هناك منداً عظيمة وولايات غنية وشرفاً ومجداً وثروة..".

ونحن البشر مفطورون لا جرم - على طبيعة مخلطة كهذه؛ بيد أن هذه الفقرات التي كتبها شاب في السابعة والعشرين، يلوح أنها تظهر الطلاء الذهبي المموه للمثالية العليا الشريفة وقد زال عنها ونصل في سن مبكرة تبكيراً غير عادي.

وكان نجاحه في إيطاليا زاكياً كاملاً. وكانت رغبته في الذهاب إلى إيطاليا راجعة إلى أنه كان يتوقع أن يجد فيها أشد الأعمال اجتذاباً له؛ فخطر بوظيفته في الجيش برفضه أن يقبل العمل المضني في قيادة حملة على العصاة في لافنديه. وكان قد أكب طويلاً على قراءة تراجم بلوتارك^(١) والتاريخ الروماني، فكان خياله البالغ النشاط ملتهباً عند ذاك بالأحلام، أحلام انبعاث الفتوح الشرقية للإمبراطورية الرومانية. تخلص نابليون من جمهورية البندقية بأن مزقها بين فرنسا والنمسا، محتفظاً لفرنسا بالجزائر الأيونية والأسطول البندقي. وقد أثبتت الأيام فيما بعد أن هذا الصلح المسمى صلح كامبو فورميو كان صفقة خاسرة لكل من الطرفين. فقد اشتتركت جمهورية فرنسا الجديدة في قتل جمهورية قديمة - وأنفذ نابليون رأيه مخالفاً بذلك صيحة مسخط وإنكار تعالت في فرنسا - وحصلت النمسا على مقاطعة فينيتيا، وهي الأراضي التي قدر عليها في ١٩١٨ أن تنزف فيها حتى تموت. وكانت هناك كذلك فقرات سرية اتفقت فيها فرنسا والنمسا على الحصول فيما بعد على الأراضي الألمانية الجنوبية. ولم يكن الحلم بالتوسع الروماني نحو الشرق هو وحده الذي كان آنذاك يعمل عمله في عقل نابليون. فهذه هي أرض قيصر نفسها، وكان قيصر مثلاً سيئاً لذلك الجنرال الموفق في جمهورية غير وطيدة.

وكان قيصر قد عاد إلى روما من بلاد الغال بطلاً وفاتحاً. فكان مقلده يريد أن يعود من مصر والهند مظفراً كذلك، ومن ثم تكون مصر والهند هي بلاد الغال بالنسبة إلى نابليون. وكانت عناصر الفشل تحلق بعينها في وجهه. إذ كان الطريق إلى مصر والهند بحرياً، وكان البريطانيون بالرغم من حدوث تمردين بحريين قريبي العهد، أقوى مئة في البحر من الفرنسيين. زد على ذلك أن مصر كانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، ولم تكن هذه بأي حال دولة يستهان بها في تلك الأيام. ولكنه مع ذلك أقنع حكومة الإدارة، التي كانت بهرتها في إيطاليا أعماله العظيمة بالسماح له بالذهاب. وخرجت أرمادا^(٢) من طولون في مايو ١٧٩٨ واستولت على مالطة، ومن يمن طالعهما أن تجنب الأسطول البريطاني ووصلت إلى الإسكندرية. فأنزل جنوده على عجل، ولم تلبث معركة الأهرام أن جعلته سيدياً على مصر.

وكان الأسطول البريطاني الرئيسي في ذلك الوقت في ظاهر المحيط الأطلسي قبالة قádiz، ولكن أمير البحر كان أفرد قوة من خيرة سفنه، بقيادة الفيس أميرال نلسون - وهو نابغة عظيم في الشؤون البحرية نبوغ نابليون في الأمور العسكرية البرية - أرسله ليتعقب العمارة الفرنسية الصغيرة وينازلها. وطفق نلسون حينئذ ما من الزمان يبحث عن الأسطول الفرنسي بلا جدوى؛ حتى وجده أخيراً في مساء يوم أول أغسطس رأسياً في خليج 'أبي قير' فأخذه على غرة؛ إذ كان كثير من الرجال على البر وكان ثمة مجلس منعقد في سفينة القيادة. ولم تكن لديه خرائط، وكانت قيادة السفن في مياه ضحلة تحت أنوار الأصيل الكابية أمراً محفوفاً بالمخاطر. ومن ثم استنتج الأميرال الفرنسي أن البريطانيين لن يهاجموه قبل طلوع الصبح، ولذا لم يتعجل

(١) تراجم بلوتارك. وهو كاتب إغريقي ولد في خيرونيا، وكان يلقي المحاضرات بروما في عصر هادريان. وكتابه "التراجم المتماثلة" يتكون من أزواج متقابلة من سير القادة والسياسيين الإغريق والرومان تعقبها مقارنات بين كل اثنين. (المترجم).

(٢) عمارة بحرية من سفن الحرب. (المترجم).

في استدعاء رجاله الموجودين على البر إلى سفنهم حتى فات الأوان. ومهما يكن من شيء، فإن نلسون أخذ يضرب من فوره مخالفًا بذلك نصيحة كثير من قواده. ولم تشحط منه إلا سفينة واحدة فقط. فدلّت بذلك بقية الأسطول على المنطقة الضحلة. وتحرك الأميرال بسفنه هاجمًا في خط مزدوج قرب غروب الشمس، فوضع الفرنسيين بين نارين. وأرخى الليل سدوله وقد التحم الطرفان في المعركة؛ وكان القتال يهدر وبه زمت جنح الظلام حتى أضاء المكان من فوره بلهب السفن الفرنسية المحترقة، ثم بوميض سفينة القيادة الفرنسية الأورينت (L'orient). وقد انفجرت... ولم ينتصف الليل حتى كانت معركة النيل قد انتهت، وكان أسطول نابليون قد تدمر. وبذلك انقطع الطريق على نابليون إلى فرنسا.

ويقول هولاندروز نقلًا عن ثيير Thiers، إن هذه الحملة المصرية كانت "أشد المحاولات التي سجلها التاريخ هوجًا وتسرعًا". فقد غدر نابليون في مصر وترك يتجمعون عليه والطاعون يفتك برجاله؛ ومع هذا فإنه استمر رديًا من الزمان يواصل القيام بهذه الخطة الشرقية. فأحرز في يافا نصرًا، وإذا كانت تعوزه الميرة فإنه أعمل الذبح في كل أسراه. ثم حاول أن يستولي على عكا، حيث استعملت ضده مدفعية الحصار الخاصة به، وكان البريطانيون استولوا عليها في البحر قبل ذلك بزمن يسير. حتى إذا عاد إلى مصر خائب المسعى قد أسقط في يده، فإنه أحرز فوزًا عظيمًا على جيش تركي عند أبي قير، ثم تخلى بعد ذلك عن جيشه في مصر - ولكن ذلك الجيش بقي يقاوم حتى عام ١٨٠١، حتى استسلم لقوة بريطانية - وفر نابليون بجلده إلى فرنسا ١٧٩٩، وقد نجا بأعجوبة من أن تأسره طراد بريطانية بالقرب من صقلية.

ولقد لقي في هذه المشروع من الإخفاق ما يسقط كل ثقة بأي قائد - لو أن أمر ذلك الإخفاق عرف. بيد أن الطرادات البريطانية التي أوشكت أن تلقي عليه القبض هي التي أعانته على إخفاء خبيته إذ منعت تسرب أي علم بحقيقة الموقف في مصر إلى مسامع الشعب الفرنسي. فاستطاع أن يقيم ضجة عظيمة حول معركة أبي قير وأن يخفي فشله في عكا. ولم تكن الأمور في فرنسا في ذلك الحين على ما يرام. إذ منيت بالهزائم العسكرية في مواطن عدة؛ فضاغ منها أكثر إيطاليا؛ وإيطاليا مما غرسته يدا بوناپرت، فأدى هذا إلى اتجاها الأنظار إليه بوصفه المنقذ الطبيعي للموقف، هذا إلى أنه حدث الشيء الكثير من الاخلاص، وأن أخبار بعضها أخذت تتسرب إلى الناس. فكانت فرنسا في أحد أدوار فضائحتها المالية، ولم يكن نابليون قد امتدت يده إلى أي مال، فكان الجمهور من ثم في تلك الحالة الكليّة حالة التعب المعنوي التي يطلب عندها الرجل القوي المتين، الرجل المدهش الفذ المستحيل المثال، الذي ينزل على قلب الأمة نزول البسم والترياق، ويقوم بكل شيء لكل إنسان. وأخذ الناس يقذفون في روع أنفسهم أن هذا الفتى الحسن الطواهر ذا الوجه الجامد، الذي أعادته العناية الإلهية من مصر - إنما هو الرجل القوي الأمين المنشود - وأنه واشنجتون آخر.

واستجاب نابليون لمطلب زمانه وفي مؤخرة ذهنه صورة يوليوس قيصر أكثر منها صورة واشنجتون. ودبرت مؤامرة محكمة لاستبدال ثلاثة "قناصل" بحكومة الإدارة؛ يكون نابليون كبيرهم - وكأنني بكل إيسان في ذلك الزمان يتلو أكثر مما ينبغي في صفحات التاريخ الروماني يقرأها ويستوعب ما فيها. والقيام به ذه المؤامرة عمل أعقد من أن يتسع له هذا المكان: وقد تضمن على طريقة كرومويل تشييت المجلس الأدنى (أي

مجلس الخمسمائة)، وفي هذا الأمر فقد نابليون رباطة جأشه. فإن النواب صاحوا به ودفعوه، حتى ليلوح أن الخوف داخله. فكاد أن يغمى عليه وأخذ يتمتم ويلجلج وأرتج عليه فلم يحر كلاماً، ولكن أخاه لوسيان أنقذ الموقف، بأن استقدم الجنود وقرق المجلس. على أن هذه الورطة الصغيرة لم تؤثر في نجاح الخطة النهائية. ونزل القناصل الثلاثة في بناء قصر لوكسمبرج، ومعهم قوميسيران اثنان لإعادة وضع الدستور.

وأخذ نابليون يعمل حيلاً زميليه والقوميسيرين بمنتهى الجراءة والصلف بعد أن عادت إليه كل ثقة بنفسه وبعد أن تحقق من نصرة الشعب له. وأنشئ دستور جعله الموظف التنفيذي الأكبر ولقبه بالقنصل الأول، وخوله سلطات هائلة. وكان لزاماً أن يكون هو نابليون، إذ كان ذلك منصوصاً عليه في صلب الدستور. وكان على أن يعاد انتخابه أو يستبدل به غيره بعد انقضاء عشر سنوات. وكان على أن يساعد مجلس الدولة، يعينه هو بنفسه، ويكون من حقه أن ينشئ التشريعات وأن يرسل مقترحاته إلى هيتين، هما الهيئة التشريعية (التي كانت تستطيع أن تعطي أصواتها في الموضوعات دون أن تناقشها) وهيئة التربيون (The Tribune) (وكانت تستطيع أن تناقش المسائل دون أن تعطي فيها صوتاً)، وينتخب الهيتين مجلس شيوخ أعضاؤه معينون من بين أفراد طبقة خاصة هي "ذو المكانة" في فرنسا، الذين كان ينتخبهم "ذو المكانة في المديرية أو المحافظة" الذين كان ينتخبهم "ذو المكانة في الكوميون" الذين كان ينتخبهم الذابخون العاديون؟ وكان الاقتراع على انتخاب ذوي المكانة في الكوميون حقاً مباحاً للجميع. فكان هذا هو المظهر الوحيد للديمقراطية في هذا الهرم المذهل المحير!!....

وكان هذا الدستور في معظم أمره الثمرة المشتركة لفيلسوف جليل هو "سياس Sieyes" (أحد القناصل الثلاثة) - بالاشتراك مع بوناپرت. على أن فرنسا بلغ بها الإعياء من متاعبها وجهودها، وبلغ من ثقة الناس في فضيلة واقتدار هذا الرجل مبعوث المقادير، أنه عندما حدث في مستهل القرن التاسع عشر أن قدم هذا الدستور إلى البلاد أقره ٣,٠١١,٠٠٧ صوتاً ضد ١٥٦٢. لقد وضعت فرنسا نفسها بين يدي بوناپرت وضعاً مطلقاً وأعدت العدة لأن تعيش في سلام وسعادة ومجد.

٣- نابليون قَتَصلاً أول ١٧٩٩ - ١٨٠٤

وليس هناك من وجه للشك في أنه سنحت هنا فرصة لم تسنح قط لرجل في العالم من قبل. فهنا منصب قد يتقوس له ظهر أي امرئ إشفافاً من نفسه على نفسه، وأن يبحث في زوايا قلبه، وأن يخدم الله والإدسان بأقصى مستطاعه. إن النظام القديم قد قضى أو كاد؛ وأخذت قوى عجيبة جديدة تندفع في أرجاء العالم تبحث عن شكل تصوغ فيه نفسها وقائد يوجهها. وكان الوعد المنتظر والأمل المعقود بجمهورية عالمية وبسلام عالمي دائم يداعبان أفئدة جمهور غفير من ذوي الأذهان المتزعجة. وكانت فرنسا بين يديه، وكانت أداة طيعة له يفعل بها ما يشاء، وهي أرغب ما تكون في السلام، غير أنها شاذة للحرب شحوذ مهند ممتاز. ولم يكن يعوز هذه الفرصة العظيمة إلا الخيال النبيل. وإذ فات نابليون ذلك فإنه لم يكن يستطيع إلا أن يتخذ ربحيلاء على قمة جبل النهزات ذاك العظيم، كما يتبخر الديك الفرخ فوق تل من الروث. فإن الشخصية التي يكونها لنفسه في التاريخ شخصية بها ما لا يكاد يصدق عقل من الغرور بالنفس والاحتقار الوقاح لكل من يتقوا به وعدم الاكتراث بهم. وجنون عظمة يقلد به قيصر والإسكندر وشرلمان تقلد له الردة، لولا أنه مخضب بالدماء الإنسانية الزكية لكان مبعث السخرية والاستهزاء. حتى "جاء" كما يقول فكتور هوجو بطريقته الهائلة "يوم ضاق فيه الله به ذرعاً"، فقفز به ركلًا بالأرجل ليختم أيامه في ركن منعزل يشرح ويشرح كم كانت أخطائه مسرحةً للذكاء والمهارة وهو يتربص في أرجاء جزيرته الدارة الموحشة متصيداً الطيور ويتشاجر شجاراً وضيقاً مع سجان منحنط التربية لم يكن يوليه "الاحترام" اللائق.

ولعل عمله كقنصل أول أقل أدوار حياته معرة. فإنه تناول في يده الشؤون العسكرية التي تقوضت أثناء حكم الإدارة. وبعد حملة معقدة في شمال إيطاليا، بلغ بالأمور إلى نصر حاسم عند مارينجو قرب الي ساندريا في (١٨٠٠). وكان نصراً قارب في بعض أوقاته أن يكون كارثة كبيرة. وفي ديسمبر من السنة نفسها أوقف الجنرال مورو (Moreau) هزيمة ساحقة منكراً بالجيش النمساوي قرب هوهليندن، في ظروف تكففته فيها عوامل الثلج والوحل والجو الفظيع الرهيب فلو أن نابليون فاز بهذه المعركة لاحتمست من بين أبرز مآثره وأعلها كعباً. وبهذه الأمور صار السلم المرجو أمراً ممكناً. وفي ١٨٠١ تم التوقيع على الخطوة الأولى الممهدة للصالح مع إنجلترا والنمسا. وانتهى الصلح مع إنجلترا بمعاهدة أميان في سنة ١٨٠٢. وصار نابليون مطلق اليدين يستطيع أن يتفرغ لفن السياسة والتدبير الخلاق المبتدع الذي كانت فرنسا - وأوروبا بأجمعها من وراء فرنسا - في أشد الحاجة إليه. لقد أتاحت الحرب لفرنسا أن تدرقعة أرضها وتوسع حدودها، وبمقتضى المعاهدة مع إنجلترا استرجعت فرنسا إمبراطوريتها في المستعمرات وأصبحت في حالة أمن تتجاوز أقصى ما كان يحلم به الملك لويس الرابع عشر. وكان الباب مفتوحاً أمام نابليون لكي يتجويد دعم نظام الأمور ويصنع دولة عصرية تكون نبراساً ومصدر وحي وإلهام على كل أوروبا والعالم قاطبة.

على أنه لم يحاول أن يعمل شيئاً من هذا القبيل. إذ كان خياله الهزيل المقلد ملتباً بحلم أن يكون هو قيصر من جديد. فكان يدبر الخطط لجعل نفسه إمبراطوراً حقيقياً، يضع على رأسه التاج ويجعل لمنافسيه وزملاءه في المدرسة وأصدقاءه عند موطني قديمه. ولم يكن هذا ليمنحه أية قوة جديدة ليست في يديه حتى

آنذاك، على أن ذلك يكون شيئاً أعظم أبهة وأشد فخامة، يكون شيئاً يدهش أمه. فيا لها من استجابة يستجيب بها رأس من هذا النوع للتحدي الرائع الخلاق في ذلك الزمان؟!!

ولكن لا بد أن تدرج فرنسا قبل كل شيء في مدارج الرخاء. إذ من المحقق أن فرنسا الجائعة لا تطيق وجود إمبراطور. فنصب نفسه لتنفيذ مشروع قديم للطرق كان لويس الخامس عشر أقره؛ وأنشأ الترع لتقليد ذا منه للترع الإنجليزية؛ ثم أعاد تنظيم البوليس ووطد شئون الأمن في البلاد. وتمهيداً لمشهد درامته الشخصية، نصب نفسه لجعل باريس تبدو في شكل روما بمالها من عقود كلاسيكية وعمد كلاسيكية. ونشأت في تنظييم البنوك خطط جديدة تستدعي الإعجاب، فاستعملها. وكان في كل هذه الأمور مساهمة لزمانه؛ فإنها أمور كانت لا بد آتية مع قدر من الاستعداد أقل وقدر من التركيز أضال، ولو لم يولد نابليون ق. ط. ونصب نفسه لإضعاف الجمهوريين الذين كان يدبر الخطط للعدوان على معتقداتهم الجوهريّة. فسمح بعودة المهاجرين على شريطة أن يقدموا التوكيدات المرضية على احترام النظام الجديد. وكان منهم كثير يرغبون أشد الرغبة في العودة على مثل تلك الشروط وأن يدعوا آل بوربون وشأنهم وبعدهم في خبر كان. ثم توصل إلى ص. ل. ح. عظيم أبرم به 'ميثاقاً Concordat' مع روما. تعهدت به أن تناصره وتعهد أن يعيد سلطانها في الأبروشيات. إذ كان يرى أن فرنسا لا يمكن أن تكون طيبة سلسلة القيادة، وأنها لن تستطيع أن تطبق ملكية جديدة من غير الدين. قال: 'كيف تستطيع أن تجد في دولة نظاماً من غير الدين؟ فالجماعة الإنسانية لا تستطيع أن تعيش من غير التفاوت في الثراء، الأمر الذي لا يمكن أن تقوم له قائمة مستديمة بمعزل عن الديانة. فعندما يوشك أحد الرجال أن يقضي نحبه جوعاً إلى جوار آخر مريض بالكظة والبشم، فإنه لا يستطيع أن يرضى بهذا الفارق ما لم تكن هناك سلطة تعلن أن الله إنما يريد ذلك كذلك؛ ولا بد للعالم من أن يحوي الفقير والغني؛ ولكن تقسيم الأشياء في العالم الآخر وفي كل الأبدية الخالدة سيكون على أساس مخالف'. وكانت الديانة في رأيه وبخاصة الديانة من الصنف الكاثوليكي المتأخر، مادة ممتازة يستطيع بها تسكين العامة. وكان في أيامه اليعقوبية الأولى قد طعن في الدين لنفس ذلك السبب.

وثمة عمل جليل آخر يدل على مجال خياله وتقديره للطبيعة الإنسانية وذلك هو نظام 'جوقة الشرف Legion of Honour'، وهي خطة للإنعام على الفرنسيين بقطع من الشريط، خطة دبرت تدبيراً محكماً ما معجباً بقصد تحويل نظر ذوي الطموح من الرجال عن القيام بتصرفات هدامة.

كذلك اهتم نابليون بالداعاية المسيحية. وما هي ذي فكرة نابليون عن فوائد المسيح السياسية، وهي فكرة تلطخت بها كل البعثات الدينية الفرنسية منذ ذلك الحين. قال: 'قد اتجهت رغبتني إلى إعادة إنشاء مؤسسة الإرساليات التبشيرية الأجنبية؛ إذ إن المبشرين الدينيين ربما كانوا ذوي نفع كبير إلى آسيا وإفريقيا وأمريكا، وذلك أنني سأكلفهم بتعرف كل الأراضي التي يزورونها. ولن تقف قداسة ثيابهم عند حد حمايتهم بل سوف تخفي وراءها أبحاثهم السياسية والتجارية. ولن تكون روما بعد اليوم مستقر رئاسة مؤسسة المرسدين، بل باريس'.

ألا ترى في هذا أفكار تاجر لص لا أفكار رجل دولة؟ وعلاجه لمسألة التعليم يُظهر في وضوح عمايته عن حقائق الفجر الجديد المنبثق من حوله. فأما التعليم الأولي فإنه أهمله إهمالاً يكاد يكون تاماً؛ فتركه لضمير السلطات المحلية، كذلك قرر أن المعلمين يجب أن تدفع رواتبهم من مصروفات التلاميذ؛ وواضح أنه لم يكن يرغب في أن يتعلم عامة الناس العلم؛ إذ لم تكن لديه أية بارقة إدراك ولو خاطفة عن السبب الذي من أجله يجب أن يتعلموا؛ ولكنه كان يهتم بتزويد المدارس الفنية والعليا بالمال، لأن دولته كانت في حاجة إلى خدمات رجال أذكى وأسعى الإطلاع يسعون وراء مصالحهم الذاتية. وكان هذا تراجعاً يبعث الذهول، عن الخطة العظيمة التي كتب مسودتها للجمهورية كوندورسيه^(١) في ١٧٩٢، محدداً إقامة نظام كامل من التعليم المجاني للشعب بأكمله. وتحقق الأيام في ببطء ولكن بثبات واستمرار مشروع كوندورسيه؛ فإن الأمم العظيمة في العالم تضطر أن تضعه موضع التنفيذ والتحقيق رويداً رويداً، وتخرج وسائل نابليون من نطاق اهتمامنا. أما تعليم زوجات وأمهات جنسنا فدونكم حكمة نابليون فيه: "لست ممن يعتقدون أن بنا حاجة إلى أن نتعبد أنفسنا بعمل خطة لتعليم الإناث الصغيرات، فليس في المستطاع أن يربيهن أحدٌ خيراً من أمهاتهن. وليس التعليم العام مناسباً لهن؛ لأنهن لا يطلبن قط للعمل العام، وإنما الأخلاق هي الكل في الكل لهن، والزواج كل غايتهن".

ولم يكن القنصل الأول أعطف على النساء في قوانين نابليون (Code Napoléon). إذ لم يكن يباح للزوجة مثلاً أن تتصرف في أملاكها؛ بل كانت (أي الزوجة) في يد زوجها. وكان هذا القانون في معظمه من عمل مجلس الدولة. ويلوح أن نابليون كان يعطل مناقشات ذلك المجلس ويعتاقها أكثر مما يساعدها. وإنه ليجتاح الجلسات غازياً بلا سابق إخطار، وينكرم على أعضائه بالقاء محاضرات طويلة مسهبية، كثير ما كانت تخرج عن الموضوع قيد الدرس خروجاً تاماً. وكان المجلس يستمع إليه باحترام عميق؛ إذ كان ذلك هو كل ما يستطيع المجلس أن يفعله. وإنه ليستبقي مستشاريه إلى ساعات متأخرة من الليل؛ مخالفة لكل معقول، ويظهر افتخاراً ساذجاً بقدرته الفائقة على السهر. وقد تذكر تلك المناقشات بارتياح عجيب إبان سنيه الأخيرة، ولاحظ في إحدى المناسبات أن مجده وفخاره لا يقوم على كسبه أربعين معركة بل على إنشائه قانون نابليون... وكان قانونه هذا شيئاً حسناً، بقدر ما ذهب بالمعميات القانونية العسيرة القديمة، وأحد مله ما الواضح البين من البيانات، فإنه جمع شتات مجموعة هائلة غير منتظمة من القوانين القديمة والجديدة ثم نقحها ووضحها، والقانون شأن كل عمل إنشائي، كان يهدف إلى الكفاية المباشرة، فإنه وضع مع التعاريف للأشياء والعلاقات، حتى يشرع الناس في العمل عليها بلا مناقشة جديدة. ومما يقلل من أهميته المباشرة العملية أنه كثيراً ما كان يُعرف تلك الأشياء تعريفاً خاطئاً. ولم يكن وراء عملية التقنين هذه أية قوة ذهنية

(١) كوندورسيه (١٧٤٣ - ١٧٩٤): فيلسوف ورجل دولة فرنسي. اشترك في إنشاء الموسوعة وأكسبته مقالاته في نظرية الإمكانات شهرة واسعة، انضم إلى الثورة وانتخب عضواً في الجمعية التشريعية (١٧٩١ - ١٧٩٢)، وكانت خطته التي كتبها عن واجب الدولة في التعليم أساساً لخطة فرنسا التعليمية. عارض وإن كان من رجال الثورة في قتل الملك، فأهدر دمه. ولم يقبض عليه في النهاية وجد ميتاً، ولعله تجرع السم. (المترجم).

تنهض كشيء متميز عن النشاط الذهني. إذ إنها سلمت بكل شيء قائم: "إن جلالته لا يعتقد إلا في الموج ود^(١). والواقع أن الفكرات الجوهرية الأساسية للمجتمع الممدن، وقواعد التعاون الإنساني كانت تمر في مرحلة إعادة تشكيل قطبها ومدارها نابليون - ولكنه لم يشعر بذلك الأمر أبداً. وكل ما فعله أنه قبل دوراً من أدوار التغيير. وحاول أنه يثبت إلى الأبد. ولا تزال فرنسا إلى يومنا هذا مَقَطَّة مشدودة الوثاق به ذا الـ صُديري الضيق الذي يرجع به العهد إلى أوائل القرن التاسع عشر، والذي حشرها فيه نابليون. ذلك بأنه ثبت أحد والنساء وثبت أحوال العمال وأحوال الفلاحين، ولا يزالون جميعاً يكافحون إلى يومنا هذا بين خيط وشبكة تعريفاته الجامدة. وتقدم نابليون في نشاط وقوة فنصب ذهنه الجامد الصافي الضيق الأفق لكي يستنهض قوة فرنسا ويشد من عزمها. ولم يكن ذلك الاستنهاض إلا جزءاً من الخطط الأعظم شمولاً التي كانت تملأ جوانب نفسه وتتسلط عليها. فقد اتجه خياله اتجاه الإصرار والعزم إلى "قيصرية Caesarism" جديدة. وفي ١٨٠٢ جعلهم يعينونه قنصلاً أول مدى الحياة مع إعطائه حق تعيين خلف له، وترتب على مراميه الواضحة إلى إلحاق هولندا وإيطاليا بفرنسا بالرغم من التزاماته في المعاهدات بأن يتركهم ما منفصلتين، أن أخذت معاهدة أميان تترنح ترنحاً شديداً منذ البداية بذاتها. ولما كان من الضروري أن تثير عليه خطته حرباً مع إنجلترا، فقد كان يجدر به أن يترث بأي ثمن حتى يرتفع ببحريته إلى حد التفوق على البحرية البريطانية. فإنه كان مطلق اليد يتحكم في موارد عظيمة لبناء السفن، وكانت الحكومة البريطانية حكومة واهنة، وكانت سنوات ثلاث أو أربع كفيلة بتحويل كفة الميزان. ولكنه بالرغم مما لقي في مصر من تجربة شاقة قاسية، لم يدرك قط أهمية القوة البحرية. وفي ١٨٠٣ عجل احتلاله لسويسرا بالأزمة؛ ونشبت الحرب من جديد مع إنجلترا. فقد حدث أن الوزير الضعيف أدينجتون أخلى مكانه في إنجلترا لوليم بت الأعظم منه مقدرة. ومنذ تلك الساعة أصبحت بقية قصة نابليون تدور حول تلك الحرب.

وقد ظل القنصل الأول أثناء مدة القنصلية يعمل ناشطاً على زيادة ثروات إخوته وأخواته. وهو أمر يتصل إلى النفس البشرية بسبب قوي ويمت إلى حب العشيرة وإلى المزاج الكورسيكي كما أنه ينفعا في أن نفهم بالضبط كيف كان الرجل يقدر منصبه والنهزات المائلة بين يديه. وهناك عامل ضخم في تكوين نابليون هو الرغبة في أن يذهل ويدهش ويروع أذهان آل بوناپرت وجيرانهم ويخضعها لسلطانه. فكان يرقى إخوته بشكل يثير الضحك إذ إنهم كانوا رجالاً عاديين جداً ولكن شخصاً واحداً كان يعرفه حق المعرفة لم تخالجه الدهشة ولا داخلته الروعة ولا الخضوع. وكان ذلك الشخص هو أمه. كان يرسل إليها المال لتتفقه وتدهش به جيرانها؛ وكان يحضها على أن تتخذ لنفسها مظهرًا عظيمًا، وأن تعيش العيش الذي يتناسب وأمثالها. ذا الابن العجيب الذي يهز العالم هزاً.

غير أن السيدة الوقور التي قرعت بالمقرعة رجل الأقدار وهو في سن السادسة عشرة، لأدله لعب وجهه لجذته، لم تنبهر ولم تتخدد له عند سن الثانية والثلاثين، قد تستطيع فرنسا كلها أن تعبد له ولكن الأم لم

(١) من اقتباس ليو لاند روز عن جورج "Sa Majesté ne croit que ce qui est."

يساورها أي وهم خادع من قبله فكانت تضع النقود التي يرسلها جانباً؛ وتواصل المضي على اقتصادها المعتاد. قالت: "عندما ينتهي كل شيء سيكون ادخاري هذا موضع سرورك".

٤- نابليون الأول إمبراطوراً (١٨٠٤ - ١٨١٤)

لن نفصل لك القول في الخطوات التي غدا بها نابليون إمبراطوراً. وكان تتويجه ابتعاًاً للتقديم هو أشد ما قد يتصوره العقل من ابتعاًات التقديم خرقاً للمعتاد. ولم يعد قيصر هو نموذج المحتذى؛ بل كان نابليون عند ذاك هو شرلمان. فإنه توج إمبراطوراً، حقاً إنه لم يتوج في روما، بل في كاتدرائية نوتردام بباريس، واستحضر البابا بيوس السابع من روما للقيام بطقوس الاحتفال؛ ولما بلغ الأمر أوجه أخذ نابليون الأول التاج بيده ودفع البابا جانباً، وتوج نفسه بنفسه. وبذلك تكون نصيحة شرلمان للويس^(١) قد آتت آخر الدهر ثمارها. وفي سنة (١٨٠٦) ابتعث نابليون قطعة أخرى وقورة من الماضي السحيق، إذ إنه لما كان ما يزال يتعقب خطى شرلمان، فإنه توج نفسه بتاج لومباردي الحديدي في كاتدرائية ميلان. وعندئذ صار لزاماً على الجمهوريات بنات فرنسا الأربع أن يصبحن ممالك: ففي ١٨٠٦ نصب الأخ لويس في هولندا والأخ جوزيف في نابولي. على أن قصة الممالك التابعة التي خلقها في أوروبا، قصة أعقد وأقصر عمراً من أن تتحملها هذه المعالم، وإن كان هذا العبث بالحدود عوباً على ما تلا ذلك من توحيد إيطاليا وألمانيا.

ولم يعمر هذا الحلف الذي تم بين شرلمان الجديد وليو الجديد، زمناً طويلاً جداً. ففي ١٨٠٧ شرع يتحدي البابا ويضغط عليه. وفي ١٨١١ جعل منه أسيراً مضيقاً عليه في فونتبليو. ولا يبدو أن هذه الإجراءات تنطوي على حكمة كبيرة. فإنها نفرت منه الرأي العام الكاثوليكي، كما نفرت منه تتويجه. والرامي العام المتحرر. وبذلك كف عن أن يكون نصيراً وممثلاً للتقديم والجديد على السواء. فأما الجديد فقد خان، وأما القديم فقد فشل في اكتسابه. وأخيراً لم يعد يمثل أحداً إلا نفسه.

ويبدو أن سياسته الخارجية لم تكن تنطوي إلا على مثل ذلك القدر الضئيل من التعقل؛ فإنه ما زجبت آنذاك أوروبا في غمرة دورة جديدة من دورات الحرب. ولما كان قد اختلف مع بريطانيا العظمى في أوائل مبكر جداً فإنه حشد جيشاً عرمرماً في بولونية (Boulogne) ليغزو به إنجلترا، غير ناظر إلى الموقف البحري. بل لقد بلغ به الأمر أن صك مدالية وأقام عموداً في بولونية تخليداً لذكرى نصره في غزوته المنتظرة. وكان دبر بطريقة نابليونية محضاً أن يخدع الأسطول البريطاني ويستدرجه بعيداً، وأن يهزم جيش بولونيه ذاك غير مضيق المانش على أسطول صغير من الأمراث والزوارق، وأن تؤخذ لندن قبل أن يعود الأسطول. وفي نفس الوقت اضطرت النمسا والروسيا إزاء اعتداءاته في جنوب ألمانيا، إلى عقد تحالف وطيد مع بريطانيا ضده. وفي ١٨٠٥ وقعت ضربتان قاتلتان على كل أمل له في النصر النهائي، أنزلهما به أمير البحر البريطانيان كالدور ونلسون. فإن الأول أنزل في يولييه هزيمة منكرة بالأسطول الفرنسي في خليج بسكي؛ وفي أكتوبر دمر الثاني أسطول فرنسا وإسبانيا المشترك في معركة الطرف الأغر. ومات نلسون ميتة رائعة وهو مظفر فوق سفينته "النصر". ومنذ تلك اللحظة استحکم العداء مبرراً بين نابليون وبريطانيا، وهي

(١) هو لويس الورع ابن شرلمان. انظر المعالم ص ٨٥٤ ج ٣ ط ٢. (المترجم).

في منعة لا تستطيع أن يصل إليها ولا أن يقهرها، بينما كانت هي تستطيع أن تضربه هذا أو هناك على امتداد كل شواطئ أوروبا.

وتكتم نابليون الخبر وأخفى أنباء ذلك الجرح القاتل الذي أصابه في "الطرف الأغر" بضع سنوات عن مسامع الفرنسيين. وكل ما سمعوه هو أن "العواصف قد سببت لنا خسارة بعض السفن الحربية بعد وقت بالآخر". وبعد انتصار كالدس سحب نابليون جيشه من مدينة بولونية على عجل، واندفع به عبر أوروبا وهزم النمسيين في 'أولم' و'أوسترلتز'. ودخلت بروسيا الحرب ضده في هذه الظروف المشؤمة. فهزمت هزيمة تامة وحطمت قواها في معركة بينا (Jena) (١٨٠٦). ومع أن النمسا وبروسيا قد كسرتا فإن روسيا كانت لا تزال قوة مقاتلة، وخصصت السنة التالية لذلك الخصم الأصعب مراساً، الأبعد منالاً، الأعسر مدخلاً. ولسنا بقادرين أن نتعقب في أي تفصيل صعوبات الحملة البولندية على روسيا، ولقي نابليون شراً كبيراً في بَلْتْسْك - التي أعلن في باريس أنها نصر عظيم - وكذلك لقي مثل هذا الشر في إيلاو (Eylau). ثم بحر الروس في فريد لاند ١٨٠٧. ولم يكن حتى ذلك الوقت قد مس الأرض الروسية بقمه، وكان الروسيون لا يزالون غير مقهورين كالبريطانيين سواء بسواء؛ ولكن سنحت عند ذلك لنابليون بارقة عجيبة من الحظ الحسن. فإنه استطاع بواسطة خليط من التفاخر والخذاع والمداينة، أن يضم إلى جانبه قبصر روسيا الشاب المموج إسكندر الأول - إذ كان سنه لا يتجاوز الثلاثين - وأن يحمله على عقد تحالف معه. وتلقى الإمبراطور وراو على عوامة في وسط نهر النيمن قرب تِلْسِت (Tilsit). حيث تفاهما.

وكان الإسكندر تشرب بالشئ الكثير من النزعة التحررية أثناء تلقيه العلم في بلاط كاترين الثانية. وكان يناصر بكل قواه الحرية والتعليم ونظام العالم الجديد - شريطة خضوعها لاستعلائه. وقال أحد خطائه في مستهل شبابه "إنه يسره أن يرى كل إنسان حراً، على شريطة أن يكون كل إنسان مستعداً أن يفعل بحرية ما يريده بالضبط". وقد أعلن أنه مستعد أن يلغي نظام "موالي الأرض Serfdom" وإن كلفه ذلك رأسه ثمناً - لو حدث فقط أن تقدمت نتيجة لذلك أسباب الحضارة. وقال إنه يخوض الحرب مع فرنسا لكي يحرر الشعب الفرنسي - لأن نابليون كان طاغية مستبدًا. وبعد معركة فريد لاند أخذ يبصر نابليون تدت ضياء جديد. تلاقى هذان الرجلان بعد تلك الهزيمة بأحد عشر يوماً، وكان الإسكندر يمر ولا ريب في حالة من التعظيم التبريري الموافق لطبيعة أبناء طرازه حين يكونون في حالة مزاجية من التغيير.

ولا بد أن المقابلة كانت مرضية تمام الإرضاء لنابليون. فقد كان ذلك أول لقاء له مع أحد الأباطرة على أساس من التكافؤ. وحلق في الجو خيالان من فوق ظهر تلك العوامة في تِلْسِت. قال الإسكندر: 'ما هي أوروبا؟ إنما نحن أوروبا'. تناقشا في شئون بروسيا والنمسا متأثرين بهذه الروح، وتقاسما تركيا مقدماً، ودبرا أمر غزو بلاد الهند، بل الواقع أنهما دبرا غزو معظم آسيا وأن تأخذ روسيا فنلندة من السويديين؛ على أنهما أغفلا تلك الحقيقة المرة وهي أن القسم الأكبر من العالم مكون من بحر، وأن الأسطول البريطاني كان عند ذاك يبسط قلوبه في البحار غير منازع. وكانت بولندة قاب قوسين أو أدنى، وهي على أتم استعداد لأن تنثور وتكون حليف فرنسا المتحمس لو أن نابليون رغب قط في هذا. على أنه كان عن بولندة في عماية تامة. كان

يومه يوم روى لا رؤية فيه. وقد أخفى نابليون في نفسه فيما يبدو حتى في ذلك اليوم، تلك الفكرة الجريئة بأن يتزوج يوماً ما أميرة روسية، أميرة حقيقية. على أنه ما لبث حتى تعلم بعد ذلك في ١٨١٠ - أن في ه ذا تجاوز لحدوده بعض الشيء...

وحدث بعد ثلثت تقوض ملحوظ في صفات نابليون؛ فإنه أصبح أكثر اندفاعاً وأقل صلابة على العقبات، واشتد به استبداد فكرة سيد العالم الذي هيأته الأقدار، وتزايدت مضايقته لكل من لقيه. وفي (١٨٠٨) ارتكب غلطة خطيرة جداً. فإن إسبانيا كانت حليفه الذليل، وكانت تحت مطلق تصرفه تماماً، ولكنه رأى من المناسب أن يخلع ملكها البوربونى لكي يرقى إلى عرشه أخاه جوزيف من عرش الصقليتين^(١). وقد أتم فتح البرتغال من قبل على نية أن يوحد تحت تاج أخيه كلا من المملكتين البرتغالية والإسبانية. ومن ثم صار الإسبان عليه في حق وطني متأجج، وأحاطوا بجيش فرنسي في بايلن، وأجبروه على التسليم. وكان ذلك ثلثة مدهشة في سيرة النصر الفرنسي المتواصل.

ولم يتباطأ البريطانيون عن النقاط موطنى القدم الذي أتاحته لهم تلك الثورة. فقد نزل في أرض البرتغال جيش بريطاني بقيادة السر آرثر ولزلي (المسمى بعد ذلك باسم الدوق ولينجتون) وهزم الفرنسيين في فيميرو، وأجبرهم على الانسحاب إلى إسبانيا. وأثارت أخبار هذه الهزائم هياجاً عظيماً جداً في الخواطر في ألمانيا والنمسا، وعاد القيصر فأظهر إزاء حليفه قدراً أكبر من الغطرسة.

ثم تمت مقابلة أخرى بين هذين العاملين في "إرفورت Erfurt"، كان فيها القيصر أقل تأثراً وإنهياراً بخطط نابليون الواهجة، وأعقبت ذلك أربع سنوات قضتها فرنسا في رفعة مقلقة غير ثابتة، على حين كانت الحدود تترفف على خريطة أوروبا وفرقة الثياب على حبل الغسيل في يوم رائج. ونمت إمبراطورية نابليون الشخصية بما ألحق بها صراحة من أقطار، حتى تضمنت هولندا وشطرا كبيراً من ألمانيا الغربية وكثيراً من إيطاليا وكثيراً من الشاطئ الأدرىاتي الشرقى. ولكن المستعمرات الفرنسية كانت تسقط في أيدي البريطانيين واحدة تلو الأخرى، وأخذت الجيوش البريطانية في شبه الجزيرة الإسبانية تدفع بالفرنسيين في بطء نحو الشمال يساعدها في ذلك المتطوعون الإسبان. وكانت أوروبا بأجمعها قد أخذت تمل نابليون أشد الملل؛ ولم يعد خصومه عند ذلك مجرد الملوك والوزراء، بل شعوباً بأكملها كذلك. وكان البروسيون بعد كارثة إيبينا Jena في ١٨٠٦ قد هبوا للعمل على تنظيم بيتهم. فإنهم قاموا بقيادة الفراهير فون شتين واطرحوا نظامهم الإقطاعي جانباً، وألغوا الامتيازات ونظام موالى الأرض، ونظموا التعليم الشعبى، والوطنية الشعبية، وأتموا تقريباً - وكان هذا في واقع الأمر بلا نزاع داخلي - كل شيء حصلت عليه فرنسا في ١٧٨٩. ولما وافى ١٨١٠ كانت هناك بروسيا جديدة، هي التواة لألمانيا الجديدة. وعند ذلك أخذ الإسكندر وقد قُذفت في روعه فيما يبدو أحلام السيادة العالمية - يتخذ من جديد وضع صديق الحرية. وفي ١٨١٠ حدث احتكاك جديد بسبب اعتراض الإسكندر على مطامع نابليون في الزواج. ذلك أن نابليون كان قد أخذ عند ذلك بأس باب الطلاق من معيخته القديمة جوزفين، لأنها لم تعقب ولذا يضمن استمرار الملك في أسرته. والآن وقد أبيت

(١) الصقليتين: مملكة كانت تتكون من صقلية وجنوبي إيطاليا (نابولي). (المترجم).

على نابليون أميرة روسية بل الواقع أن الإسكندر حقره ونكره بضعة مولده، فإنه اتجه شطر النمسا وتزوج الأرشيذوقة ماري لويوز. ذلك أن رجال السياسة النمسيين قرأوه قراءة صادقة. وكانوا على أشد الأسس تعداد لإلقاء أميرتهم إليه. وبهذا الزواج أوقع نابليون نفسه في أيديهم من أجل نظام الأسرة المالكة. وربما كان يستطيع أن يكون مكون عالم جديد، ولكنه أثر أن يكون صهرًا للعالم القديم.

وفي السنتين التاليتين داخل ألوهن والانحطاط شئونه. فلم يعد بعد قائد الثورة ومكمل ما فاتها؛ ولم يعد بعد ذلك هو الروح المجسد لعالم مولود من جديد؛ بل كان مجرد صنف جديد من أصناف الأوتوقراطي أشد فجاجة. وقد باعد ما بينه وبين كل ذوي النفوس الحرة من الرجال، كما استدعى عداوة الكنيسة له. فكان الملوك واليعاقبة فيه على رأي واحد متفق ضده عندما بلغ الرأي حد القضاء عليه. وكانت بريطانيا عند ذلك هي خصمه اللدود، على حين كانت تتأجج في إسبانيا روح لا بد أنها ميسورة الفهم لكل كورسيكي؛ ولم يكن الأمر بحاجة إلا إلى شيء واحد هو الانفصال عن الإسكندر الأول لكي تدفع هذه الإمبراطورية إمبراطورية الخداع والمنابر المسرحية دفعا يعثرها ويسقطها. وجاء الخلاف. وكانت مشاعر الإسكندر نحو نابليون على الدوام مبهمة مخطئة جدًا، فإنه كان يحسد نابليون بوصفه منافسًا ويحتقره بوصفه عصامياً وضيق المنبت. زد على ذلك أن الإسكندر كان يكتفه نوع من العظمة المبهمة العاطفية؛ وقد غلبت عليه نزعة تدين صوفية، وأخذت تساوره فكرة رسالة تدعوه والروسيا معاً إلى اجتلاب السلام إلى العالم بتحطيم نابليون. على أن اجتلاب السلام إلى أوروبا، لم يكن يتناقض في رأيه مطلقاً مع ضم بولندة إليه؛ واسد تلحاقه معظم بولندة واستيلائه على أجزاء عظيمة من الإمبراطورية التركية؟! وكان يرغب بوجه خاص أن يعيد التجارة مع بريطانيا، التي كان نابليون مُصرّاً على انقطاعها. وذلك أن تجارة ألمانيا جمعاء تفلقت، وأن طبقات التجار الألمان كانت في غيظ شديد من "النظام القاري النابليوني"، الذي يرمي إلى القضاء على بريطانيا بطرد كل البضائع البريطانية من أقطار أوروبا أجمع. وكابدت روسيا من جراء ذلك عناء كثيراً ولعلها قاست أكثر من ألمانيا.

وجاء الشقاق في ١٨١١، عندما انسحب الإسكندر من "النظام القاري". وفي ١٨١٢ اجتمعت جميع هائلة من الجنود تبلغ في مجموعها ٦٠٠,٠٠٠ مقاتل، وأخذت تتحرك نحو الروسيات تحت قيادة العلياء للإمبراطور الجديد. وكان نصف هذه القوة تقريباً من الفرنسيين على حين جمع الباقون من حلفاء فرنسا والشعوب الخاضعة لها. كان جيشاً مخطئاً أشبه شيء بجيش دارا أو جيش قباز. وكانت الحرب الإسبانية لا تزال على قدم؛ ولم يقم نابليون بأي جهد لإنهائها. وقد اقتطعت من فرنسا قوة يبلغ مجموعها ربع مليون رجل. فشق طريقه مقاتلاً عبر بولندة والروسيا إلى موسكو قبل حلول الشتاء - وظلت الجيوش الروسية تمتنع في جل شأنها عن قتاله - وأصبح مركزه خطراً خطورة واضحة حتى قبل أن يطبق عليه الشتاء. فاستولى على موسكو متوقعاً أن يضطر ذلك الإسكندر إلى عقد الصلح. ولكن الإسكندر لم يرغب في عقد الصلح، ووجد نابليون نفسه في مركز هو أشبه شيء بمركز دارا في جنوب روسيا، قبل ذلك بألفين وثلاثمائة من السنين. وكان الروسيون وهم ما يزالون بعد غير مغلوبين يهاجمون مواصلاته ويفنون أفراد جيشه - يساعدهم في ذلك المرض، فهلك من رجاله خمسة عشر ألفاً حتى قبل أن يصل إلى موسكو. ولكن

كانت تعوزه حكمة دارا فلم يرغب في التقهقر. وظل الشتاء معتدلاً مدة طويلة طويلاً غير عادي - فكان في مقدوره أن ينجو. ولكنه بدلاً من ذلك أقام في موسكو يدبر الخطط المستحيلة. فقد كان قبل ذاك سعيد الحظ سعادة عجيبة في كل مقامراته السابقة مع القدر؛ وقد نجا من مصر نجاة لا يستحقها، وأنقذه من التحطيم في بريطانيا الانتصارات البحرية البريطانية؛ ولكن ما هو ذا قد وقع في الفخ مرة أخرى، وما كان لينجوه هذه المرة. ولعله كان ينبغي أن يقضي الشتاء في موسكو، ولكن الروسيين طردوه بسحب الدخان طرد النحل من أكواره، إذ أضرموا النار في المدينة وأحرقوا معظمها.

تأخر به الأوان في أكتوبر، بل تأخر به أكثر مما ينبغي، قبل أن يصح عزمه على العودة. فحاول محاولة غير مجدية أن يخترق طريقه إلى خط تراجع جديد إلى الجنوب الغربي، ثم حول وجهة من تبقى له من جيشه اللجب نحو القطر الذي عاثوا فيه فساداً أثناء تقدمهم. وكانت المسافات الشاسعة تفصلهم عن كل أرض مواتية. ولم يكن الشتاء متعجلاً. وظل الجيش العرمرم أسبوعاً وهو يكافح بين الوحول؛ ثم جاء الصقيع الشديد ألواناً، ثم تهطلت أوائل ندف الثلج، ثم الثلج فالثلج....

وأخذ النظام ينحل رويداً رويداً. وانتشر الجيش الجائع يبحث عن الميرة حتى أصبح مجرد تلال من المغيرين. وقام الفلاحون عليهم دفاعاً عن النفس على أقل تقدير وأخذوا يكمنون لهم في الطرقات ويقتلونهم. وكانت غمامة من الركابة الخفيفة ما تنفك تلاحقهم وتصيب منهم على الشاكلة الإسكندنافية^(١). وهذا التقهقر من أكبر مآسي التاريخ.

وأخيراً ظهر نابليون في ألمانيا ومعه هيئة قيادته وثلة من الحرس والأتباع، ولم يحضر معه جيشه، وإنما كانت تتبعه فقط شرائط تجر سيقانها جراً، وقد فقدت كل معنوياتها. ولكن الجيش العظيم المتقهقر بقيادة موراه وصل إلى كونجسبرج في حالة انتظام، بعد أن لم يبق منه إلا ألف من الرجال من قرابة الستمائة ألف. وتراجع موراه من كونجسبرج إلى بوزن. وكانت الفصيلة البروسية قد استسلمت للروس؛ وانفصل عنه النمساويون واتجهوا جنوباً نحو وطنهم. وفي كل مكان كان اللاجئين المتمدنون والثرثو الثياب الهزيل والأجساد الذين عضهم الصقيع ينشرون أخبار الكارثة.

لقد تبدد سحر نابليون أو كاد. ففر مهرولاً إلى باريس. وشرع ينظم مجندين جددًا ويجمع جيوشاً جديدة بين حطام إمبراطوريته العالمية. وانقلبت عليه النمسا ١٨١٣؛ وكانت أوروبا بأكملها توافقه إلى الثورة على مؤتمن الحرية الذي قصر في حقوقها وفرط في أمانتها، ولم يخرج عن مجرد مغتصب محض. لقد تخلى عن النظام الجديد؛ فالآن دمره النظام القديم، الذي أنقذه وابتعته. وثارت بروسيا، وابتدأت حرب التحرير الألمانية وانضمت السويد إلى زمرة أعدائه. وثارت هولندية بعيد ذلك وكان موراه جمع في بوزن حول نواته المنظمة أربعة عشر ألف فرنسي. وتراجعت هذه القوة خلال ألمانيا، كما قد يتراجع رجل تجرأ على المرور وسط قفص مليء بالسباع المخدرة فوجد آثار التخدير قد أخذت تتبخر. وفي الربيع تناول نابليون القيادة العليا على جيوش جديدة، ثم كسب معركة عظيمة عند درسدن، ثم يلوح أنه قد أصيب ردحاً من الزمان بتشتت

(١) الإسكندنافية أو الأشقودية انظر ص ٣٤٣ ج ٢ من المعالم ط ٢. (المترجم).

وانهيار في قواه الفكرية والمعنوية. فأصبح سريع التأثر بشكل جنوني، ثم أخذت تلم به أحياناً حالات من الجمود. فإنه لم يفعل إلا القليل، أو لم يفعل شيئاً على الإطلاق يشفع به معركة درسدن. وفي سبتمبر نشبت 'معركة الأمم' حول ليبزج وبالقرب منها، وانضم السكسون في أعقاب ذلك إلى الحلفاء وكانوا حتى ذلك اليوم يتبعون نجمه. ولم تنته السنة حتى كان الفرنسيون يتراجعون إلى فرنسا منحدريين.

وكانت ١٨١٤ هي حملة الختام. فاجتاحت فرنسا من الشرق والجنوب. فعبر الراين السويديون والألمان والنمسيون والروسيون، وجاء البريطانيون والإسبان من فوق جبال البرانس. وأخذ نابليون يقاتل مرة أخرى قتالاً زاكياً رائعاً، ولكنه قتال غير مجد. على أن الجيوش الشرقية لم يستطع أن تهزمه قدر ما استطاعت أن تشق طريقها إلى جواره، واستسلمت باريس في مارس. ولم يمض طويل حتى تنازل الإمبراطور في فونتينبلو عن العرش وكانت تقضي على حياته جماعة من الرعايا الملكيين في بروفانس وهو في طريقه إلى الخارج.

٥ - المائة يوم

تلك هي الخاتمة الطبيعية الصائبة لحياة نابليون ^(١). وما قد قضى عليه آخر الأمر. فلو كانت هناك حكمة حقيقية في تصريف الشؤون الإنسانية، لوجب علينا الآن أن نحدثك عن تمركز العلم الإنساني والإرادة الإنسانية، وتوفرها على أداء الواجب الذي قطعت حياته حبل أدائه وأعني به واجب إنشاء نظام عالمي للعدالة والجهد الحر بدل النظام القديم المفلس. ولكننا لسنا بمحدثك عن شيء من هذا القبيل. فقد كان العلم والحكمة غائبين غياباً طاهراً ملموساً عن مجلس الحلفاء العظيم. ووافت إليه النزعة الإنسانية المبهمة والغرور الدائم عند القيصر الإسكندر، ووافاه آل هابسبرج النمساويون الضعفاء، وآل هوهنولرن البروسيون المغضبون، ووفدت عليه تقاليد بريطانيا الأرسقراطية وهي لا تزال وجلة الروح من الثورة، وضميرها لا يبرح منحرفاً ما متقللاً بما يبهظه من أراضي عامة مغتصبة وأطفال مصانع مكودنين عملاً. ولم يحضر المؤتمر أي شعب من الشعوب بل توافى له الملوك ووزرائه الخارجية دون غيرهم. ولم يكد المؤتمر يجتمع حتى أقبل الدبلوماسيون على العمل على عقد الصفقات والمعاهدات السرية كل من وراء ظهر أخيه. وبين مظاهر الفخامة والجلال التي لا يعلو عليها شيء، اجتمع المؤتمر في فيينا بعد زيارة شرف فخمة أداها ملوك الحلفاء للندن. وكانت الناحية الاجتماعية من المؤتمر قوية جداً، فقد كثرت فيه السيدات الحسان، وتألفت به مجموعة زاهرة من النجوم وأصحاب البدلات الرسمية، وأقيمت به ما لا نهاية له من المآدب وحفلات الرقص، وروى فيه فيض جارف من النوادر والنكات المشرقة للألاء. وكان أذكى أفراد المجتمعين روحاً شخص بعينه اسمه تاليران، وهو أحد أمراء نابليون"، كان حقاً رجلاً ذكياً جداً، عمل قسيساً قبل عهد الثورة، وهو الذي اقترح ما قامت به الثورة من مصادرة أملاك الكنيسة، وهو الذي كان الآن داعية إلى إعادة آل بوربون؟!...

وأضاع الحلفاء الثمين من الزمان في منازعات تجلى فيها الطمع والجشع متزايدين؛ وعاد آل بوربون إلى فرنسا. وعاد معهم بقية "Émigrés"، وهم أشوق ما يكونون إلى التشفي والانتقام. وكأنهم ما دفعت أنانية عظيمة جانباً - لا شيء إلا لكي تكشف الستر عن حشد من الأتانيين الأكثر دناءة وخسة. كان الملك الجديد أخاً للويس السادس عشر؛ وما كان أشد تلهفه إلى التسمي باسم لويس الثامن عشر بمجرد أن علم بوفاة ابن أخيه (لويس السابع عشر) في المعبد. كان مصاباً بالنقرس، وبلبلاً. ولعله لم يكن من ذوي المقاصد السيئة، غير أنه كان رمزاً يمثل النظام القديم البالي، فأحس كل ما هو جديد في فرنسا بنذير الرجعية الثقيل الذي لازم مجيئه. لم يكن ذاك تحريراً، بل استبداداً وطغياناً جديداً ليس غير - بل هو طغيان ثقيل وضيع بدلاً من آخر نشيط رائع.

(١) الملاحظ هنا أن المؤلف يشدد في أحكامه على نابليون ويقسو عليه ويقتل من أهميته وينتقص قدر فتوحه، بل ويكاد يسمت فيه عندما سقط، وما أدري هل خرج ولز هنا عن نزعة الإنصاف التي امتاز بها، أم غلبت عليه النزعات البريطانية؟ (المترجم)

أليس أمام فرنسا من أمل غير هذا؟ وأظهر آل بربون حقًا خاصًا إزاء كبار ضباط الجيش العظمى، وكانت فرنسا في ذلك الحين غاصة بأسرى الحرب العائدين، الذين وجدوا أنفسهم في ظل غمامة قاتمة. وقد أرسل نابليون إلى إمبراطورية صغيرة في جزيرة إلبا يتعزى بها عما أصابه. وكان على أن يظل ملقبًا باللقب الإمبراطوري وأن تكون له دولة بعينها. فإن فروسية الإسكندر.. أو هوائيته!.. أثبت إلا أن يعامل منافسه المخلوع هذه المعاملة. وانتزع آل هابسبرج منه إمبراطورته الهابسبرجية - فذهبت راضية قريرة العين إلى فيينا، ولم يرها نابليون بعد ذلك أبدًا.

وبعد أن قضى نابليون في إلبا أحد عشر شهرًا قَدَّر أن فرنسا ضاقت ذرعًا بآل بربون، فاحتال حتى أفلت من السفن البريطانية التي كانت تراقب جزيرته وظهر في كان بفرنسا ليقوم بأخر لعبة له مع القدر. وكان مسيره إلى باريس موكب نصر عظيم؛ وطأ فيه بقدميه القيعان البوربونية البيضاء. ثم غدا، أمد مائة يوم "وهي فترة المائة يوم" سيدًا على فرنسا من جديد.

وأثارت عودته حالة ارتباك لدى كل فرنسي شريف. فمن ناحية كان ثمة هذا المغمور الذي خان الجمهورية، وكان هناك من الناحية الأخرى ذلك العبء السمج الذي جلبته عودة الملكية القديمة. ولم يكن الحلفاء ليقبلوا أن تحدث أي تجارب جديدة في موضوع الجمهورية. ومن ثم كان الاختيار عندهم بين أمرين: إما نابليون وإما آل بربون. أعجيب إذن أن تكون فرنسا على الإجمال في صف نابليون؟ وما هو ذا قد عاد معترفًا بأنه تغير وأصبح رجلًا آخر؟ فلن يكون ثمة أي طغيان؛ وسوف يحترم النظام الدستوري.

جمع جيشًا، وبذل بعض المحاولات في سبيل السلام مع الحلفاء؛ على أنه ما لبث عندما وجد هذه الجهود غير مجدية، أن تقدم فحضر البريطانيين والهولنديين والروس في بلاد البلجيك ضد ربة سرية، مؤملًا أن يهزمهم قبل أن ينضم إليهم النمساويون والروس. فأوشك أن يصل إلى غرضه هذا تقريبًا. فإنه كسر البروسيين عند لجني (Ligny)، وإن لم يكسرهم بالقدر الكافي؛ وعند ذلك هزم هزيمة لا أمل له بعدها نتيجة لصلابة عود البريطانيين بقيادة ولنجتن عند وترلو (1815)، على حين وصل البروسيون ببقية أدة بل وخر وأطبّقوا على جناحه الأيمن وقد تقدم النهار. وانتهت معركة وترلو بتشتيت شمل جيشه؛ وغادرت نابليون بلا معين وبلا أمل. وأعرضت عنه فرنسا مرة ثانية وكان كل إنسان انضم إليه تواقًا عند ذاك إلى مهاجمته والتبرؤ منه حتى يمحو الغلطة التي ارتكب. وأمرته حكومة مؤقتة في باريس أن يغادر البلاد، وأمهله أربعًا وعشرين ساعة يتم فيها ذلك.

فحاول أن يذهب إلى أمريكا، ولكن ميناء روشفور الذي وصل إليه كانت تراقبه الطردات البريطانية. والآن وقد رفعت عن أعين فرنسا غشاوة الأوهام، وعادت فأصبحت على مضض ملكية من جديد، فإنه ما قامت تلاخقه في حرارة. فاعتلى ظهر مدمرة بريطانية، هي البلتروفون طالبًا أن يُقبل لاجئًا لاندًا، ولكنه في الواقع عومل كأسير. فأخذ بليموث ثم حمل من بليموث مباشرة إلى جزيرة سانت هيلينا المدارية الموحشة.

وهناك بقي حتى وافته منيته بالسرطان في ١٨٢١، بعد أن كرّس نفسه بوجه رئيسي لتحضير مذكراته، التي كانت خطته فيها أن يعرض كبريات أحداث حياته تحت ضياء ساطع جذاب، وكان رجلاً ممدّ ن مع ه يسجلان محادثاته، ويثبتان انطباعاتهما عنه.

وراجت هذه المؤلفات رواجاً عظيماً في فرنسا وأوروبا. وظل الحلف المقدس بين ملوك روسيا والنمسا وبروسيا (الذي دعي ملوك آخرون للانضمام إليه) يعمل عمله بمشقة كبيرة في ظلال وهم باطل بث في روعهم أنهم يوم هزموا نابليون قد هزموا الثورة، وأرجعوا ساعة القدر أدراجها، وأعادوا الملكية العظمى إلى أبد الأبد. ويقال إن الوثيقة الرئيسية لخطة الحلف المقدس رسمت بوحى من البارونة فون كروندنر، التي يبدو أنها كانت نوعاً من المدبر الروحي للإمبراطور الروسي وكانت بدايتها كما يأتي: 'باسم الثالوث المقدس الذي لا تنقسم عراه"، وكانت تلزم الملوك المشتركين فيها، "بأن يعدوا أنفسهم نحو رعاياهم وجيوشهم في مكان الوالد من العائلة" وأنهم "إذ يعدّ أحدهم الآخر مواطناً له"، يشدّ أحدهم أزر الآخر، ويحمون الدين الحق ويحضون رعاياهم على تقوية أنفسهم وتدريبها على القيام بالواجبات المسيحية. ويصرح الحلف بأن المسيح هو الملك الحق لكل الشعوب المسيحية، وعسانا نستطيع أن نلاحظ أنه كان بناء على هذا ملكاً ميروفنجيا بكل معاني الكلمة ولا سلطان له إزاء هؤلاء الملوك المتريعين في دست الأحكام والذين هم لديه بمثابة مدافطين^(١) للقصر... ولم يكن لملك بريطانيا أي سلطة تخول له أن يوقع هذه الوثيقة، ولم يطلب أحد إلى البابا ولا السلطان أن يوقعها، وانضم إليها سائر ملوك أوروبا بما فيهم ملك فرنسا. على أن ملك بولندة لم يوقع لأنه لم يكن ثمة ملك لبولندة!!، وذلك لأن الإسكندر قام وهو في حالة من حالات الذهول الورع فألحق ببلاده معظم بولندة!. ولم يصبح الحلف المقدس أبداً محالفة قانونية بين الدول، بل حلت محله عصبية أمم حقيقية، هي 'اتحاد أوروبا' الذي انضمت إليه فرنسا في ١٨١٨، والذي انسحبت منه بريطانيا في ١٨٢٢. وعقبت ذلك فترة سلام وعسف في أوروبا. وكان كثير من الناس يميلون في تلك الأيام التي انقطع فيها حبل الأمم ل أن يرمقوا حتى نابليون نفسه بنظرة إحسان، وأن يقبلوا منه ادعاءه بأنه عندما كان يؤيد حقه، كان يؤيد حق الجمهورية وفرنسا، على طريقة لا يمكن تفسيرها. ونمت بعد وفاته نحلة تعدد شيئاً ذا بطولة صوفية دينية.

(١) محافظ القصر : في ذلك إشارة إلى تاريخ بيبين وشارل مارتل فليرجع إليها القارئ ص ٨٣٦ ج ٣ م المعالم ٢. حيث أن الملك اسماً للأسرة الميروفنجية ومقاليده الحكم كلها بيد محافظ القصر الذي يتولاها باسم الملك. (المترجم).

٦- خريطة أوروبا في ١٨١٥

ظلت فكرة الحلف المقدس، والاتحاد الأوروبي الذي تمخض عنه ذلك الحلف، وسلسلة المؤتمرات والاجتماعات التي عقيبت الاتحاد، محافظة مدة أربعين عاماً على سلام مزعزع الأركان في أوروبا التي خرجت من الحروب منهوكة القوى. وهناك أمران رئيسيان حالاً بين هذه الفترة وبين أن تكون سبباً لاجتماعاً ودولياً كاملاً، ومهداً السبيل لدورة الحرب التي وافقت بين ١٨٥٤، ١٨٧١. وكان أول هذين الأمرين هو ميل البلاطات الملكية المختصة إلى استرداد الامتيازات غير العادلة، والتدخل في حرية الفكر والكتابة والتعليم. وكان الثاني هو مجموعة الحدود المستحيلة التي رسمها الديبلوماسيون في فيينا.

وكان ميل الملكية إلى الرجوع إلى الأحوال القديمة البائدة واضحاً أولاً وبوجه خاص في إسبانيا. حتى لقد بلغ الأمر هناك أن أعيدت محاكم التفتيش. فأما عبر المحيط الأطلسي، فإن المستعمرات الإسبانية حذرت الولايات المتحدة واثارت على نظام الدول الكبرى الأوروبي، عندما نصب نابليون أخاه جوزيف ملكاً على إسبانيا في (١٨١٠). وكان زعيم الاستقلال واشنجتون أميركا الجنوبية هو الجنرال بوليفار. ولم تستطع إسبانيا أن تقمع هذا العصيان، فطال به الأمد مثلما طال بحرب استقلال الولايات المتحدة، وأخيراً قد دمت النمسا باقتراح يشق روح الحلف المقدس، تذكر فيه أن من واجب ملوك أوروبا أن يساعدوا إسبانيا في كفاحها ذلك. فعارضت في ذلك بريطانيا في أوروبا، فأما في أميركا فإن العمل السريع الذي قام به الرئيس الولايات المتحدة الرئيس مونرو في (١٨٢٣)، هو الذي قضى على مشروع هذا الاسترداد لسلطان الملوك قضاء نهائياً. فإنه أعلن أن الولايات المتحدة تعد أي بسط للنظام الأوروبي في نصف الكرة الغربية عملاً عداًئياً. وبذا نشأ مبدأ مونرو، الذي ضد نظام الدول الكبرى عن أميركا قرابة مائة من السنين، وسمح للدول الجديدة في أميركا الإسبانية بأن تكون مقدراتها على الشاكلة التي ترضيها. ولئن فقدت الملكية الإسبانية مستعمراتها، فقد كانت على الأقل تستطيع تحت حماية الاتحاد الأوروبي أن تفعل ما تشاء في أوروبا. وأخمد جيش فرنسي فترة شعبية قامت في إسبانيا في (١٨٨٣)، بانتداب من أحد المؤتمرات الأوروبية، وفي الوقت ذاته قمعت النمسا ثورة شبت في نابلي.

وفي (١٨٢٤) مات لويس الثامن عشر، وخلفه كونت أرتوا الذي رأيناه مهاجراً يرفرف ويدوم من فوق الحدود الفرنسية في (١٧٨٩) فاتخذ لقب شارل العاشر. ونصب شارل نفسه لدمير حرية الصحافة والجامعات وإعادة الحكم المطلق، وأخذ الصوت بالموافقة على اعتماد نابليون فرنك لتعويض الدبلاء عن إحراق قصورهم ومصادرة أملاكهم في (١٧٨٩). وفي (١٨٣٠) ثارت باريس ضد هذا الملك الذي يتمثل فيه النظام العهيد^(١)، وتبدلت به لويس فيليب بن فيليب دوق أورليان المعروف، الذي حكم عليه بالإعدام أثناء حكم الإرهاب. ولم تتدخل في هذا الشأن بقية الملكيات الأخرى بأوروبا، إذ واجهها استبداد سان علني من بريطانيا العظمى واختمار تحريري قوي في ألمانيا والنمسا. ومهما يكن من شيء فإن فرنسا كانت لا تزال

(١) ورد في معجم الوسيط ما نصه: "العهد": القديم العتيق الذي مر عليه عهد طويل". (المترجم).

محفوظة بالنظام الملكي. وظل هذا الملك الشاب لويس فيليب (١٨٣٠ - ١٨٤٨) هو ملك فرنسا الدس توري أمد ثمانية عشر عاماً. ولكنه سقط في (١٨٤٨) وهي سنة عظيمة الأحداث في أوروبا، وسنحدثك عنها في الفصل التالي.

تلك هي التآرجحات القلفة التي ألمت بصلح مؤتمر فيينا، والتي أثارت التصرفات الرجعية لأد صار الملكية. فإن التآزومات التي نشأت عن خريطة الديبلوماسيين غير المدروسة دراسة علمية تسببت في تجمع القوى بتعمد أكثر، ولكنها كانت أشد خطراً على سلام البشرية. فإن من أكثر الأمور عسراً ومضايقة أن يدير السياسي شئون أقوام مختلفين عنصرياً يتكلمون لغات مختلفة ويقرءون من ثم أدباً مختلفاً ولهم أفكار عامة مختلفة، وخاصة إذا بلغت هذه الفروق والاختلافات حد السخط بسبب المنازعات الدينية. وليس في طرق أي شيء اللهم إلا بعض المصالح القوية المتبادلة (من أمثال احتياجات الدفاع المشترك لدى سويسرا الجبلين)، أن يبرر إقامة ترابط وثيق بين شعوب متباعدة في لغاتها وعقائدها، بل إن سويسرا ذاتها يقوم بها أقصى درجات الحكم الذاتي المحلي استقلالاً. وعندما تموت في النهاية تقاليد الدولة الكبرى وتوارى التراب فحسب هؤلاء السكان السويسريون أن يجذبوا تقاليد الدولة الكبرى وتوارى التراب فحسب هؤلاء السكان السويسريون أن يجذبوا نحو وشائجهم الطبيعية في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا. وعندما يكون الحال كشأنه في مقدونيا حيث يختلط السكان تخطاً موزعاً إلى رقا صغيرة من القرى والنواحي، فعندئذ تحتم الظروف قيام نظام الكانتونات. ولكن إذا نظر القارئ إلى خريطة أوروبا كما رسمها مؤتمر فيينا، رأى أن هذا المجلس كان كمن يرسم خطة الوصول بالسخط المحلي إلى أقصاه. فإنه دمر الجمهورية الهولندية، ثم راح بغير ما داع، فجمع بين الهولنديين البروتستانت وبين الكاثوليك المتكلمين بالفرنسية الذين كانوا في الأراضي المنخفضة الإسبانية (النمسية). وأقام بهما مملكة للأراضي المنخفضة. ولم يكتف بأن يسلم جمهورية البندقية القديمة فقط، بل كل شمال إيطاليا حتى ميلان للنمسيين الناطقين بالألمانية. وأدمج منطقة السافويا الناطقة بالفرنسية مع أجزاء من إيطاليا بغية إرجاع مملكة سردينيا. وكانت إمبراطورية النمسا والمجر من قبل ذلك خليطاً به ما يكفي من عوامل التفجر من الجنسيات المتنافرة غير المتسقة ما بين ألمانيين ومجريين وتشيكوسلوفاك وبوغوسلاف ورومانيين وانضم إليهم الآن الإيطاليون، ثم جعلتها أحداث (١٧٧٢، ١٧٩٥) أكثر استحالة مما كانت. فأما البولنديون الكاثوليك ذوو الروح الجمهورية فقد أسلموا بصفة رئيسية إلى حكم القيصر الأقل حضارة وصاحب الدين اليوناني الأرثوذكسي، عدا أن أجزاء هامة منها ذهبت إلى بروسيا البروتستانتية. كذلك ثبتت قدم القيصر فيما احتازه من بلاد الفنلنديين المختلفين عنه اختلافاً كلياً وربط الشعبان غير المتشابهين النرويجي والسويدي تحت حكم ملك واحد. وتركت ألمانيا - كما سيرى القارئ - في حالة ارتباك خطيرة بوجه خاص. فقد كانت كل من بروسيا والنمسا داخليتين جزئياً وخارجيتين جزئياً في اتحاد كنفدرالي (Confederation) ألماني كان يضم عدداً كبيراً من الدول الصغرى. ودخل ملك الدانمارك على مائدة الاتحاد الكنفدرالي بسبب وجود ممتلكات له في ذلك الاتحاد تتكلم الألمانية في هولشتاين. وأدخلت لكسمبورج في ذلك الاتحاد الكنفدرالي الألماني، مع أن حاكمها كان كذلك هو ملك الأراضي المنخفضة، ومع أن كثيراً من سكانها كانوا يتكلمون الفرنسية. وهنا تلمس إغفالاً تاماً لحقيقة واقعة هي أن القوم الذين يتكلمون

الألمانية وبينون فكراتهم على الأدب الألماني، وأن القوم الذين يتكلمون الإيطالية وبينون فكراتهم على الأدب الإيطالي، وأن القوم الذين يتكلمون البولندية وبينون فكراتهم على الأدب البولندي سوف يكونون جميعاً أسعد حالاً ويكونون من أعود الناس على سائر الإنسانية نفعاً ومعونة وأقلهم بها شراً وضراً، إذا هم أداروا شئونهم على تراكيب لغتهم داخل نطاق لسانهم الخاص. أعجيب إذن أن تكون من بين أشد الأغنيات ذبوعاً في الناس في ألمانيا أثناء تلك الفترة، أغنية تصرح بأنه حيثما كان اللسان الألماني يتكلم، كانت أرض الأجداد الألمانية.

ولا يزال الناس حتى في يومنا هذا كارهين أن يعترفوا بأن مناطق الحكم ليست من الشئون التي يجوز فيها المساومات والتفاعلات بين القياصرة والملوك ووزارات الخارجية. وهناك "خريطة ضد رورية سياسية للعالم" تتعالى فوق كل هذه الأمور. وشمة طريقة أخرى هي "أحسن الطرق المستطاعة" يقسم بها أي جزء من أجزاء العالم إلى مناطق إدارية، وذلك بالنظر إلى لغة وجنس سكانها، وإبه لما يهنا جميعاً أن نضمن وجود هذه الأقسام وأن تؤسس أشكال الحكومة تلك بصرف النظر تماماً عن الديبلوماسية والرايات والم دعيات 'والولاءات' الميلودرامية الانفعالية، وعن خريطة العالم السياسية الموجودة اليوم. وخريطة العالم السياسية المخططة حسب الطبيعة تأبى إلا أن تتفد. وهي تضطرب وتتحرّك تملأ من دون الخريطة السياسية الاصطناعية كما يتملج جبار في وضع لا يريحه. ففي (١٨٣٠) قامت بلاد البلجيك الناطقة بالفرنسية - وقد حفزتها الثورة في فرنسا - فثارت على شريكها البولندية في مملكة الأراضي المنخفضة. وسارعت الدول إلى تسكين هذا الموقف وقد أرحبها إيمان جمهورية بها أو استلحاقها إلى فرنسا ومنحت البلجيكين ملكاً هولوبولد الأول أمير ساكس كوبرج جوتا. وحدث كذلك في (١٨٣٠) ثورات لم يكتب لها التوفيق بإيطاليا وألمانيا، وفترة أشد خطورة بكثير في بولندا الروسية. وقامت في وارسو حكومة جمهورية وصمدت عاماً كاملاً حيال نيقولا الأول (الذي خلف الإسكندر في ١٨٢٥)، ثم قُضي عليها عند ذاك بعنف وقساوة كبيرين. وصدر قرار بتحريم اللغة البولندية، واستبدلت بالكنيسة الكاثوليكية الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية بوصفها الديانة الرسمية للدولة...

وهناك انفجار في خريطة العالم السياسية المطابقة للطبيعة حدث في (١٨٢١)، وانتهى بالحصول على مناصرة إنجلترا وفرنسا وروسيا. وكان ذلك الانفجار هو ثورة اليونان ضد الأتراك. ذلك أن اليونانيين ظلوا يقاتلون قتال المستبشرين أمد ست سنوات، على حين وقفت حكومات أوروبا تنظر إليهم متفرجة.. واحتج الرأي الحر على هذا الجمود؛ وانضم إلى الثوار المتطوعون من كل دولة أوروبية، وانتهى الأمر بأن قامت بريطانيا وفرنسا وروسيا بعمل مشترك. فدمر الأسطولان الإنجليزي والفرنسي الأسطول التركي في معركة نوارين (١٨٢٧) وغزا القيصرة تركيا. وأعلنت حرية بلاد اليونان بمعاهدة أدرنة (١٨٢٩)، ولكن لم يسمح لها بأن تواصل تقاليد الجمهورية القديمة. واتخذت الدول لبلاد اليونان ملكاً ألمانيا هو أمير بافاريا اسمه أوتو - فغلبت عليه أو هام اعترته حول حقه المقدس، ونبذ في ١٨٦٢ - وأقيم حكام مسيحيون في الولايات الدانوبية (التي هي الآن رومانيا)، وسربيا (وهي جزء من منطقة يوغسلافيا). وكان هذا إذعاناً جزئياً للخريطة السياسية الموافقة للطبيعة، ولكن كان لابد من سفك الدم الكثير قبل أن يطرد التركي طرداً تاماً من هذه الأراضي. وبعد ذلك بزمان يسير قامت الخريطة السياسية المطابقة للطبيعة تتادي بحقوقها في ألمانيا وإيطاليا.

٧- طراز الإمبراطورية

انعكست محاولة نابليون إعادة الإمبراطورية الرومانية انعكاسًا تبّدت فيه الأمانة البالغة في فن العمارة والثياب والأثاث وفن التصوير في تلك الفترة. وقد قاموا في كل هذه الأمور بمحاولة ابتعاث الأشكال والروح المطابقة لواقع روما الإمبراطورية. وكأنما أفلتت من المتاحف ألبسة الرأس النسائية وثياب السيدات وخرجت تسعى في الطرقات. وأخذت مجاميع الأعمدة وأقواس النصر تتهاذى وتتبختر في طريقها إلى أعظم مواقع المدن الكبرى كافة. وفازت باريس بقوس النصر وقلدتها لندن على الفوز فكان لها قوس الرخام (Marble Arch). واختفت من الوجود تطورات البروق (الباروك) ^(١) والركوكو ^(٢) في مبدئي النهضة لأن الناس فضلوا عليها واجهات أخرى أقسى وأعبس مظهرًا. وكان كانوفا الإيطالي هو المثال العظيم لذلك الزممان. وكان دافيد يطرب لأشكال الأبطال العراة. وخذل إنجرس (Ingres) أميرات نابليون على صورة ربّات منازل رومانيات وربّات رومانيات. وتمائيل لندن العامة تمثل ساسة تلك الفترة وملوكها الموقرين في أشكال أعضاء السناو والأباطرة. وعندما اختارت الولايات المتحدة تصميمًا لخاتمتها الأعظم، كان من الطبيعي أن تختار فيه النسر وأن تضع في مخالبه سهم المشتري ^(٣).

(١) كلمة باروك مأخوذة عن الكلمة البرتغالية Barroco ومعناها الجوهرة غير المنتظمة الشكل وتدل في الاصطلاح الفني على طراز خاص شديد الزخرف شاع في أوروبا بين عامي ١٦٠٠ - ١٧٢٠ أو ١٧٦٠ والكلمة من أصل عربي هو لفظ "باراق". (المترجم).

(٢) روكوكو: مأخوذة عن الكلمة الفرنسية Rocaille ومعناها الحصاة على شكل الصدفة وهو اصطلاح في الفنون الزخرفية يطلق على زخرف يتألف من الأصدايف والأحجار وقد شاع منذ عام ١٨٣٠ عند ختام الطراز البروكي (المترجم).

(٣) المشتري: أكبر آلهة الرومان. (المترجم).

الفصل السابع والثلاثون

حقائق القرن التاسع عشر وخيالاته

- ١- الانقلاب الآلي.
- ٢- العلاقة بين الانقلابيين الآلي والصناعي.
- ٣- اختمار الفكرات في ١٨٤٨.
- ٤- تطور فكرة الاشتراكية.
- ٥- عيوب الاشتراكية بوصفها خطة للجماعة الإنسانية.
- ٦- كيف أثر مذهب داروين في الفكرات الدينية والسياسية.
- ٧- فكرة القومية.
- ٨- المعرض الكبير في ١٨٥١.
- ٩- سيرة حياة نابليون الثالث.
- ١٠- لنكولن والحرب الأهلية في أمريكا.
- ١١- الحرب الروسية التركية ومعاهدة برلين.
- ١٢- التدافع الثاني على الإمبراطوريات وراء البحار.
- ١٣- السابقة الهندية في آسيا.
- ١٤- تاريخ اليابان.
- ١٥- ختام فترة التوسع وراء البحار.
- ١٦- الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤.
- ١٧- التصوير والنحت والعمارة في القرن التاسع عشر.
- ١٨- الموسيقى في القرن التاسع عشر.
- ١٩- نهوض القصة إلى المرتبة العليا في الأدب.

١ - الانقلاب الآلي

تبدو حياة نابليون الأول وشخصيته في مؤلفات القرن التاسع عشر التاريخية ضد خمة لا تتناسب وأهميته. فإنه كان قليل الأهمية بالنسبة للحركة الرجعية السائرة قدمًا بالشئون الإنسانية نحو الأمام. ولم يزد على أن كان مقاطعًا لتلك الحركة ومذكرًا بالشعور الكمينية، كما كان أشبه شيء بباكتريا بعض الأوبئة. ولم نظرننا إليه حتى من زاوية الأوبئة واعتبرناه باكتريا، فإنه لم يكن منها في المقام الأول؛ فإنه قضى على عدد من الأنفس يقل عما قضى عليه وباء الأنفلونزا في سنة ١٩١٨، وأنتج من التمزيق السياسي والاجتماعي أقل مما أنتجه الطاعون في عصر جستنيان.

لم يكن بد من ظهور تمثيلته الصغيرة على المسرح بين فصول المسرحية الكبرى، ولم يكن مندوحة من حدوث تلك التسوية الأوروبية المرقعة التي تتبدى في الاتحاد الأوربي، ذلك أنه لم يكن هناك مجموعة مدروسة من الأفكار يمكن أن يقام عليها عالم جديد. وإن الاتحاد الأوربي نفسه كان ينطوي على عامل من عوامل التقدم. فإنه على الأقل اطرح جانباً روح "الفردية" الممثلة في الملكية الميكافلية وأعلن أنه توجد دولة إنسانية أو على الأقل دولة أوربية. فلئن قسم ذلك الاتحاد العالم بين الملوك، فإنه أدى تحية التجارة والإكبار للوحدة الإنسانية وخدمة الله والإنسان.

والواجب الدائم الأثر الذي كان على الإنسانية أدائه، قبل أن يكون في الإمكان إقامة أي بناء سياسي واجتماعي جديد مستديم، وهو الواجب الذي لا تزال الفطنة الإنسانية منشغلة به رغم ما ألم به من فترات التوقف والمقاطعة وما أحاط به من مظاهر الغضب والشغب - كان وما ينفك هو واجب إنتاج وتطبيق: 'أ' علم للملكية يكون أساساً تبنى عليه الحرية والعدالة الاجتماعية، 'ب' علم للعملة يضمن وجود وسيط اقتصادي كفاء، 'ج' علم لأصول الحكم والعمليات الجماعية، يستطيع به الناس في كل مجتمع أن يتعلموا كيف يتولون مصلحتهم المشتركة بتوافق وانسجام، 'د' علم للسياسة العالمية يمكن أن يقضي على ما في الدروب بين الجنس والجنس، والشعب والشعب، والأمة والأمة، من التدمير والإسراف الشديد والقساوات الفظيعة، ويمكن به أن توضع بفضله مصالح قيام البشرية المشتركة تحت رقابة مشتركة؛ وفوق كل شيء، 'هـ' علم يكفل قيام نظام للتعليم شامل للعالم قاطبة يدعم إرادة الناس ومصلحتهم في مغامرتهم الإنسانية المشتركة.

فأما صناع التاريخ الحقيقيون في القرن التاسع عشر، وهم القوم الذين سوف تحدّد عواقب أعمالهم الحياة الإنسانية مقدماً لمدة قرن كامل من الزمان، فقد كانوا هم أولئك الذين روجوا لهذا الجهد الحماسي البناء وأسهموا فيه. فلو قيس إليهم وزراء الخارجية ورجال الدولة والسياسيون في تلك الفترة لما زادوا عن فئة من التلاميذ المشاغبين الذين يصلون أحياناً إلى حد إضرار الناس والإحراق، أو بضع نفر من مراقبي المعاندن، الذين يعبثون هنا وهناك ويحدثون شراً موقوتاً بين المواد الباقية على أرض بناء عظيم لم يفهموا كنهه.

وعلى حين أن عقل المدنية الغربية في القرن التاسع عشر بأكمله، وهو العقل الذي أطلقته النهضة من عقالة، ظل يجمع نفسه لأداء واجب التعمير الاجتماعي والسياسي الخلاق الذي ما يزال عليه عبء القيام به

- فقد غمرت العالم موجة تغيير عام في القوة البشرية وفي أحوال الحياة المادية التي أبحاثه بل وجوده ما الجهود العلمية الأولى لهذا العقل المتحرر.

وابتدأت نبوءات روجر باكون تعيش في عالم الحقيقة. فإن المعرفة والثقة المتجمعة لدى الأجيال القليلة المتعاقبة من الناس الذين حملوا لواء التنمية العلمية، قد أخذت عند ذاك تؤتي ثماراً كان في مستطاع العامة من الناس أن يفهموها. وكانت الآلة البخارية هي أشد تلك الثمار الأولى وضوحاً. وكانت أولى الآلات البخارية المستعملة في القرن الثامن عشر مضخات تستعمل في صرف المياه إلى خارج مناجم الفحم المحفورة حديثاً. وكانت مناجم الفحم هذه تشغل لاستخراج الكوك بغية استعماله في صهر الحديد الذي كان الفحم النباتي المتخذ من الخشب يستخدم فيه آنفاً. وإلى جيمس وات وهو صانع آلات دقيقة في جلاسجو يرجع الفضل في تحسين تلك المضخة البخارية، وجعل استعمالها لدفع الماكينات أمراً ممكناً. وقد وضعت أول آلة استعملت لهذا الغرض في مصنع لنسج القطن بنوتتهام في (١٧٨٥).

وفي (١٨٠٤) كيف ترفيتيك آلة وات وجعلها صالحة لأعمال النقل، وأنشأ أول قاطرة. وفي (١٨٢٥) فتح للسفر أول خط حديدي بين ستوكتون ودارلنجتون. ولا تزال الآلة الأصلية وهي (القاطرة رقم ١، ١٨٢٥) ترين رصيف محطة دارلنجتون. وما وافى منتصف القرن حتى كانت شبكة من الطرق الحديدية قد عمت كل أرجاء أوروبا.

هنا حدث انقلاب فجائي فيما ظلّ زماناً طويلاً حالة ثابتة في الحياة الإنسانية، وأعدى بذلك أقصى سرعة للنقل البري. وقد سافر نابليون بعد كارتته الروسية من قرب فيلنا إلى باريس في ٣١٢ ساعة، وهي رحلة تقارب الألف والأربعمائة من الأميال. كان يسافر مستمتعاً بكل ما تتصوره العقول من الميزات، وكان معدل مسيره يقل عن خمسة أميال في الساعة. وذلك في حين أن الراكب العادي لم يكن ليستطيع أن يقطع هذه المسافة في ضعف هذا الوقت. وكانت هذه السرعة تقارب نفس سرعات السفر القوي التي كانت ممكنة بين روما وبين بلاد الغال في القرن الأول الميلادي، أو بين سارديس وسوسا في القرن الرابع ق. م.

ثم جاء على الفجاءة تغيير هائل. فإن السكك الحديدية خفضت هذه الرحلة لأي راكب عادي إلى ما يقل عن ثمانية وأربعين ساعة، أي إنها خفضت المسافات الأوربية الرئيسية إلى ما يداني عشر ما كانت عليه. وجعلت من الممكن القيام بالعمل الإداري في مناطق تكبر بعشرة أضعاف ما كان في الإمكان إدارته حتى ذلك الحين بواسطة إدارة واحدة. وما برح المغزى الكامل لهذا الاحتمال في أوروبا ينتظر الأيام التي تحققه. فإن أوروبا ما برحت تقسمها شبكة حدود رسمت في عصر الحصان والسكة الزراعية. وكانت آثار ذلك الحدث في أمريكا سريعة مباشرة. وكان معنى ذلك لدى الولايات المتحدة الأمريكية الزاحفة غرباً، هو إمكان وجود اتصال مستمر بواشنطن، مهما تكن المسافة التي تنتقلها الحدود عبر القارة. وكان معنى ذلك هو الوحدة التي تصان على معيار كان لولاها من أضرب المستحيل.

وكان ظهور الزورق البخاري أسبق قليلاً من الآلة البخارية في مراحلها الأولى. وكان هناك زورق بخاري هو (شارلوت دنداس)، ينتقل في قناة (الفورت والكلايد بإنجلترا) في (١٨٠٢)، وفي (١٨٠٧) كان

لأمريكي يدعى فالتون باخرة معدية، هي الكليرمونت بها آلات مصنوعة ببريطانيا، وكانت تسير في نه ر
الهدسون أعلى نيويورك. وكانت أول سفينة بخارية سارت في البحر أمريكية كذلك وهي 'الفينكس' التي كانت
تسير من نيويورك (هوبوكن) إلى فيلادلفيا. وكذلك كان شأن أول سفينة تستخدم البخار (وكان لها أيضاً قلوب)
عبرت الأطلسي، وهي السافانا (١٨١٩). وكانت كل هذه زوارق ذات عجلة رفاصة، ولكن زوارق العجلة
الرفاصة لا تصلح للعمل في عرض البحار الثقيلة. فإن الطارة الرفاصة سهلة الكسر، وعند ذلك يصبح الزورق
عاجزاً أشل.

وظهرت عقب ذلك السفينة البخارية ذات الداسر اللولبي^(١). وكان لابد من التغلب على كثير من
الصعاب قبل أن يصبح الداسر اللولبي شيئاً عملياً يمكن الانتفاع به. ولم تشرع حمولة السفن البخارية في أن
تريد على حمولة السفن الشراعية إلا بعد أن بلغ القرن منتصفه. وبعد ذلك أمسى التطور في النقل البحري
سريعاً وأخذ الناس لأول مرة يعبرون البحار والمحيطات وهم على شيء من التحقق من موعد وصولهم.
وكان عبور الأطلسي قبل ذلك مغامرة غير محققة تمتد أسابيع كثيرة قد تترامى إلى الشهور، فلم تزل السرعة
فيه تزداد حتى خففت مدته في (١٩١٠) في حالة أسرع البواخر، إلى أقل من خمسة أيام، مع إمكان تحديد
ساعة الوصول على وجه التقريب. وشمل نفس هذا التخفيض في الزمن ونفس هذا التحقق من المواسلات
الإنسانية جميع محيطات العالم وبحاره.

وساير تطور البخار على سطح الأرض وفي عباب الماء، ظهور أمر آخر جديد رائع أضيف إلى
تسهيلات التواصل البشري، ونشأ عن أبحاث "قولتا" و "جالفاني" و "فارادي" في الظواهر الكهربائية المتنوعة.
وظهر التلغراف الكهربائي إلى عالم الوجود في (١٨٣٥) ووضع أول سلك بحري (كابل) تلغرافي تحت أطباق
البحر في (١٨٥١) بين إنجلترا وفرنسا. ولم تمض بضعة سنوات حتى كان نظام التلغراف قد دمجه عالم
المتمدن بأكمله، وبدا أصبحت الأخبار التي كانت حتى ذلك اليوم ترحل متباطئة من موضع إلى موضع تنتشر
في كل أرجاء المعمورة في وقت واحد تقريباً.

وقد كانت هذه الأشياء وأعني بها السكك الحديدية البخارية والتلغراف الكهربائي أشد المستحدثات روعة
وثورة لدى أذهان عامة الناس في منتصف القرن التاسع عشر، على أنهما لم يكونا إلا أبرز وأسمح تباشر
عملية أشد منهما اتساعاً وعظماً. وأخذت المهارة والمعرفة الصناعية التكنيكية تتطوران في سرعة غير
مألوفة، وإلى حد غير مألوف إذا قيس تقدم ذلك العصر بتقدم أي عصر سابق عليه.

وانبسطت قدرة الإنسان على المواد الإنسانية المتنوعة وكان انبساطها في البداية أقل ظهوراً بكثير في
حياته اليومية، ولكنه أصبح آخر الأمر على درجة عظيمة من الأهمية. وقبل أن ينتصف القرن الثامن عشر
كان الحديد يستخلص من خامه بواسطة فحم الخشب، وكان يتناول قطعاً صغيرة ثم يطرق ويصاغ في الشكل
المطلوب. كان مجرد مادة يعمل فيها صانع. وكانت جودة نوع الحديد وطريقة معالجته تعتمد اعتماداً هائلاً
على خبرة الصانع الفرد وفطنته. وكانت أكبر كتل الحديد التي يستطيع معالجتها في مثل تلك الظروف تصل

(١) الداسر اللولبي (Screw) أو الدافع اللولبي: هو مرواح (Propeller) ويستعمل في دفع السفن أو الطائرات. (المترجم).

في أعظم شأنها (في القرن السادس عشر) إلى طنين أو ثلاثة. (فكان هناك إذن حدٌ أعلى محدود جدًا لحجم المدفع). ونشأ الفرن العالي ^(١) في القرن الثامن عشر وازداد تطورًا باستخدام فحم الكوك. ولسنا نجد قبل القرن الثامن عشر صفائح الحديد المسحوبة (بين الدرافيل) (١٧٢٨)، ولا الأسياخ والقضبان المسحوبة (بين الدرافيل) (١٧٨٣). وجاءت مطرقة "تازميث" البخارية في زمن متأخر هو (١٨٣٩).

ولم يستطع العالم القديم أن يستعمل البخار بسبب تأخره في علوم المعادن والتعدين. فأما الآلة البخارية حتى المضخة البدائية، فلم يكن في الإمكان تطويرها قبل أن تتيسر صفائح الحديد. وتبدو الآلات الأولى لعين الرائي العصري قطعًا من الحديد الخردة سمجة مستوجبة لأشد الرثاء، ولكنها كانت أقصى ما يستطيع علم المعدييات أن يخرج في ذلك الزمان. وجاءت طريقة "بسمتر" في زمن يقارب في تأخره (١٨٥٦)، ثم تلتها على الفور (١٨٦٤)، عملية الأتون المفتوح الذي كان في المستطاع إذابة الصلب وكل أنواع الحديد فيه، وتنقيتها وصبها بحالة وعلى مقياس لم يسمع الناس بهما حتى آنذاك. ولقد يستطيع الإنسان اليوم أن يرى في الفرن الكهربائي أطنانًا من الصلب الوهاج المبيض بالحرارة وهو يَهْدِرُ هدير اللبب المغلي.

وليس في مراحل التقدم الإنساني العملية السابقة ما يعدل في عواقبه ما بلغه الإنسان اليوم من تلك السيادة التامة على كتل هائلة من الصلب والحديد وعلى تكوينها ودرجة جودتها. وكانت الآلات الحديدية الأولى والآلات المبكرة بجميع أصنافها مجرد انتصارات للوسائل الجديدة لمعالجة الفلزات ^(٢). وسرعان ما ظهرت سفن الحديد والصلب والكباري الضخمة، وطريقة جديدة للبناء بالفولاذ على معيار هائل. وأدرك الناس بعد فوات الزمن الطويل أنهم كانوا يصممون سككهم الحديدية على مقياس سعة ^(٣) يتجلى فيه الخوف المفرط، وإنه كان في استطاعتهم أن ينظموا أسفارهم على أساس قدر أوفى من الثبات والراحة باستعمال مقياس سعة أعظم كثيرًا من الموجود.

ولم تكن هناك في العالم قبل القرن التاسع عشر أية سفن تتجاوز حمولتها ألفين من الأطنان. ولم يكن هناك اليوم أي عجب في وجود باخرة ذات خمسين ألف طن. ومن الناس من يهزون بهذا التقدم زاعمين إياه تقدمًا في "مجرد الحجم" فقط، غير أن هذا النوع من الزرابة إنما يدل على ضيق أفقهم.

فليست السفينة العظيمة ولا المبنى ذو الهيكل الفولاذي صورة مضخمة من سفينة الماضي الصغيرة أو بناء الماضي الصغير كما يتوهمون، وإنما هي شيء مختلف في نوعه، يبني بناءً أخف وأقوى، من مواد أجود وأمتن. وبدل أن تكون شيئًا يعتمد على السوابق والحساب التقريبي، إذا بها شيء يرجع إلى حقائق دقيقة معقدة. ففي المنزل أو السفينة القديمة، كانت المادة هي المتسلطة - فكان الحال يقتضي أن تطاع المادة وما يلزمها طاعة العبيد؛ فأما السفينة الحديثة أو المنزل الجديد فقد قبض فيهما على ناصية المادة وغيّرت

(١) الفرن العالي (Blast - Furnace) هو فرن لصهر الحديد ينفخ فيه الهواء الساخن. (المترجم).

(٢) علم الفلزات (Metallurgy): هو العلم والفنون المطبقة على المعادن بما في ذلك استئصالها من خامها وتنقيتها وخلطها

سبائك وتشكيلها ومعالجتها ودراسة تكوينها وبنيتها وخواصها. (المترجم)

(٣) مقياس سعة (Oavge) مسافة ما بين القضبان. (المترجم).

معالمها وضبطت أحوالها. تصور ذلك الفحم والحديد والرمل المستخرجة من المحاجر والمناجم، وهي تؤخذ وتشغل، وتصهر وتصب لكي تقام آخر الأمر برجاً رفيعاً براقاً من الصلب والزجاج يعدو على المدينة المزدحمة بستمائة قدم!

وهذه التفاصيل عن تقدم معرفة الإنسان بالخواص الفلزية للصلب ونتائجها قد أدلينا بها على مسيل المثال والتوضيح. وفي إمكاننا أن نروي لك قصة مماثلة لهذه عن الخواص الفلزية للنحاس والقصدير وعدد غير من المعادن نجترئ منها بذكر اثنين هما النيكل والألمنيوم، وهما معدنان لم يكونا معروفين قبل انبثاق فجر القرن التاسع عشر.

وإنما يعود إلى هذه السيادة العظيمة النامية على المواد، أعني على الأنواع المختلفة من الزجاج وعلى الصخور وأنواع (البياض) وما إليها، وعلى الألوان والتكوين، الفضل في إحراز الإنسان أهم انتصاراته في الثورة الميكانيكية حتى هذا الأوان. ومع هذا فإننا ما نزال في مرحلة اجتلاء أول بواكير ذلك الأمر. لدينا القوة، ولكن ما يزال علينا أن نتعلم كيف نستخدم قوتنا. وكثيراً ما كانت هبات العلم هذه تستخدم استخدمات سوقية أو قبيحة الذوق أو مبهرجة أو سمجة حمقاء أو شنيعة. ولم يكد الفنان ولا الفني المنفذ^(١) أن يشرعاً حتى الآن في العمل في الأضراب اللانهائية للمواد التي هي الآن بين أيديهما.

ونما علم الكهرباء الجديد نمواً مماثلاً لهذا التوسع في الاحتمالات الميكانيكية ولم يحدث إلا في العقدين الثامن من القرن التاسع عشر أن شرعت هذه المجموعة من الأبحاث العلمية أن تؤتي ثماراً تؤثر في العقل السوقي. ثم جاء بغتة كل من النور الكهربائي والجبر الكهربائي؛ وشرعت عقول الناس العاديين تدرك أن في الإمكان تبديل (Transmutation) القوى، أعني احتمال إرسال القوة التي يمكن تحويلها إلى حركة ميكانيكية أو ضوء أو حرارة حسبما يختار الإنسان، على امتداد سلك من النحاس، كما ترسل المياه داخل الأنابيب.

وكان البريطانيون والفرنسيون في مبدأ الأمر هما الشعبان القائدان للعالم في مضمار هذا الإخصاب العرفاني العظيم. ولكن ما عثم الألمان الذين تعلموا الذلة في حكم نابليون أن أظهروا للوقت من الحماسة والنداب في البحث العلمي ما جعلهم يدركون هؤلاء القادة. وكان العلم البريطاني في معظم أمره من خلق رجال من الإنجليز والاسكتلنديين^(٢) الذين يشتغلون خارج مراكز الحضلة العادية.

وقد أسلفنا إليك من قبل كيف أن الجامعات في إنجلترا قل عليها الإقبال الشعبي بعد الإصلاح الديني، وكيف أنها أصبحت وقفاً على النبلاء والأعيان كما صارت الحصن المنيع للكنيسة الرسمية. وتغلبت عليها روح ادعاء كلاسيكية ران عليها الغباء والتفاخر بالفخامة؛ كما أنها تسلطت على مدارس الطبقتين الوسطى والعليا. وكانت المعرفة الوحيدة التي تعترف بها هي الإمام بنصوص لمختارات من الأدب الكلاسيكي اللاتيني والإغريقي إماماً لا ينطوي على نقد ولا تمحيص، وكانت أماره حسن الأسلوب هي وفرة ما فيه من اقتباسات وإشارات وعبارات متحجرة جامدة.

(١) المنفذ الفني (Adapter): المنفذ لخطة المهندس. (المترجم)

(٢) ولكن ليلاحظ القارئ بويل والسير و. م. هملتون بوصفهما من رجال العلم المبرزين الإلرلنديين. (المؤلف).

ومن ثم تواصل التطور المبكر للعلم البريطاني، بالرغم من هيئة التعليم الرسمية، ورغم أنف العداوة المريرة التي أبدتها أصحاب مهنتي التعليم والكنهوت. كذلك تسلطت على التعليم الفرنسي تقاليد داليه سوعيين الكلاسيكية، وترتبت على ذلك أنه لم يعسر على الألمان أن ينظموا هيئة من البعثة، كانت صديرة بالنسبة لاحتمالات الموضوع، ولكنها كبيرة بالنسبة إلى الفئة القليلة من المختريين والتجريبين البريطانيين والفرنسيين. ومع أن هذا العمل عمل البحث والتجريب كان أخذاً بأسباب جعل بريطانيا وفرنسا أعزى ببلاد العالم وأقواها، فإنه لم يكن بجاعل رجال العلم والابتداع أغنياء ولا أقوياء. وهناك ضد رب ضد روري من الروح غير الدنيوية يحيط برجل العلم المخلص لعلمه. فإنه أشد انشغالاً بمباحثه من أن يدبر ويخطط وسائل يستطيع أن يجر من ورائها المغنم.

وبناء على ذلك تقع عملية الاستغلال الاقتصادي لمكتشفاته بشكل سهل جداً وطبيعي جداً في أيدي طراز من الناس أكثر ميلاً إلى الاقتناء والاحتياز. وكان كل دور جديد من أدوار التقدم العلمي والتكنيكي ينتج في بريطانيا العظمى محصولاً جديداً من الأغنياء الذين كانوا من تمام الرضا عن أنف سهم بحيث يتركزون الإوزة الذهبية البيض تموت جوعاً، وإن لم يظهروا كما فعل العلماء المدرسانيون ورجال الأكليروس نفس الرغبة الجامحة في إهانة إوزة البيض الذهبي القومي وقتلها. كانوا يرون أن المخترعين والمكتشفين يجيئون بحكم الطبيعة لكي ينتفع من ورائهم من هم أشد منهم ذكاءً ومهارة.

وكان الألمان أكثر منهم حكمة بقليل في هذا الأمر. فإن "العلماء" الألمان لم يظهروا نفس الكراهية العنيفة نحو العلم الجديد بل سمحوا له بالتطور. كذلك لم يكن يخالغ الألماني صاحب الأعمال والمصنع ندو مواطنه العالم نفس ما كان يخالغ منافسه البريطاني من احتقار للعلماء. كان هؤلاء الألمان يعتقدون أن المعرفة ربما أصبحت محصولاً مزدردعاً يستجيب للمخضبات. لذلك سلموا للذهن العلمي بقدر معين من الفرصة ينتهزها؛ فكانت مصروفاتهم العامة على أعمال البحث أكبر نسبياً، وجوزي هذا الإنفاق أوفى الجزاء.

وما بلغ القرن التاسع عشر نصفه الثاني حتى كان العالم الألماني قد جعل اللغة الألمانية لغة ضرورية لكل طالب علوم يرغب في أن يكون على الدوام في الطبيعة مماشياً آخر إنتاج في فرع علمه، وأدركت ألمانيا في فروع معينة من العلوم وفي الكيمياء بوجه خاص تفوقاً عظيماً جداً على جيرانها الغربيين. وأخذ الجهد العلمي في ألمانيا في العقد السابع والثامن يحدث آثاره في ثمانينات القرن، وأخذ الألمان يسبقون بريطانيا وفرنسا سبقاً متواصلاً في النجاح التطبيقي الفني (التكنيكي) والصناعي. ومن المستحيل في معالم التاريخ مثل هذه أن نتعقب شبكة العمليات العقلية المركبة التي أدت إلى هذا التوسع المتواصل في المعرفة والقوة الذي يجري الآن في العالم. وكل ما نستطيع فعله هنا أن نستري التفات القارئ إلى أبرز نقاط التحول التي اقتادت آخر الأمر "زلاقة" الشؤون الإنسانية إلى ما هي عليه من حال التقدم السريع.

وقد حدثنا عن أول فكاك للتطلع الإنساني، وعن بدايات البحث والتجريب المنتظم. كذلك حدثنا كيف حدث عندما جاء النظام الروماني البلوتوقراطي^(١) وما ترتب عليه من روح استعمارية ثم ذهب من العالم

(١) البلوتوقراطي: القائم على حكم الأثرياء. (المترجم)

ثانية - أن تجددت عملية البحث هذه. وحدثناك عن إفلات البحث من الاستخفاء والاستفادة الشخضية إلى فكرة النشر وإلى الأخوة في المعرفة، ولاحظنا تأسيس الجمعية الملكية البريطانية، والجمعية الفلورنسية، وأشباههما بوصفهما نتيجة لهذا التنظيم للفكر على أسس "الاشتراكية". كانت هذه الأمور هي جذور الانقلاب الميكانيكي، وما دام جذر البحث العلمي الصرف حيًا فلن يقف تقدم ذلك الانقلاب عند حد. وربما جاز لنا أن نقول إن الثورة الميكانيكية ذاتها ابتدأت باستهلاك ما في إنجلترا من الخشب في مصانع الحديد. وأفضى ذلك إلى استعمال الفحم، وأدى منجم الفحم إلى المضخة البسيطة، وأدى التحول بالمضخة على يد 'وات' إلى آلة تدفع الماكينات، إلى ظهور القاطرة والسفينة البخارية. وكان ذلك هو الدور الأول من أدوار توسع عظيم في استعمال البخار. وابتدأ دور ثان للثورة الميكانيكية بتطبيق العلم الكهربائي على المسائل العملية وعلى تطهير الإضاءة الكهربائية ونقل القوة والجر.

وشمة دور ثالث لابد من تمييزه، جاء عندما ظهر في العقد التاسع طراز جديد من الآلات، وهي آلات حلت فيها قوة التمدد في خليط متفجر محل قوة التمدد في البخار. ولم تلبث الآلات الخفيفة العالية الكفاءة التي أصبحت بذلك في حيز الإمكان أن طبقت على السيارة، وتطورت آخر الأمر حتى بلغت درجة عالية من الخفة والكفاءة تجعل الطيران شيئاً عملياً، والطيران فكرة كان معروفاً منذ زمن مديد أنها ممكنة.

وكان جهد إخوان رايت في أمريكا ذا أهمية أولية في هذا الميدان. وفضلاً عن هذا فإن الأستاذ لانجلي التابع لمعهد سميثسون بنيويورك تمكن في زمن يرجع إلى (١٨٩٧) من صنع آلة للطيران، وإن لم تبلغ من السعة حد حمل جسم إنساني. فأما مجهوده الثاني وهو طائرة كاملة الحجم، فقد فشل في محاولاته الأولى، ولكن كوريس وفق بعد إدخال تغييرات عظيمة جداً عليها، إلى الطيران بها بنجاح بعد ذلك ببضع سنين. حتى إذا وافق (١٩٠٩) أصبح في إمكان الطائرة أن تعمل في النقل الإنساني. وكانت بوادر بعض التوقف في زيادة السرعة الإنسانية قد لاحت في الأفق مع إحكام السكك الحديدية والنقل بالسيارة في الطريق؛ ولكن جاءت مع آلة الطيران تخفيضات جديدة في قيمة المسافة بين نقطة على سطح الأرض ونقطة أخرى. وقد كانت المسافة بين لندن وأدنبرة تستغرق ثمانية أيام في القرن الثامن عشر. وفي (١٩١٨) قدمت لجنة النقل الجوي البريطانية تقريراً تقول فيه إن الرحلة من لندن إلى ملبورن وهي نصف الدورة الكاملة حول الأرض، يرجح أن يمكن في بضع سنين أن تتم في نفس مدة الأيام الثمانية.

وينبغي ألا نبالغ في التشديد على هذه التخفيضات الرائعة في المسافة الزمنية بين مكان وآخر. فما هي إلا مجرد مظهر واحد من مظاهر تكبير الاحتمالات الإنسانية أعظم عمقاً وأشد ضخامة. فإن علم الزراعة والكيمياء الزراعية مثلاً أصابا أطواراً من التقدم مماثلة لهذه تماماً إبان القرن التاسع عشر. وبلغ من تعلم الناس تخصيب الأرض أن أنتجوا أربعة أضعاف وخمسة أضعاف المحاصيل التي كانوا يحصلون عليها من المساحة نفسها في القرن السابع عشر. وكان هناك تقدم أشد خرقاً للمعتاد في العلوم الطبية. فارتفع مع دل متوسط العمر وزادت الكفاية اليومية وتناقص ضياع الحياة بدءاً بسبب سوء الصحة.

من أجل ذلك كله يجتمع لنا الآن تبدل تام في الحياة الإنسانية يبلغ من ضخامته أن يكون طوراً جديداً في التاريخ. فقد أوجد الإنسان هذه الثورة الميكانيكية فيما يربو على القرن بقليل. وقام الإنسان إبان تلك المدة بخطوة في أحوال حياته المادية أسرع من كل ما خطاه في جميع الفترة الطويلة المحصورة بين المرحلة الباليوليثية (العصر الحجري القديم) وعصر الزراعة، أو بين أيام بيبي في مصر وأيام جورج الثالث. وظهر إلى عالم الوجود هيكل جديد هائل للشئون الإنسانية. ومن الواضح أنه يتطلب إعادة تنسيق طرائقنا الاجتماعية والاقتصادية من جديد. بيد أن هذه التنسيق الجديدة المطلوبة قد ترتبت بالضرورة على تطور الثورة الميكانيكية، وهي لا تزال حتى اليوم في مراحلها الافتتاحية لمَّا تتجاوزها.

٢ - العلاقة بين الانقلابين الآلي والصناعي

تجنح كثير من كتب التاريخ إلى الخلط بين ما سميناه هنا باسم الانقلاب الآلي، الذي كان شيئاً جديداً تمام الجدة في الخبرة الإنسانية ناشئاً عن تطور العلم المنظم، وكان خطوة جديدة تشبه اختراع الزراعة أو اكتشاف المعادن، وبين شيء آخر مختلف تمام الاختلاف في مصادره وأصوله، شيء كان له من قبل سابقة تاريخية، هو التطور الاجتماعي والمالي الذي يسمى الانقلاب الصناعي أو الثورة الصناعية.

كانت العمليتان تسيران جنباً إلى جنب، وكانتا تتفاعلان بعضهما مع بعض تفاعلاً مستمراً، ولكنهما كانتا مختلفتين أساساً وروحاً وجوهرًا. إذ لم يكن بد من أن يحدث انقلاب صناعي من نوع ما، ولو لم يوجد الفحم الحجري، ولو لم يوجد البخار ولا الماكينات؛ ولعله كان سيقضي في هذه الحالة بدقّة أشد، خطى التطورات المالية والاجتماعية التي حدثت في السنوات المتأخرة للجمهورية الرومانية. ولعله كان يعيد قصة المزارعين الأحرار المشردين عن أملاكهم، وقصة مناسر العمال ونظام المزارع الكبيرة والثروات المالية الكبرى، وإحدى العمليات المالية المقوضّة للمجتمع.

والواقع أن طريقة المصنع ذاتها جاءت قبل ظهور القوة والماكينات. فكان المصانع لم تكن ثمرة للآلات، بل "لتقسيم العمل". فإن العمال المدربين المكودين كانوا يصنعون أشياء من أمثال قبعات السيدات وصناديق الورق المقوى والأثاث ويقومون بتلوين الخرائط وصور الكتب وما إليها، قبل أن تستعمل العجلات المائية نفسها في العمليات الصناعية. وكانت هناك مصانع في روما في أيام أوغسطس، فإن الكتب الجديدة مثلاً كانت تملأ على صفوف من النساخ في مصانع الوراقين. وسوف يدرك كل لبيب من دارسي الكاتب الإنجليزي دانيال ديفو ونشرات فيلدنج السياسية، أن فكرة جمع الفقراء كالتطيع في أماكن ليستغلوا أحشاداً في كسب رزقهم، كانت أمراً سبقت معرفته في بريطانيا قبل نهاية القرن السابع عشر. وهناك من الإشارات ما يدل على هذا حتى في زمان يرجع في قدمه إلى أيام اليوتوبيا^(١) التي ألفها السير توماس مور (١٥١٦). كان الانقلاب تطوراً اجتماعياً وليس ميكانيكياً.

وكان تاريخ أوروبا الغربية الاجتماعي والسياسي إلى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر يتروسم في الحقيقة نفس الطريق الذي سارت فيه الدولة الرومانية في القرون الثلاثة السابقة على ميلاد المسيح. وكانت أمريكا من نواح كثيرة إسبانيا الجديدة. وكانت الهند والصين مصرًا جديدة. على أن الانقسامات السياسية في أوروبا، والفورات السياسية ضد الملكية، وعناد العامة وربما أضيف كذلك قابلية الذكاء الأوروبي الغربي العظيمة لتلقي الأفكار والمستحدثات الميكانيكية، قد حولت العملية إلى وجهات جديدة تمام الجدة. وبفضل المسيحية بوجه خاص انتشرت فكرات الترابط الإنساني انتشاراً أعم وأعظم في هذا العالم الأوروبي الأدب، جذّة، ولم يكن السلطان السياسي مركزاً إلى هذا الحد. ومن ثم سارع النشاط من الرجال التواق إلى التذراء،

(١) اليوتوبيا: جزيرة خيالية تصورها السير توماس مور حاوية لأكمل النظم السياسية والدينية والقانونية والاقتصادية. واسمها الأصلي بالعربية الطوبى. (المترجم)

فوجه كل همه عن طيب خاطر منصرفاً عن فكرة الرقيق ومناسر العمل إلى فكرة القوة الميكانيكية والماكنية.

أما الثورة الآلية (الميكانيكية) أي عملية الاختراع والاكتشاف الآلي، فكانت شيئاً جديداً في الخبرة الإنسانية، وقد سارت في سبيلها غير عابئة بالعواقب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والصناعية التي عسى أن تترتب عليها. فأما الثورة الصناعية من الناحية الأخرى، شأن معظم الشؤون الإنسانية الأخرى، فقد ألم بها وما يزال يلح بها العميق المتكاثر من التغير والانحراف بسبب التغير المستمر في الأحوال الإنسانية الناشئ عن الثورة الميكانيكية. وينحصر الفارق الضروري بين اختزان القناطير المقنطرة من الأموال، وإبادة صغار المزارعين وصغار رجال الأعمال، وطور المالية الكبيرة في القرون المتأخرة للجمهورية الرومانية من ناحية، وبين الحالة الشديدة المماثلة لتلك والتي قوامها تركز رؤوس الأموال في القرن الثامن عشر والتاسع عشر من الناحية الأخرى، ينحصر في الفارق العميق في خصائص العمل التي كانت الثورة الميكانيكية تحدثها.

كانت القوة في العالم القديم هي قوة الإنسان، فكان كل شيء يعتمد اعتماداً مطلقاً على قوى الدفع في العضل الإنساني؛ عضل الجهلة والمقهورين من الرجال. وكان قليل من العضل الحيواني قوامه ثيران وخيول الجر وما إليها يضاف إلى عمل الإنسان. فأنى كان هناك حمل لا بد من رفعه فقد كان الرجل مالهم الذين يرفعونه، وأنى وجب أن يقطع حجر، كان الرجال يقدونه، وأنى لزم حرث حق من الحقول، كان الرجل والثيران يحرقونه؛ وكان المعادل الروماني للسفينة البخارية هو الغليون (Galley) أي السفينة القديمة بهما فيها من صفوف المجدفين المكودين.

وكانت نسبة ضخمة من أفراد البشرية تستخدم في المدينيات الأولى في العمل الشاق الآلي البحت. والماكينات المدفوعة بالقوة لم يبد فيها عند البداية ما يبشر بأي أمل في فكك الإنسان من رقة مثل هذا العناء العضلي الذي لا زكاء فيه. فكانت جماعات عظيمة من العمال تستخدم في حفر القنوات، وفي عمل قطع السكك الحديدية وجسور^(١) الأنهار وما إليها. تزايد عدد عمال المناجم تزايداً هائلاً. ولكن اتساع التسهيلات وإنتاج السلع تزايد أكثر من ذلك جداً. ومع مضي الزمن بالقرن التاسع عشر أخذ المنطق البسيط الواضح للموقف الجديد يثبت وجوده بشكل أشد وضوحاً. فلم تعد الكائنات الإنسانية تطلب بعد ذلك بوصفها مصدراً لمجرد قوة لا يميز بين مفرداتها أحد. إذ كان ما يمكن صناعته آلياً بواسطة الكائن الإنساني ممكناً صناعته أسرع وأجود بواسطة الآلة، ولذا لم تعد هناك الحاجة إلى الكائن الإنساني الآن إلا حيث يتطلب الأمر الاختيار والذكاء. فكان الكائنات الإنسانية لم تعد تطلب إلا بوصفها كائنات إنسانية لا غير. فأما ذلك العسيف^(٢) المشتغل بالأعمال الشاقة الذي قامت على أكتافه كل المدينيات السالفة، ذلك الكائن المخلوق لمجرد الطاعة، ذلك الإنسان الذي كان عقله شيئاً لا لزوم له - فقد أصبح غير ضروري لرفاهة الإنسانية.

(١) الجسور ليست هنا بمعنى الكباري بل بالمعنى الذي يقال عنه في مصطلح أهل مصر الكورنيش. (المترجم).

(٢) العسيف (Drudge): فاعل تساء معاملته ويرهق بالباطل الحقيق من الأعمال. (المترجم).

وصدق هذا على الصناعات العتيقة كالزراعة واستخراج المعادن صدقه على أحدث عمليات التجهيز في المعدنيات. فأما الحرث والبذر والحصاد فقد ظهرت لها آلات سريعة تعمل عمل عشرات الرجال. وفي هذا الميدان تزعمت أمريكا العالم القديم. وكانت الحضارة الرومانية تقوم على كائنات إنسانية رخيصة منحة عن مكانتها، والحضارة العصرية يعاد بناؤها على القوة الميكانيكية الرخيصة. إذ جاءت مائة من السنين اطرد فيها رخص القوة وغلاء العامل. فلئن اضطرت الماكينات أمد جيل أو بعض جيل أن تنتظر دورها في المنجم، فإن ذلك كان لمجرد أن الرجال لبثوا ربحاً من الزمان أرخص من الماكينات. فكانوا يقدرون في نورثمبرلند وديرهام في أيام استخراج الفحم الأولى تقديرًا يبلغ من الرخص والحطة أنه لم تجر العادة بإقامة التحقيق حول أجساد القتلى في كوارث المناجم. وكانت الحاجة إلى نقابات العمال ماسة لتغيير حالة الأمور هذه.

ولكن هذا الاتجاه العام نحو إكمال العمل اليدوي والقضاء عليه بواسطة الآلات، كان انقلاباً ذا أهمية من الدرجة الأولى تماماً في الشؤون الإنسانية. وكان أهم ما يشغل بال الغني والحاكم في المدينة القديمة أن يحتفظ بمدد متواصل من العسقاء المشغولين بالأعمال الشاقة. إذ لم يكن هناك أي مصدر آخر للثراء. فلم يتناول العهد بالقرن التاسع عشر أخذت تزداد وضوحاً لدى القوم الأذكاء الموجهين للآخرين، الفكرة القائلة بأن الرجل العادي لا بد له الآن من أن يكون شيئاً أحسن من فاعل عسيف بكبح. فكان لابد من تعليمه للحصول على 'الكفاية الصناعية على الأقل'. وكان لابد له من أن يفهم ما عليه حال الدنيا.

وقد كان التعليم الشعبي منذ أيام الدعاية المسيحية الأولى، ناراً تنقد تحت الرماد في أوروبا، كما كانت تنقد تحت الرماد في آسيا حيثما وضع الإسلام قدمه، بسبب الضرورة القاضية بجعل المؤمن على شيء من الفهم للعقيدة التي تنفذ روحه، وتمكينه من قراءة ما تيسر من الكتب المقدسة التي تحمل إليه اعتقاده. وقد أدت الخصومات بين الطوائف المسيحية وما صاحبها من تنافس على الأنصار، إلى حرث التربة وتمهيد لها لبذور التعليم الشعبي العام. فقد حدث في إنجلترا مثلاً عندما ضرب القرن التاسع عشر في عقده الرابع والخامس، أن أنتجت منازعات الطوائف وضرورة الاستحواذ على الأنصار صغاراً، وفرة في المدارس الليلية، ومدارس الأحد وسلسلة من الهيئات التعليمية للأطفال، والمدارس البريطانية غير المنتمية إلى أية طائفة دينية والمدارس القومية التابعة للكنيسة، بل حتى المدارس الأولية الكاثوليكية.

وكان أصحاب المصانع الأقدمون عهداً والأقل استتارة وعلمًا يكرهون هذه المدارس ويعارضونها لضيق أفقهم حتى عن النظرة الخاصة إلى مصالحهم الخاصة. وفي هذا المجال أيضاً تزعمت ألمانيا الفقيرة الأكثر جيرانها منها ثروة. وسرعان ما وجد المعلم الديني في بريطانيا أن طالب الماكاسب قد انحازوا إليه، وقد غلبهم شغف غير متوقع إلى تعليم عامة الناس، وإلا فإلى "تدريبهم" إلى مستوى أعلى في الكفاية الاقتصادية والإنتاجية.

وكان النصف الثاني من القرن التاسع عشر فترة تقدم سريع في التعليم الشعبي العام في كل أرجاء العالم المصطبغ بالصباغ الغربي. ولم يصحب هذا تقدم مماثل في تعليم الطبقات العليا - ولا ريب أن قد حصل شيء من التقدم ولكنه ليس شيئاً يعادل ذلك ويقابله - وبذا لم يعد ذلك البون العظيم الذي كان حتى حين يقسم العالم إلى الطبقة القارئة والمجموعة غير القارئة، يزيد كثيراً عن فارق ضئيل جداً في المستوى التعليمي. وكانت الثورة الميكانيكية تقف من وراء هذه العملية. وكانت تسير غير عابئة في الظاهر بالظروف الاجتماعية، ولكنها مصرة في الحقيقة إصراراً عنيداً على إلغاء الطبقة التامة الأمية في كل أرجاء العالم إلغاء كاملاً.

ولم يستطع عامة سكان روما بأية حال فهم الثورة الاقتصادية في الجمهورية الرومانية فهماً واضحاً. فإن المواطن (الممان) الروماني العادي لم يرق قط التغيرات التي كان يعيش فيها رؤية واضحة مفهومة كما نراها نحن الآن. على أن الثورة الصناعية وهي تمضي في سبيلها قرب نهاية القرن التاسع عشر، كانت واضحة لأعين العامة الذين كانت تؤثر فيهم، وكانوا يعرفون أنها عملية واحدة متماسكة، لأنهم كانوا قد أخذوا للوقت يستطيعون القراءة والمناقشة والتواصل، ولأنهم كانوا يضرّبون في الأرض ويرون الدنيا على شكل مملكة لم تصل إليها فئة من العامة قبلاً. ولقد حرصنا في هذه "معالم التاريخ" أن نؤمّن لك إلى الظهور التدريجي للعامة بوصفهم طبقة لها إرادة مشتركة وفكرات مشتركة. ومن رأي الكاتب أن الحركات المضخامة لعامة الناس فوق مساحات جسيمة، لم تصبح في الإمكان إلا نتيجة لديانتي الدعاة: المسيحية والإسلام، وإصرارهما على الاحترام الذاتي للفرد. وقد سقنا قصة حماسة العامة للحرب الصليبية بوصفها مميّزاً لدور جديد من أدوار التاريخ الاجتماعي.

غير أن هذه الحركات المضخامة بذاتها كانت قبل القرن التاسع عشر، محدودة نسبياً. ولكن فتن الفلاحين للمطالبة بالمساواة ظلت ابتداءً من زمان ويكلف فما عقبه، مقصورة على مجتمعات للفلاحين في مواضع محلية محدودة، ولم تنتشر إلا على بضع نواح تؤثر فيها مؤثرات مشابهة. أجل إن صناعات المدن كثيراً ما كانوا يشغبون، ولكن ذلك كان شيئاً محلياً بحتاً.

ولم يكن إحراق القصور في الثورة الفرنسية من عمل فلاحين قد قلبوا حكومتهم، بل من عمل فلاحين أطلقهم من قيودهم قلب حكومتهم. وكان "كوميون" باريس أول ظهور فعال لصناع المدينة بوصفهم قوة سياسية، وكان الجمهور الباريسي في الثورة الأولى جمهوراً شديد التخلط بدائي التفكير متوحشاً، بالموازنة إلى أي جمهور أوروبي بعد (١٨٣٠).

على أن الثورة الميكانيكية لم تقتصر على إدخال التعليم قسراً على السكان كافة، بل كانت مؤدية إلى رأسمالية كبيرة وإلى إعادة تنظيم كبير للمعيار للصناعة قدر له أن ينتج في العامة نظاماً من الأفكار جديدًا مميّزاً بدلاً من مجرد العناد القلق والثورات الأولية التي تحدث من دهماء أميين.

ولقد سبق أن لاحظنا كيف شقت الثورة الصناعية الطبقة الصانعة، التي كانت حتى حين رتباً من طبقة متوسطة مختلطة، إلى نوعين من الطبقات، هي أصحاب الأعمال الذين بلغوا من الثراء ما مكّنهم من

الاختلاط بالطبقات المالية والمتجرة وصاحبة الأراضي؛ والمستخدمين (العمال) الذين كانوا ينتقلون إلى حالة تقرب رويدًا رويدًا من حالة مجرد عمال المناسر والزراعة. وبينما كان العامل الصناعي يهبط، كانت ترتفع قيمة العامل الزراعي بسبب إدخال الآلات الزراعية والزيادة في قوة إنتاجه الفردي.

وعند منتصف القرن التاسع عشر، كان كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) وهو يهودي ألماني بلغ بسطة عظيمة من العلم، قد أخذ يشير إلى أن تنظيم الطبقات العامة على يد جماعة ملاك رأس المال المتزايد التمرکز تزايدًا متواصلًا مستمرًا، كان يطور تصنيفًا اجتماعيًا جديدًا يحل محل أنظمة طبقات الماضي الأكثر تعقيدًا. ذلك أن الأملاك بالقدر الذي هي به قوة، كانت تجمع بعضها إلى بعض في أيدٍ قليلة نسبيًا، هي أيدي كبار الأغنياء، أي طبقة الرأسماليين، على حين كان ينتج هناك اختلاط عظيم في العمال الذين لديهم القليل أو ليس لديهم شيء من الأملاك، الذين كان يسميهم باسم "أصحاب الأملاك سابقًا" أو البروليتارية^(١) - (وهو استعمال خاطئ لهذه الكلمة) - وهم الذين لا مناص لهم بسبب تنازع مصالحهم ومصالح الأغنياء من أن يطوروا "وعيًا مشتركًا" بين أفراد طبقتهم.

وقد جاء على الناس ربح من الزمان بدا لهم فيه أن الفوارق في التعليم والتقاليد بين العناصر الاجتماعية المتنوعة الأقدم عهدًا، والتي كانت تمر في عملية الصهر والخلط بعضها ببعض لتصبح الطبقة الجديدة طبقة (أصحاب الأملاك سابقًا)، قد أخذت تتناقض هذا التعميم الجارف. فكانت تقاليد أصحاب الدرف وصغار أصحاب العمل والمزارعين الفلاحين ومن إليهم تختلف جميعًا بعضها عن بعض وعن التقاليد الحرفية المتنوعة للعمال. ولكن هذا التعميم "الماركسي" يصبح الآن مقبولًا أكثر فأكثر مع انتشار التعليم ورخص ثمن الكتب.

هذه الطبقات التي لم يكن يربطها في أول الأمر رابط غير فقر مشترك أصابهم جميعًا على السواء، كانت ولا تزال تتخفف عن نفس مستوى الحياة أو ترتفع إليه وتجبر على قراءة نفس الكتب والاشتراك في نفس المضايقات. ومن ثم فإن شعورًا من التماسك بين كل أنواع الرجال الفقراء الذين لا أمل لهم ضد الطبقة التي تكس الأرباح وتمتلك الثروة، قد أخذ يزداد وضوحًا أكثر فأكثر في عالمنا هذا. فإن الفارق القديمة تذوى، فيذهب الفارق بين رب الحرفة والعامل في العراء، وبين الموظف صاحب السترة (الجاكّة) السوداء والعامل صاحب معطف العمل الواقعي (العفريتة)، وبين القسيس الفقير ومعلم المدرسة الأولية، وبين رجل الشرطة وسائق الأومنيبوس. فلا بد لهم جميعًا من مشتري نفس الأثاث الرخيص، ولا بد لهم من سكنى البيوت الرخيصة المتشابهة. ولا بد أن يختلط أبنائهم وبناتهم جميعًا ويتزوجوا بعضهم من بعض. ويصبح النجاح في المستويات العليا أمرًا ينقطع دونه أكثر فأكثر أمل عامة الناس. وتبرر الحوادث كل يوم أكثر فأكثر آراء ماركس الذي لم يدافع عن حرب الطبقات قدر ما تتبأ بها؛ وهو يعني بحرب الطبقات الحرب التي

(١) البروليتارية (Proletariat): هي الطبقات الدنيا أو عامة الشعب أو العمال وهي كلمة مشتقة من اللفظة اللاتينية (Proletarius)، ومعناها مواطن من أدنى طبقة، يخدم الدولة لا بأملكه بل بنسله (Panes). ومن ثم يشير المؤلف إلى الفارق بين استخدام اللفظ قديمًا وحديثًا (المترجم).

تشنها طبقة 'أصحاب الأملاك سابقاً' على الأقلية التي لا تبرح تمتلك الأملاك وقد يدفع بعضهم أحياناً في جدله ضد ماركس بأن نسبة الناس الذين لهم مدخرات مستثمرة قد تزايدت في كثير من المجتمعات العصرية. فهذه المدخرات هي من الناحية الفنية التكنيكية "رأسمال" وأصحابها إنما هم "رأسماليون" على ذلك المنوال، ويظن أولئك أن هذا يناقض بيانات ماركس القائلة بأن الملكية تتمركز في أيدٍ تنتقل في عددها من القليل إلى الأقل. وكان ماركس يستعمل كثيراً من مصطلحاته بلا عناية ويسيء اختيارها، وكانت فكراته خيراً من ألفاظه. فقد كان عندما يكتب 'الأملاك' يعني 'الأملاك' إلى حد الذي هي به قوة". وللمستثمر الصغير قوة صغيرة صدغراً ملحوظاً على رأس ماله المستثمر.

٣- اختتام الأفكار في ١٨٤٨

لا شك أن من أعسر الأمور تعقب المعالم الإجمالية لاختتام الأفكار الذي كان يحدث أثناء الانقلاب بين الآلي والصناعي في القرن التاسع عشر. على أنه لزام علينا أن نحاول ذلك إن نحن شئنا أن نربط بين ما سبق حدوثه في هذا التاريخ وبين حال عالمنا اليوم.

ومن المناسب أن نميز بين فترتين رئيسيتين في السنوات المائة الممتدة بين (١٨١٤، ١٩١٤). فقد جاءت أولاً الفترة بين (١٨١٤ - ١٨٤٨)، وفيها حدث قدر جسيم جداً من التفكير المتحرر والكتابة الأسلمية المتحررة في دوائر محددة، ولكن لم تحدث فيها أية تغييرات عظيمة أو تطورات كبيرة في الفكر بين كتلة الشعب العامة. وكانت شئون العالم تلك الفترة تعيش - إن جاز لنا مثل هذه العبارة - على رأسمالها الذهني القديم، فإنها كانت تضي وفق الأفكار الرئيسية للثورة والثورة الرجعية المضادة. وكانت الأفكار التحررية السائدة هي الحرية وضرب مبهم بعينه من فكرة المساواة. وكانت أفكار المحافظين هي الملكية؛ والديانة المنظمة، والامتيازات الاجتماعية والطاعة.

وكانت روح المحافظة المقدسة حتى (١٨٤٨)، وهي روح مترنيخ تكافح لمذبح أي انتعاش للثورة الأوربية التي خانها نابليون وأرجعها أدراجها. ومن الناحية الأخرى كانت الثورة في أمريكا بجزيئها الشمالي والجنوبي، قد انتصرت. وكانت الروح التحررية في القرن التاسع عشر تسودها لا ينازعها ذلك من أزع. وكانت بريطانيا قطراً قلقاً، لا هي تميل بولائها تمام الميل إلى الرجعية ولا تميل به تمام الميل إلى حركة التقدم، ولا هي صادقة في روحها الملكية ولا صادقة في روحها الجمهورية فكانت أرض كرومويل وكذلك كانت أرض الملك المرح شارل، وكانت مضادة للنمسا؛ ومضادة لآل بوربون، ومضادة للبابا، ومع ذلك فإن روح القمع فيها كانت ضعيفة. ولقد حدثناك عن أول سلسلة من عواصف التحرر في أوروبا في (١٨٣٠) وحواليها. وصدر في بريطانيا في (١٨٣٢) مشروع قانون إصلاح يوسع حق الانتخاب توسيعاً عظيماً ويعيد إلى مجلس العموم شيئاً كثيراً من خصيصته التمثيلية، فخفف كثيراً من توتر الموقف.

وجاءت قرابة (١٨٤٨) وحواليها مجموعة ثانية من الانفجارات أشد من الأولى خطورة بكثير، أفضت إلى خلع ملكية آل أورليان، وتأسيس جمهورية ثانية في فرنسا (١٨٤٨ - ٥٢)، وأثارت شمل إيطاليا والمجر ضد النمسا، وأهاجت البولنديين في "بوزن" على الألمان، وجعلت البابا يفر من وجه الجمهوريين في روما. وعقد في براج مؤتمر شائق جداً هو مؤتمر الكتلة السلافية الذي تسلف مقدماً كثيراً من تلك التسويات والتعديلات الإقليمية التي تمت في (١٩١٩). وانفض المؤتمر بعد أن قمعت الجنود النمساوية عصياناً شب في براج. فأما العصيان الهنغاري فكان أشد قوة فواصل الكفاح سنتين. وكان زعيمه الأكبر هو لويس كوسوث. ولم يبرح بعد أن دحر ونفي، بواصل دعاية عظيمة في سبيل حرية وطنه وقومه.

وقد أخفقت كل هذه الفتن في النهاية إخفاقاً تاماً. وترنح النظام القائم ولكنه ظل واقفاً على قدميه. ولا ريب أن هذه الفتن كانت وراءها توترات اجتماعية خطيرة، ولكن لم تكن لهذه الثورات حتى آنذاك، اللهم إلا في حالة باريس، أية صورة واضحة ملموسة. وأحسن ما يقال عن عاصفة (١٨٤٨) هذه - بقدر ما يهم أوربا

- أن تمتعت في كلمة واحدة باسم "ثورة الخريطة السياسية الطبيعية" على الترتيبات الاصطناعية لدبلوماسي فيينا، وعلى نظام القمع الذي ترتب على تلك الترتيبات.

ومن ثم يكون تاريخ أوروبا من (١٨١٥ - ١٨٤٨) على وجه العموم، لاحقاً لتاريخ أوروبا من (١٧٨٩ - ١٨١٤). ولم يكن ينطوي على أية أفكار جديدة حقاً وما برح رأس المتاعب هو الكفاح بين مصالح الرجال العاديين وبين نظام الدولة العظمى التي أرهقت بالضغط حياة البشرية وقيدتها - وإن يكن في الكثير من الأحاديث كفاً أعمى سيئ التوجيه.

ولكن حدث بعد (١٨٤٨)، أي من (١٨٤٨ إلى ١٩١٤) أن عملية إعادة تسوية الخريطة إعادة نتجه إلى إيجاد إيطاليا حرة موحدة، وألمانيا موحدة، تواصلت ولم تقف عند حد. فقد بدأ دور جديد في عملية التكيف الذهني والسياسي وفق ما بلغت البشرية من المعرفة الجديدة والقوى المادية الجديدة. ثم حدث انفجار عظيم للفكرات الجديدة الاجتماعية والدينية والسياسية، تغلغل بها في العقل الأوروبي العام. وسوف نتأمل في الأقسام الثلاثة التالية مصادر هذه الانفجارات ونوعها ذلك بأنها وضعت لنا الأسس التي نبني عليها اليوم فكرنا السياسي، غير أنها ظلت زمناً طويلاً وليس لها أثر كبير على السياسة المعاصرة. فاستمرت السياسة المعاصرة تجري على السنن القديمة. وإن داخل الوهن المتواصل ما لها من دعامة في ضد مائت الناس واعتقاداتهم الفكرية.

ولقد وصفنا لك أنفاً الطريقة التي قوضت بها إحدى العمليات الذهنية القوية نظام الملكية العظمى بفرنسا قبل (١٧٨٩). وثمة عملية تقويض مماثلة كانت تجري في أرجاء أوروبا إبّان فترة الدول الكبرى من (١٨٤٨ - ١٩١٤). إذ انتشرت في كل أرجاء الهيئة الاجتماعية شكوك عميقة حول نظام الحكومة ودول مدى الحريات التي لكثير من أشكال الملكية في النظام الاقتصادي. ثم جاءت حرب هي أعظم حروب التاريخ وأشدّها تدميراً، ومن ثم استحالة على الذين عاشوا بعدها مباشرة أن يقدروا قوة ومجال الأفكار الجديدة التي تجمعت في هذه السنوات الست والستين. فلقد مرت الدنيا في ملة كبرى أعظم كثيراً، حتى من الكارثة النابليونية نفسها، وما نحن إلا في فترة راحة بين المد والجزر تقابل فترة (١٨١٥ - ٣٠) وتمت إليها بسبب. وما زلنا نتوقع أن تأتينا سنتا (١٨٣٠، ١٨٤٨) الخاصتين بنا وبالقرون العشرين فتكشفان لنا أين نحن وقوف.

٤ - تطور فكرة الاشتراكية

قفونا في كل أرجاء هذا الكتاب التضييق التدريجي الذي حاق بفكرة الملكية منذ الادعاء الأول غير المحدود للرجل القوي على ملكية كل شيء، ومنذ إدراك الناس تدريجيًا الفكرة الأخوية بوصفها شيئًا يسمو على البحث الشخصي عن الذات. وقد بدأ الأمر بأن أخضع الناس بدافع الخوف من الملك والله، لسلطان شيء أعظم من المجتمعات القبلية. ولم يحدث إلا في خلال الآلاف الثلاثة أو على الأكثر الآلاف الأربعة الأخيرة من السنين، أن تهيأ لنا برهان واضح يدل على أن نكران الذات الاختياري في سبيل غاية أعظم، وبغير أجر يرجى أو ثواب ينتظر، كان فكرة مقبولة لدى الناس، أو أن أي إنسان قد قام بطرحها.

ثم إننا نجد شيئًا ينتشر على وجه الشؤون الإنسانية، كما تنتشر رقاع من ضياء الشمس ثم ترفرف جوانب التلال في يوم ريح من أيام الربيع، هو الفكرة القائلة بأن في التضحية بالنفس سعادة أعظم من أي إرضاء ذاتي أو انتصار شخصي، وحياة للبشرية مختلفة وأعظم قدرًا وأكثر أهمية من صافي مجموع حياة الأفراد الذين يوجدون في نطاقها؛ ورأينا هذه الفكرة تصبح وهاجة كالنبراس، ناصعة نصاعة ضياء الشمس حين تلتقطه إحدى النوافذ وتعكسه على منظر طبيعي فتبهر به الأبصار، رأيناها في تعاليم "بوذا"، "ولاولو تسي" وبوجه أشد ما يكون وضوحًا في تعاليم "يسوع" الناصري.

ولم تفقد المسيحية قط أثناء كل ما ألم بها من التغيير والمفاسد بارقة إخلاص لمكوت الرب تجعل بذخ الملوك والحكام الشخصي أشبه الأشياء بوقاحة خادم أفرط في أناقة ثيابه، وتجعل أبهة الأثرياء وإشباعهم لشهواتهم أشبه شيء بتبذير اللصوص. وما من رجل يعيش في مجتمع مسته أنامل ديانة مثل المسيحية أو الإسلام، بمستطيع أن يكون عبدًا تام العبودية. فإن في هاتين الديانتين صفة لا تمحى تجبر الرجل على إصدار الأحكام على سادتهم وعلى تحقيق مسئوليتهم الخاصة نحو العالم.

وبينما كان الناس يتلمسون طريقهم نحو حالتهم الفكرية الجديدة منتقلين إليها من حالة الشره الأدنى العنيف وروح القتال الغريزية الشرسة في جماعة العائلة الباليوليثية الأولى، فإنهم جهدوا أن يعبروا عن اتجاه أفكارهم وضرورياتهم تعبيراً متخالفًا جدًا. ووجدوا أنفسهم على خلاف وفي نزاع مع الأفكار القديمة المقررة. وكانت بهم نزعة طبيعية لمناقضة هذه الأفكار مناقضة صريحة، والثوب من فوقها إلى عكسها المطلق.

وقد قامت الحركة الأولى متسارعة نافذة الصبر، فأعلنت أنها تهدف إلى مساواة شاملة، ولكن غلبتها الحق يقال الفوضى الشاملة، خاصة وقد واجهها عالم، الحكم فيه والطبقات والنظام تبدو جميعًا وكأنما لا هم لها إلا إيتاء الفرص للأناية الشخصية والظلم الفاجر. وواجهها عالم تبدو فيه الملكية أنها لا تزيد كثيرًا عن وقاية للأناية ووسيلة إلى الاستبعاد، وكان من الطبيعي أيضًا أن نجد كل ملكية.

ويبين لنا تاريخنا أن هناك على الدوام دافعاً متزايداً يدفع الناس إلى الثورة على الحكام وعلى الملكية. وقد تعقبنا ذلك الدافع في القرون الوسطى، وهو يحرق قصور الأغنياء ويجرب التجارب في الثيوقراطية^(١) والشيوعية. وكان هذا التمرد المزدوج واضحاً جلياً في الثورات الفرنسية. فإنما نجد في فرنسا رجلاً يصرحون وأعينهم مسلطة على ضرائب الحكام، بأن الأملاك حرمة يجب ألا تنتهك، كما نجد آخرين يصرحون وأبصارهم شاخصة إلى مساومات صاحب العمل القاسية أنه يجب أن تلغى الملكية. وهم يعي شون جنباً إلى جنب ويستلمون جميعاً نفس الروح الواحدة، كما أنهم أعضاء طبيعويون في الحركة الثورية نفسها. ولكن ما كانا في كلا الحالتين نائرين عليه إنما هو أن الحكام وصاحب العمل، لا يزالون كغيرهم من البشر أفراداً أنانيين يبحثون عن خير أنفسهم ويظلمون الناس بدل أن يكونوا خداماً للمجتمع.

وإننا لنجد هذا الاعتقاد ينمو في أذهان الناس على مر العصور: وهو أن في الإمكان قيام ذلك التنظيم الجديد للقوانين والسلطات قياماً يقدم للناس الحكم والنظام، بينما هو لا يبرح يصد أنانية أي حاكم أية طبقة حاكمة قد تكون ضرورية، ويزود الناس بذلك التعريف للملكية الذي يمنح الحرية من غير قوة ظالمة. وقد شرعنا ندرك في أيامنا هذه أنه ليس في المستطاع بلوغ هذه الغايات إلا بمجهود إنشائي مركب، فإنها تشأ بسبب منازعات الحاجات الإنسانية الجديدة ضد الجهالة والطبيعة الإنسانية القديمة؛ بيد أنه شاع طوال القرن التاسع عشر ميل مستمر ثابت إلى حل المسألة ببعض الحلول البسيطة. (ليكون الناس سعداء إلى أبد الآبدين، وذلك بغض النظر عن أن الحياة الإنسانية كلها، بل والحياة عامة، ليست على مزالع صور إلا محاولة متواصلة لإيجاد حل لمشكلة معقدة مستمرة).

وقد شهد النصف الأول من القرن التاسع عشر عدداً من التجارب في تكوين جماعات إنسانية تجريبية ذات نوع جديد، ومن أهم تلك التجارب من الناحية التاريخية، تجارب وفكرات روبرت أوين (١٧٧١ - ١٨٥٨)، وهو غزّال قطن من مانشستر، وهو يعد بوجه عام المؤسس للاشتراكية العصرية. وذ شوء كلمة "الاشتراكية" لأول مرة إنما كان بالعلاقة إلى عمله حوالي (١٨٣٥). ويلوح أنه كان رجلاً من رجال الأعمال على غاية من الكفاية. فإنه ابتكر عدداً من المستحدثات في صناعة غزل القطن، وجمع ثروة لا بأس بها في سن مبكرة. وقد أحزنه ضياع ما في عماله من احتمالات بشرية بددا؛ فنصب نفسه لتحسين حالهم وتدسين العلاقات بين صاحب العمل والعمال. فجهد أن ينفذ ذلك أولاً في مصنعه بمانشستر ثم في نيولانارك بعد ذلك، حيث ألغى نفسه متصرفاً بالفعل في مصانع تستخدم ألفين من الأفراد.

وتوصل بين (١٨٠٠، ١٨٢٨) إلى أمور ضخمة جداً. فإنه أنقص ساعات العمل، وجعل مصنعه صحياً مقبولاً، وألغى استخدام الأطفال صغار السن جداً، وحسن تدريب عماله وزود العمال بأجور البطالة أثناء فترة كساد في التجارة، وأسس مجموعة من المدارس، وجعل من نيولانارك مثلاً يحتذى لحركة عمالية صناعية أحسن وأطيب، على حين كانت في نفس الوقت تحافظ على رعايتها التجاري. كتب كتابات قوية مدافعة عما كانت تتهم به أغلبية البشرية من الإفراط في المسكرات وعدم التبصر في العواقب، التي كان أهل العصر

(١) الثيوقراطية (Theocracy): حكومة قسوس تدعى أن الله مصدر سلطتها. (المترجم).

